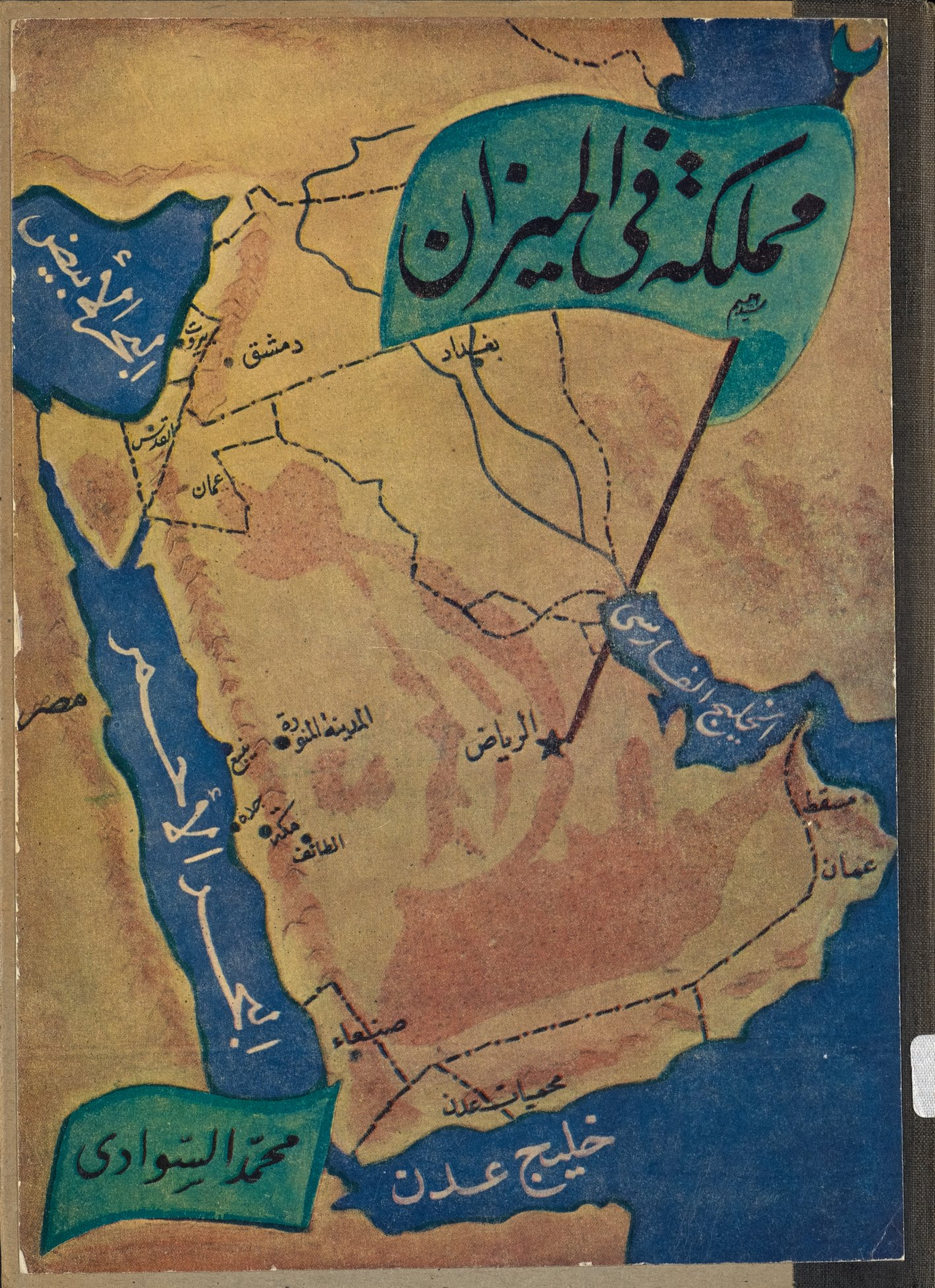
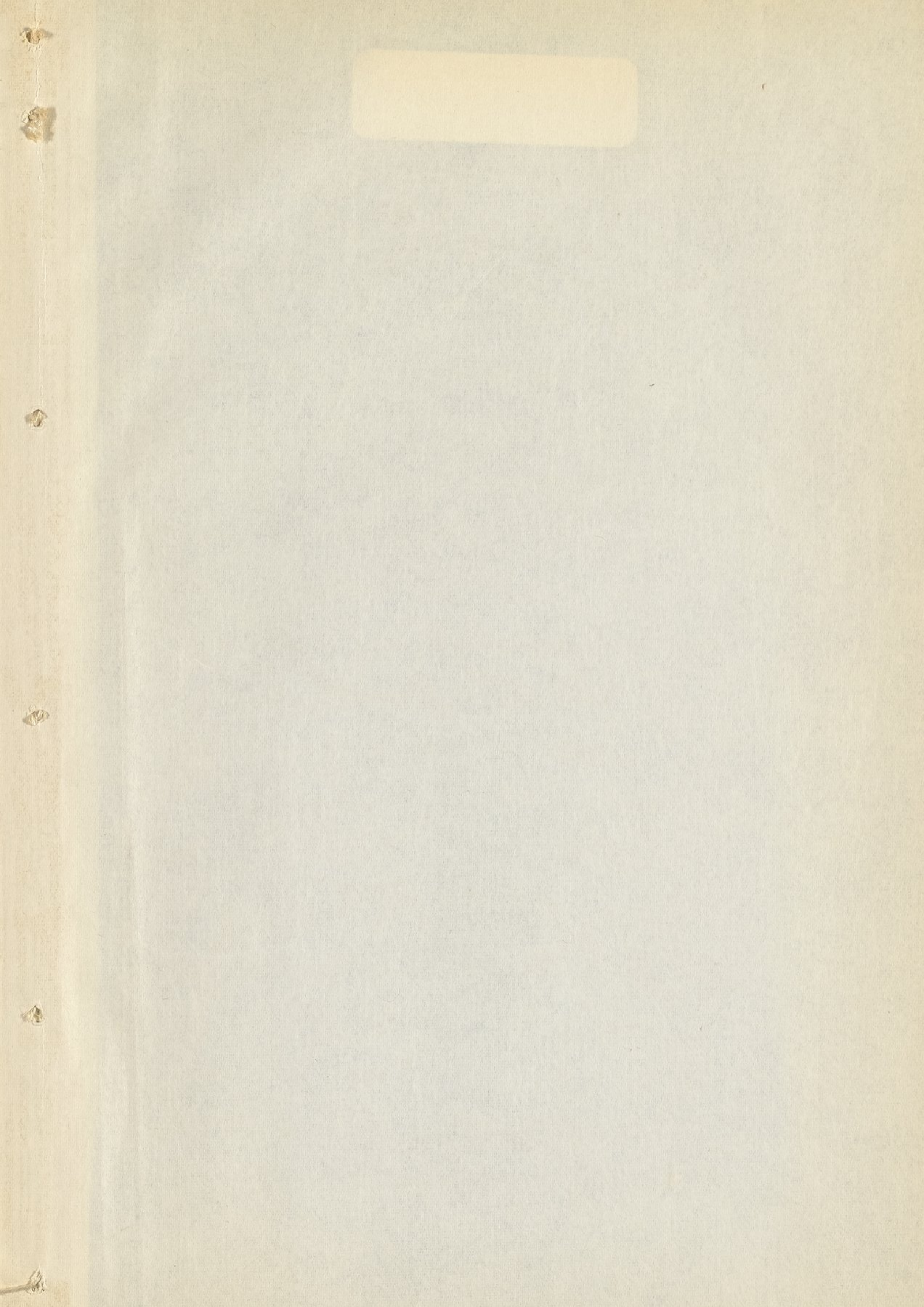


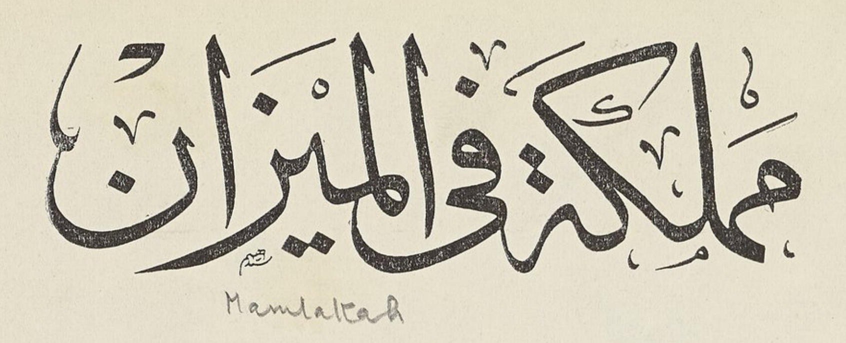
مملكة في الميزان
محمد السوادي
البحر الأبيض
البحر الأحمر
الخليج الفارسي
خليج عدن
بيروت
دمشق
بغداد
القدس
عمان
مصر
المدينة المنورة
ينبع
جدة
مكة
الطائف
الرياض
مسقط
عمان
صنعاء
محميات عدن

2274.857335.361
al-Sawadi
Mamlakah fi al-mizan

DATE	ISSUED TO
OCT 27 1960	Bindery
NOV 16 '66	J.ROUMANI G







بقلم

محمد السّوادى

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

الثمن ٢٥ ص

المطبعة العالمية ١٦ ش ضريح سعد بمصر

تليفون ٢٩٣١٧

تقديم وإهداء

من اثنى عشر عاماً .. أصدرت كتابى الأول : (البرلمان فى الميزان)

وفكرت فيمن أهدى إليه تلك الباكورة من نتاجى فساءلت نفسى يومئذ :

— « من الرجل الذى أذكر مصر وأتطلع إليه .. فلا يختلف الساسة عليه .. ولا يختلف المواطنون ؟ » .

وأجبت عن التساؤل فقلت :

— « أنا لا أعرف بين الأحياء رجلا ينعقد عليه مثل هذا الإجماع .. ولكنى أعرف معنىً .. أكثر فى الجلال من الرجال .. معنىً ينعقد عليه إجماع الأحرار ، ويفتدونه بكل مرتخص وغال » .

أثبت هذه الإجابة الجريئة وكنت أتحدث عن بلادى .. وفيها ساسة وزعماء .. وكنت منتسباً إلى حزب .. وكان الحزب حاكماً .. وكنت أعمل فى جريدته ناقداً .. فلم أبال أن أقول لهم .. إنى لم أجد من بينهم ذلك الرجل الذى رسمته لأهدافى وإهدائى .. وإنما وجدت المعنى الأكثر فى الجلال من الرجال .

وعنيت : « حرية الرأى » .

وإلى هذه الحرية .. أهديت ذلك الكتاب .

* * *

والآن وكتابى الجديد « **مملكة فى الميزان** » يتخطى حدود مصر إلى صميم العروبة .. أليس من حق أن أعيد بعد السنين سؤالى القديم في زيه الجديد :

— **من الرجل الذى أذكر العروبة وأتطلع إليه .. فلا يختلف أحرار الساسة من بنيها على أهدافه وصفاته .. ولا يختلف بنو العروبة جميعاً على الرجاء المعقود على ذاته وإمكانياته ؟**

وجوابى أيها الرفاق أنى أرنو من سنين وسنين .. إلى أمنية كانت تبدو للكثيرين بعيدة المنال .. وكنت أراها بعين البصيرة مقبلة في الطريق .. تحجبها عن العيون طبقة من السحاب غير الطبيعى .. صنعتها يد المستعمر .. ولم تصنعها يد الله

وعنيت بالأمنية « **الوحدة العربية** » .. عنيتها مفهومة ومرسومة فى « **ولايات عربية متحدة** »

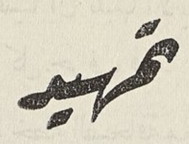
ولكن الفارق أنى فى كتابى الأول .. وجدت فى « **حرية الرأى** » المعنى الضارب فى الجلال ولم أجد الرجال .. أما فى كتابي هذا . فقد وضعت يدى على « **الأمنية والرجل** » .. وضعت يدى على الأمنية « **بإيمانى** » .. فتخذت منها مثلا أعلى لن أحيد عن الدعوة إليه حتى يتحقق .. ووضعت يدى عليها « **بكتابى** » كحلقة أولى فى سلسلة جهودى نذرتها لله ولهذا المثل .. ووضعت يدى على الرجل الذى هيأته الأقدار للنهوض بالعبء فتهيأ .. وجدته نتيجة لدراسات صادقة قمت بها فى حدود ما أسعفنى الجهد والوقت والظرف المتاح . وستلقاها

مبسوطة فى هذا الكتاب .. ووجدته وقد بدأ يعمل فعلا لهذه الوحدة ..
ولم تسلم مصر الحديثة بأن بين الحاكمين فى أرجاء الشرق العربى من
يقوى على النهوض بالتبعة غيره . . جلالا ومهابة . . وإمكانا وإيمانا . .
ووضعا وشرعا . . فبايعته على أن تكون له الساعد الأيمن .

وجدت الرجل الذى لا يختلف أحرار الناس على أهدافه وصفاته . .
ولا يختلف بنو العروبة جميعاً على ذاته و إمكانياته .

فدعونى إذن أهدى إليه فخوراً هذا الكتاب الثانى من نتاجى .

محمد السوادى



« مملكة .. فى الميزان » كتابى الثانى أسارع بوضعه وطبعه . قبل أن أبلغ الخمسين من عمرى .. وقبل أن يدوى هذا الرقم المخيف فى أذنى . فأنفض يدى من كل حق لى .. فى التشبث بأذيال الشباب الذى ولى

و « البرلمان .. فى الميزان » كتابى الأول .. كما لا بد أن تذكر

أمد طويل مر بين الكتابين — وليته ما مر — خضنا خلاله غمار الكفاح الصحفى المرير .. حافلا بالمآسى والمهازل والعظات والعبر .. وطوينا فى برديه — وليتنا ما طوينا — برد الشباب الثائر الحر .

* * *

قد تذكر أنى كنت يوما ناقداً للسعوديين .

وقد يهمك وأنت بباب الكتاب أن تسأل عن موقفى الحالى من نقدى القديم .. وعما إن كنت قد عدلت عنه أو ما أزال عليه المقيم ؟

والجواب تتولاه أنت عنى .. مقرونا بالأسباب .. بعد أن تفرغ من مطالعة الكتاب .

وكل الذى فى وسعى أن أقوله لك الساعة .. أنى نقدت المملكة السعودية .. أو نقدت بعض الحاكمين من بضع سنين .. عند ما كانت الأنباء والبيانات تترامى إلى أذنى من أفواه الزائرين الذين يجيئون إلى « دار السوادى » ليقولوا لنا .. ما طاب لهم !

وكنا يومئذ « صحفيين ؟ ! » تتلقى البيانات عطاشا .. ونتلقف الأنباء جياعا .. ونثب بها إلى الصياغة سراعا .. ونركض بها إلى جامع الحروف فى أضيق الظروف .. لتطلع بها المطبعة على القارىء فصولا ضافية .. تجتذب

عينيه وتسيطر عليه .. ولا علينا أن تثبتها الأيام أو تنفيها .. ولا علينا إن سكت المهتمون بها أو نقضوا كل حرف فيها

تلك كانت — ولم تزل — خطة الصحافة مع الأسف .. الصحافة فى مصر على الأقل .. يسوغها فى موازين الصحفيين ما يسمونه « سبقا صحفيا »

وصدقنى — وقد يكون هذا نقصا فى كصحفى — أنى لا أحترم هذا اللون من السبق .. بعد أن ثبت لى أنه يتقاضى ثمنه فى الأغلب الأعم من جوهر الخلق

* * *

وفى مثل هذه الأيام من عام .. طاف بعاطفتى نداء علوى يدعونى دعاء خفيا إلى حج البيت الحرام .. واقترنت بذلك النداء الخفى .. أمنية لى من الأمانى .. أن أرى المملكة السعودية « على الطبيعة » بعينى .. وأن أدرس الأوضاع كما هى كائنة .. وأن أدرس النظم كما هى قائمة ، وأن أعرف أهدافهم كما رسموها بأنفسهم لأنفسهم ، وأن أعرف معها اتجاهاتهم إليها ، ومدى تأثر العروبة بها ، أو مدى تأثير العروبة فيها .

* * *

ورأيت .. ودرست .. وعرفت .. فى حدود ما اتسع لى من الوقت ..

وهالنى بعض ما رأيته أو درسته أو عرفته .. وليس بذى بال ، أن أعجل بالإساءة والمسرة وإن كان التعجيل بأيهما لونا من ألوان البلاغة .. وليس بذى بال أن أقول لك الآن إن كان قد هالنى قبحا أو هالنى حسنا ، إنما ذو البال أنى وقفت على حقائق اهتز لها منى الكيان فرأيت أن أبصر بنى قومى بها وأن أضع أعينهم عليها .. وليروا مثلى ومعى .. أن الأمر فى هذه المملكة لم يعد أمر فصول قصار أو طوال ، يجرى بها قلم سيال أو غير سيال .. أو لم يعد أمر قلائد من النثر وقصائد من الشعر ينثرها التافهون على رؤوس الأمراء والوزراء .. كما لم يعد أمر الرجعة إلى باب الهجاء فى الأدب القديم ..

يستعير منه الغاضبون ، أقذع فنون السباب ، ينصبون بها انصبابا على رؤوس هؤلاء الأمراء والوزراء .

كلا يا أخى .

الأمر أكبر وأخطر .. من كل شعر ونثر .. ومن كل حمد وذم .. الأمر — كما رأيته بعينى — أمر اتجاهات جديدة عميقة الأثر فى مستقبل العروبة والشرق والإسلام .. اتجاهات مرسومة فى دقة وإدراك وانسجام ..

* * *

لم تعد الرحلة إذن رحلة حج ومناسك فقط .. إنما غدت رحلة تبصير وواجب .. واجب فى عنق أؤديه لكل مصرى وشرقى .. ولكل مسلم وعربى .. ورحلة ناقوس وقع فى يدى ، فجئت أرسل دقاته مجلجلة فى آذان قومى ، أرج بها أعصابهم ، وأفتح عيونهم .. على ما يجرى فيما نحسبه صحارى من تفكير وتدبير ، ومن انقلاب بعيد المدى يرتدى فى هدوء مسوح التطوير ..

وأرجو أن أكون قد وفقت فى اختيارى هذه الآونة بالذات .. لنشر هذا الكتاب حيث يطوف حجاج البيت بالبيت ، وحيث تتخذ العدة ليجىء الحج فى هذا العام مؤتمراً إسلامياً عالمياً غير مسبوق ، وحيث يرجى أن يكون لمثل هذا الكتاب صداه أو جدواه

* * *

سأحدثك إذن حديثاً طويلا ذا شجون

وسأنهض إذن بمهمة ذات شأن أزعم أن البشير فيها يلتقى بالنذير

فبأى مناهج البحث آخذ .. وأى أسلوب للنهج أختار ؟

أفآخذ بالأسلوب السياسى الرصين فلا يقرأ كتابى غير السياسيين والأمر يخص مئات الملايين من العرب ومن المسلمين ومن الشرقيين ؟

أم آخذ بالنهج الحديث فى البحث العلمى فأضيف كتاباً إلى كتب الباحثين تعنى به طائفة من خاصة المفكرين إذا قدر لبحثى التوفيق ؟

أم ترانى أخيراً أنسج على منوال الكاتبين الذين يتجرون بالكتابة ويتخذون من اليراعة صناعة فأستر النقائص وأحجب العيوب .. ولا أظهر العيون إلا على الحسن وإلا على الجميل ؟

لا هذا .. ولا هذا .. ولا هذا .

وقضى الأمر الذى فيه أحار .. ووقع منى الاختيار على أسلوبى القديم الحار .. أسلوبى القصصى المشبوب الذى يتدفق بى إلى الضمائر والقلوب .. ولا أتدفق به إلى تغليب رأى على رأى أو نصر اتجاه على اتجاه .

سأتحرر من كل قيد يا أخاه .. وستحب معى وتكره لله وفى الله .. سأغرد فوق أفنان القصة وما عليك إلا أن تسمع .. وأنت حر فى أن تطرب أو لا تطرب .. سأجرى بالقلم فوق هذا الورق وما عليك إلا أن تقرأ .. وأنت حر فى أن تعجب أو لا تعجب .

* * *

إنها رحلة يا أخى .. فى ظلال سندباد عصرى جديد .. إلى حيث أحج البيت وأعتمر .. وإلى حيث أقص عليك ما رأيت ولا أكثر .. وأنت مدعو لأن تكون الرفيق فى هذه الطريق ولن أثقل .

رحلة تبدأ من اللحظة التى دارت خلالها محركات الطائرة .. فحلقت بنا فى سماء القاهرة .. واتجهت بنا إلى جدة الهادئة لننتقل منها إلى مكة الطاهرة .. ولتنتهى « بى وبك » إلى « اللحظة الحاضرة » .

أى والله « بى وبك » .. واسمعى يا جارة .

وإلى « اللحظة الحاضرة » ، وأعنى العبارة .

سأصحبك معى بملابس الإحرام متجرداً لله .. أو بملابسك الكاملة

متأنقاً للحياة .. وسنلتقى هناك بسعود بن عبد العزيز « ولياً للعهد » .. وستعود معى بعد أربعة وثلاثين يوماً إلى عاصمة مصر .. وسنستقبل فيها بعد سبعة أشهر من العودة سعود بن عبد العزيز « الملك » .. وسنودعه بعد عشرة أيام إلى الكويت والبحرين وباكستان والأردن .. وسنلتقى به فى الرياض الزاهرة يقول لوزير الإرشاد المصرى أشياء وأشياء . ويسمع من الوزير المصرى أشياء وأشياء .

وستخرج من هذا كله بالسياسة الشرقية مفهومة . وبالأهداف العربية مجلوة . وبالمملكة السعودية موزونة .

وفى هذه الرحلة الطويلة التى نحلق بك خلالها فى طبقات الجو . ونمخر بك أحياناً عباب البحر . ونقطع بك أميالا وأميالا بين البدو والحضر . لن نجشمك مشقة . ولن نكلفك دراسة . ولن تمارس فيها جغرافيا أو طبوغرافيا . ولن تعانى منها جفاف الأرقام أو خفايا الوثائق . بل تخب وتوضع فى قصة نرجو أن تجىء حلوة . وأن يطغى جانب الدعابة منها على صرامة الجد . وأن يجتذبك الحوار الفنى فيها فيبلغ بك فى يسر أهداف هذا المجلد .

وحتى تحليلنا لأشخاص المسئولين أمام التاريخ عن سياسة هذه المملكة وعن اتجاهات العروبة وأهدافها . سيجرى تحت عينيك مجرى القصص . فتحب أحدهم أو تكرهه من غير عناء فى الحب أو فى الكره .

بل يسعدنى أن ألفتك من الساعة إلى أن الكتاب من بابين .. وأنك فى الباب الأول منه ستركض معى ركضاً روائياً حثيث الخطى بين عرفات وأم القرى وجدة ويثرب .. حافلا بالوقائع التى جرت علينا وبالمشاهد التى وقعت عليها أعيننا والصور العابرة لمن اتصلنا بهم واتصلوا بنا ، ركضاً روائياً .. يوائم الرحلة وبلغة الروائى إذا قدر له أن يغدو رحالة .. أما إذا دعوتك إلى مطار المدينة لنستقل منه الطائرة عائدين إلى أرضنا المصرية فى الطور .. فساعتئذ

ندخل معنا بابنا الثانى من هذا الكتاب .. فندخل فى دراسة وسياسة وأهداف ، وندخل فى صميم العروبة التى حدثتك عنها فى (الإهداء) .. ومع هذا كله أعدك ألا يتخلى عنى فى الباب الثانى أسلوبى القصصى .. ولن تعانى ما يعانيه القراء من مثل هذه البحوث .

وحتى سر اختيارنا الخريطة رسما للغلاف . تستطيع أن تميط اللثام عنه فى غير مشقة بعد أن تفرغ من القراءة وبعد أن توجه إلى نفسك الأسئلة التالية :

* أمن الحق أن هذا المؤلف . وفق فيما استهدف ؟

* وهل من الحق أنه بصرنى بأمر مصر والشرق .. وأضرم فى ضميرى لواعج الاهتمام بالعروبة والإسلام ؟

* وهل من الحق أنه استطاع أن يضع هذه المملكة الطويلة العريضة فى ميزانه القديم المتواضع ؟

فإن يجىء الجواب : « نعم » فهذا كل أجرى — وصدقنى — وأنا بهذا الأجر قانع .

وإن يجىء الجواب : « لا » فما ضرنى أنى حاولت النهوض بواجبى وقصرت عنه كفايتى ؟

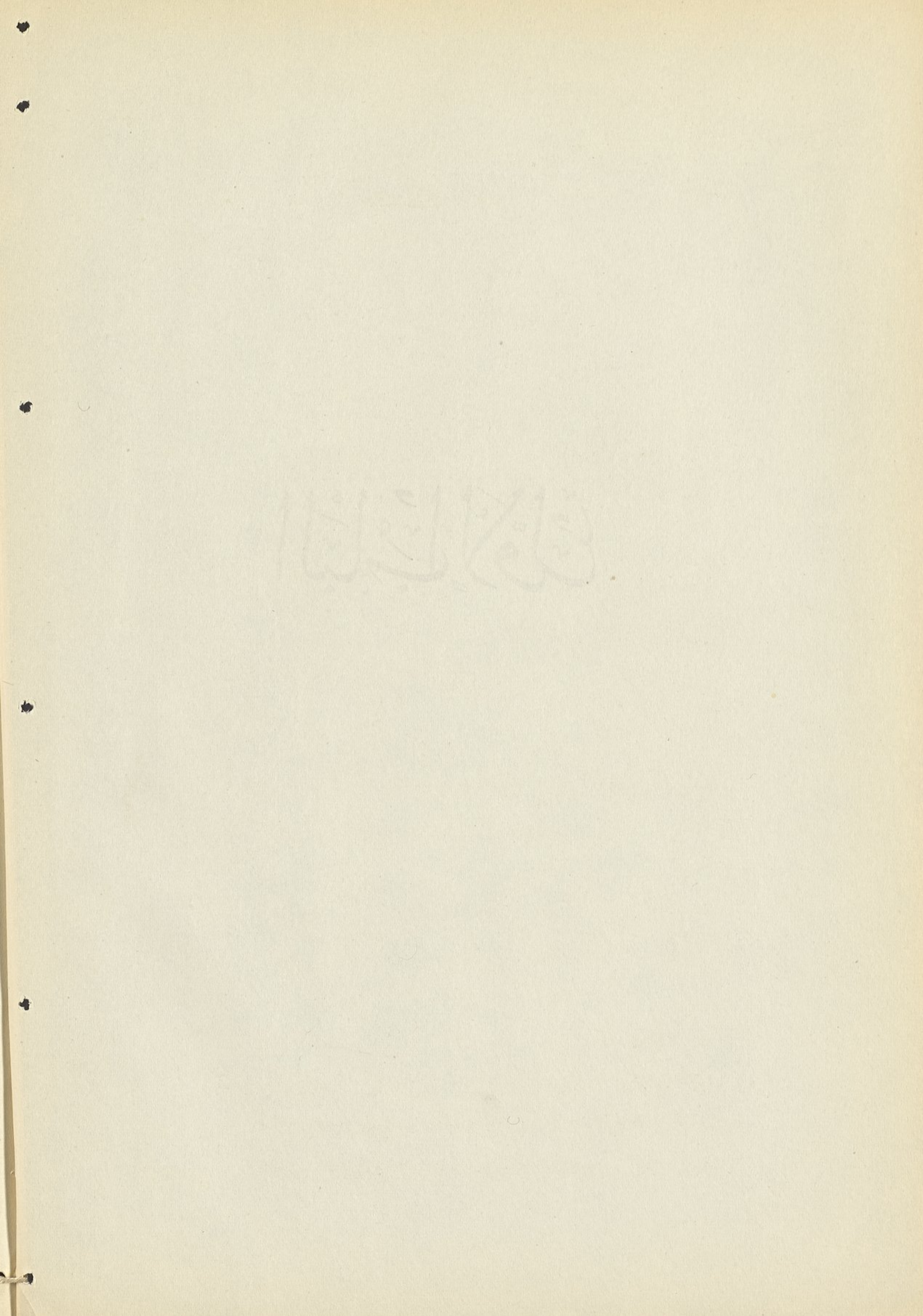
ما ضرنى . أنى أردت التوفيق وتخلى التوفيق عنى ؟

إن الذى يضر حقيقة ويضير . أن أرانى قادراً على المحاولة ولا أحاول .

وهأنذا حاولتك يا واجبى . وإياك أستعين يا ربى . وهذا حسبى .

محمد السوادى

الباب الأول



الفصل الأول

إلى جدة ... بالطائرة

قلت لصاحبي الشيخ :

ــ موعد قيام الطائرة .. من مطار القاهرة .. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .. لتصل بنا جدة فى الخامسة من صباح يوم الوقفة . لنكون آخر حجاج فى العالم يبلغون مكة بعد أن بارحها الحجاج إلى عرفات فهل أنت مستعد ؟

ورد صاحبي الشيخ :

ــ وأى استعداد تعنى ؟ أننا عراة تسترنا قطعتان من قماش .. والحقائب معدة .. ولا حاجة بنا إلى شىء على الإطلاق .

ــ عراة ؟

ــ طبعاً وشرعاً .. لا بد أن نحرم من القاهرة .. أنه لزوم ما يلزم .

ــ وإذا لم ألتزم هذا الذى يلزم .. وظللت بملابسى ولم أحرم ؟ ما حكم الشرع فينا ؟

ــ الفدو .. لا بد أن تقدم فداء إثر وصولك إلى مكه .

ــ نقدمه يا مولاى

ــ وليه بس يا سيدى ؟

ــ لأننا نسافر يا مولانا الشيخ إلى بيت الله المحرم سفراً غير مسبوق .. نسافر على متن طائرة أجنبية تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية العالمية .. رضيت بعد أن أقفلت الطريق بين جدة والخارج من يومين أن « تسقطنا »

فى جدة .. وهى فى طريقها إلى عدن .. فيجب أن تقدر أن ركاب هذه الطائرة لا بد أن يكونوا من البريطانيين أو من الأجانب فى القليل ، ولابد أن يكون من بينهم سيدات .. وظهورنا بينهم حفاة عراة قد لا يقع منهم موقع الارتياح .. وقد لا يصور المصريين فى أعينهم بالصور المرتجاة ..

وعند ذكر السيدات اقتنع صاحبى الشيخ لأنه ابتسم .. ولم يثر .

ومضت بنا الطائرة .. وتوالت الطرف . فصاحبى الشيخ لا يعرف غير اللغة العربية . والمضيفة الانجليزية لا تعرف غير الإنجليزية ، وعدد ركاب الطائرة الكبيرة ذات المحركات الأربع لم يجاوز الثمانية .. وقد انفرد صاحبى الشيخ بأريكة مخصصة أصلا لاثنين .. وكذلك فعل كل راكب التماساً للراحة .. وصاحبى الشيخ وسيم الطلعة فارع الطول بادى الشباب برغم الحلقة السابعة .. أنيق الثياب أناقة واضحة .. وقد رأى كل راكب يخلع سترته فخلع الشيخ جبته واستسلم للمقاعد الجلدية الوثيرة .

وصاحبى الشيخ حريص فى كل حياته وحركاته على أن يؤكد دائماً ذاته ولكن على طريقته .. وقد حاولت عبثاً إقناعه بأن يستنجد بى إذا ما وجهت إليه المضيفة سؤالا .. وظل يصر على أن يؤكد ذاته بلغة الإشارة بينه وبينها .. وقد جاءته مرة بقدح من الشاى .. ووضعت فيه ملعقة سكر .. ثم سألته بالإنجليزية (كمان ؟) فأشار برأسه أن (نعم) وعادت توجه نفس السؤال وعاد يوجه نفس الجواب فلما زاد السكر على المعقول أدركت الفتاة أن الشيخ غير مدرك .. فقالت له بالإنجليزية (كفاية ؟) فأشار برأسه أيضاً أن (نعم) ولم تستطع الشقية أن تخفى ضحكة شاركها فيها أجنبى شق كان يرقب العراك اللغوى من بعيد .

* * *

ومضت الطائرة تشق أجواز الفضاء .. فى هدوء مهيب يلهب فى الذهن الخيال . كانت الرحلة ممتعة حقاً .. ولم أكن أصدق أبداً أن السفر بالطائرات

يمكن أن يبلغ هذا المستوى من المتعة .. كانت كأنما تمشى على بساط من الريح ..

« بساط من الريح » .. يالها من عبارة ينتفض لها التاريخ .

« بساط من الريح » .. إذن قصة سليمان الحكيم التى سخر منها العلم الحديث لم تكن تستأهل منه هذه السخرية .

أننا لا نعلم علم اليقين .. الزمن الذى عاش فيه سليمان .. ولا الذروة التى بلغتها الحضارة فى عهده . فإذا كان العلم الحديث لا يريد أن يعترف بالأديان ولا بالديان .. فلماذا لم يقدر بنوه — ولو على سبيل الأخذ بالأحوط — أن سليمان كان أغزر علماً .. وكان يملك من ألوان الطائرات ما لم يبلغه علمهم ؟ ثم لماذا يستكثرون على العروبة وبنيها مالا يستكثر اليوم على صناع طائراتهم وأصحاب المخترعات فى زمانهم .. والطائرة مدينة بوجودها لعربى .. والتاريخ الأمين ، الذى لا يكذب ولا يمين ، سجل حق الاكتشاف لعباس بن فرناس وتلقاه عنه المتلقون . فإذا كان هذا المواطن الشرقى قد أعطى أوروبا وأمريكا سر الطائرة .. فلماذا يستكثرون على سليمان وهو الأقوى « لأنه على الأقل ملك » أن يحلق فى الجو فوق بساط الريح الذى نفترشه الساعة أنا وصاحبى الشيخ .

مرت هذه الخواطر برأسى .. وصاحبى الشيخ يبادل المضيفة الإنجليزية ابتسامة حلوة بان لى من خلالها أن صاحبى — وهو رجل ذو ذوق وحس — يؤمن بأن الجمال — كالعلم والفن — لا وطن له ولا جنس .

وعاد بى الخاطر إلى « الشرق المفترى عليه » فى عصرنا الحديث .. لا لشىء إلا لأن الحضارة التى نبعت منه وولدت فيه .. وازدهرت على أيدى بنيه .. أفلت زمامها على حين غفلة منه إلى الغرب المتأخر فتقدم .. ونسى هذا الغرب تاريخه الطويل المظلم .. وإن كان فريق من خاصة العلماء

الأمناء فيه يرون أن الإجماع ما يزال قائماً على أن تاريخ العلم بدأ على التحقيق فى (الشرق الأوسط) .

وعدت أبتسم .

ابتسمت لأنى ذكرت أن من بين هؤلاء العلماء أستاذاً فى جامعة هارفارد هو الدكتور (سارتون) لم يخجله أبداً أن يقول لنا بصريح العبارة وهو يتحدث عن العرب والشرق بل عن مصر وما بين النهرين :

« ونحن على كل حال مدينون للأمتين كلتيهما بنشوء الفن والأدب والرياضيات والكيمياء وصناعات أخرى . . وإننا نحن الغربيين مدينون لهم بكتابنا المقدس نفسه وبديننا وقواعد أخلاقنا ديناً كبيراً » .

وإذن فسر الحضارة الحديثة فى الغرب إنما خرج قبلا من هذا الشرق الذى أسبح الآن فى جوه متجها نحو أقدس البقاع فيه . .

إن قصة الحضارة الغربية التى قامت قبلا على أكتافنا وازدهرت عندهم بفضل تراثنا لا يزال ينقصها الفصل الأخير منها . . فإذا استطعنا أن نرتبه فى الذهن . . ونكتبه فوق الورق ثم نخرجه على مسرح العرب . . استطعنا أن نسترد ذلك التراث المغتصب .

والفصل الأول من قصة الحضارة الغربية قام على جماعة النقلة . . نقلوا عنا ثم تفوقوا بفضل هذا النقل علينا . . فتسلموا زمام القيادة وقادوا . . ثم تنكروا لنا ففرضوا علينا ما كان لنا من السيادة . . كل هذا بفضل النقل عنا . . فلماذا لا نعود إلى النقل عنهم . . ونوغل فى هذا النقل إيغالا . . حتى تعود الحضارة إلى نبعها الأصيل ؟

إشراق :

وفجأة أشرقت فكره جديدة تستأهل تنبيه قومى عليها . .

هذا النقل عنهم يجب أن يتولاه منا القادرون عليه . . النقل عنهم علماً . .

والنقل عنهم عملا . . ولا جدوى من تعلم هندسة السيارات من غير أن تقيم لبنائها مصانع .

وأنا الآن فى طريق إلى مملكة السعوديين . .

وهذه المملكة كما نعرفها — بالأذن أو فوق الورق — صحراء مترامية الأطراف إذا أغضيت عن بعض المدائن والموانىء والقرى . . وقيل أن دخلها السنوى من البترول يعد بمئات الملايين من جنيهات المصريين . . وموقعها من الناحيتين الجغرافية والاستراتيجية يمكن لها من الهدوء ويبعدها عن المعترك الدولى إلى حد كبير . . أو على الأقل إلى حين . . وهى القادرة إذن على أن تتولى بعث المجد العربى بنقل المعرفة الغربية وتصنيع الشرق العربى وبفضل امكانياتها المالية . . فلماذا لا تفعل ؟

ورأيتنى أدعك عينى وأفرك يدى . . وأتنفس الصعداء فى ارتياح وكأنما وقعت يداى على أول الحبل أو وقعت قدماى على أول الطريق .

وكان صاحبى الشيخ لحظتئذ يحدج الغانية الانجليزية بنظرة (بريئة) وهى تمرق فى الممشى مروق السهم المتجه رأساً إلى صميم القلب وترسل عليه ابتسامة فتانة صاعقة ولا تعيرنى أى التفات .

قسمتى وأنا بها قانع .

سأترك لصاحبى الشيخ هذه النفحة من الهوى العذرى تهب عليه نسماتها.. راضياً كل الرضى من ناحيتى بلفحة من الهوان العربى تتلقاها الساعة خواطرى وأنا أفاضل بين ما انتهت إليه العروبة من ضياع والتياع . . وما انتهى إليه لصوص الغرب الذين سرقوا المعرفة منا من رفعة والتماع . . فلأواصل تفكيرى الهادىء وأنا أغوص فى المقعد الجلدى الوثير . . منطلقاً كالسهم فى فضاء الله وعلى بساط الريح .

ولنعد إلى هذه المملكة التى نتجه الساعة إلى مينائها الحديث .

أصبحت إذن تملك موانىء حديثة . . ميناء ضخما فى جده على البحر الأحمر . . وميناء ضخما فى الدمام على الخليج الفارسى . . وقرأنا الكثير عما صنع لها الأمريكان فى الظهران وغير الأمريكان فى غير الظهران . . وقرأنا كثيراً عن استغلالها علمهم وإخضاعها وعورة الجبال وإذلالها للرمال . . وتسييرها لخط حديدى بين الرياض والدمام .

وإذن فما طاف بذهنى عن مهمة « النقل الحضارى » قد تنبه عليه عبد العزيز منشىء هذه المملكة . . فبأى حظ ياترى أخذ النقلة بهذا الرأى ، وأى مدى يا ترى قطعوا من الشوط ، وهم يطبقون العلم على العمل ؟

سأرى إن شاء الله كل هذا .

وبهذه العبارة اتجهت إبرة تفكيرى من الدين إلى الدنيا ، واعتزمت أن أحج البيت العتيق ، وأن أدرس حقيقة الحال عند أخى الشقيق .

عود عاطفى :

ودعكت عينى ثانية وفركت كفى مرة أخرى ، وألقيت على صاحبى الشيخ نظرة عجلى . . فهالنى منه هذه المرة مسبحة فى يده . . يلتقط حباتها على مهل ، وكلمات تتقاتل فوق شفتيه ولا تبين .. فى غمغمة حلوة عليها روعة الدين .

هزتنى غمغمات صاحبى الشيخ هزا عميق الأثر . . فنسيت الحضارة المصنوعة التى كنت أفكر فى استردادها للشرق والعروبة ، ورأيتنى أحدق فى حضارة أخرى لا تعرف لها صانعاً غير الذى أحسن كل شىء صنعاً . . ورأيتنى أغمغم أنا الآخر « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . . ثم رأيتنى أتخيل البيت ولما أره . . وأتخيل الكعبة فى نطاق ما ارتسمت لها فى الذهن من صورة . . ورأيتنى أتجه إليها بجماع قلبى وعواطفى . . وأطوف بها . . ثم أسعى بين الصفا والمروة . . ثم أهرول إلى عرفات لألقى سيدى

ومولاى .. متجرداً إلا من القطعة التى سأخرج بها من دنياى .. ورأيتنى أفيض من عرفات .. وأذكر الله عند المشعر الحرام .. ثم أفيض من حيث يفيض الناس .. ثم أستغفر الله .. فيغفر لى ويتقبل منى ويتوب علىّ .

* * *

عرفات ؟ ! !

وجمد تفكيرى عند هذه الكلمة ...

أهذه كلمة هينة أعبرها بهذه السهولة ؟

ألم أتعب نفسى عشر سنوات كاملة وأنا أحدث القراء فى مصر عن شيوخ مصر ونواب مصر وبرلمان مصر ... رجاء أن أقوم الحياة النيابية فى مصر ؟

وجبل عرفات ؟ عصر الغد .. ؟ سيغدو هو الآخر برلمانا .. هو الآخر ؟ ما هذا التعبير المتهافت ؟ إنه أكبر برلمان عرفه بنو الإنسان .. مذ قام للبرلمانات كيان .. إنه برلمان العقيدة توزعت على أرجاء المعمورة فجمع الإسلام بين بنيها فى هذا المكان .. وغداً سيجمعنى فيه بنصف مليون من البشر .. أسمى مجلس نيابى أقامه الله للشورى والشعائر والمنافع فى سفح الجبل الأشم .. نعم غداً .. وعند هذا الجبل .. يفتتح رسمياً هذا البرلمان الأسمى .: يفتتح باسم الله لا باسم الملك .. ونقف فى ساحة البرلمان الربانى عراة حفاة .. مجردين إلا من التقوى .. هاتفين من الأعماق لصاحب الجلالة الكبرى . « لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك » .

هبوط .. ؟ ؟ :

وفجأة أدير زر الكهرباء الحمراء إيذاناً بالهبوط . وقال بعض الركاب (جده) ورد آخرون (ليست جده) .

وهبطنا .. وإذا نحن قد تخطينا جده والمملكة السعودية .. واجتزنا حدود السودان الحبيب .. وهبطنا فى مطار بور سودان .

ما هذه القصة يا فتاة ؟

وعلمنا وقد بارحنا الطائرة إلى مقصف المطار .. أن الطائرة الكبيرة علمت عن طريق اللاسلكى .. أن ركاباً فى بور سودان يريدون السفر إلى جدة .. فآثرت أن تخل بالنظام المقرر .. وأن تقترض منا نحن بنى العروبة بعض فوضانا إلتماساً للربح .. فغيرت اتجاهها وقصدت إلى بورسودان لتجىء بأولئك الركاب .

وهناك استبدلت مضيفة إيطالية بالمضيفة الانجليزية ، وكانت الإيطالية الجديدة تملأ الكف حجما وتبارى الكهرباء نشاطاً ، وقد خيل إلى أنى رأيتها فى مصر قبلا ، وكانت تعرف العربية أو تستطيع التفاهم بها فنزلت على قلب صاحبى الشيخ بهذه الميزة - وبميزة الحسن والخفة — برداً وسلاماً .. وظهرت صور البرد والسلام واضحة عند ما أكثر من مطالبه وأكثرت من الإغداق عليه .

والسودان أيضاً :

وفى مطار بور سودان نسيت ما كنت أفكر فيه من إمكانيات المملكة السعودية وما تستطيع أن تؤديه .. وانصرف همى إلى قطعة من قلبى .. يا طالما ركزت فيها بعض حبى .. بوحى من الطبيعة والنهر الخالد .. وبوحى من الجيرة والدم الدافق .. وبوحى من العقيدة والتاريخ الناطق .. وبوحى من العروبة — وإنها للدرة اللامعة فى تاج تفكيرى — وأعنى بهذه القطعة من قلبى : (السودان) .

وهأنذا — وبمحض الصدفة والغلطة وبفضل البيت والرحلة — أخطو سعيداً فوق أرضه فبارك هذى الخطى يارب .. واكتب لها أن تكون إيذاناً بأرض العروبة موحدة .. وبدول الشرق ولايات عربية متحدة .

نحن الآن فى مطار بور سودان يا أخى ...

فإلى أى مستوى نهض الاحتلال بهذى المطارات يا ترى .. وقد سيطر عليها سنين وسنين .. واستغلها حرباً وسلماً برغم أصحابها المساكين ؟

وهالني ما رأيت في دورة مياه المطار وقذارة المقصف الذي لا أرتضيه مسرحاً للأنعام واستهتار حراسه لا فارق فيهم بين رئيس ومرءوس .. وتثاؤب القائمين بأمره كأنهم أوفياء دائمون لنعاس مقيم ؟

أهذا كل ما صنعه الاحتلال لتحضير السودان في خمسين من الأعوام ؟

وهل هـذا هو المظهر الذي يقدمه الاحتلال في مطار بورسودان للأوروبيين والأمريكيين الذين يجتازونه أو يهبطون فيه رائحين وغادين ؟

وقيل لنا أن الاحتلال يكره بور سودان .. لأن بور سودان تعد نفسها مدينة مصرية .. وتتعامل دائماً مع المملكة السعودية .. وبريطانيا تكره كل ما هو مصري وكل ما هو سعودي .

وابتسمت مرة أخرى ..

ابتسمت لأن هذه الإجابة من أحد السودانيين .. أعادتني من جديد إلى الخواطر التي كنت غارقاً فيها وأنا سابح في الجو بشأن المملكة السعودية .

عدت إذن إلى هـذه المملكة بالخاطر .. وأنا رابض فوق مطار بورسودان .. فهل هي محاسن الصدف تلاحقني على هذا النحو لتصرف تفكيري دائماً الى هذه المملكة .. أم أن الأقدار تهيئني لدراستها بحافز خفي ولحكمة عالية ؟

لست أدري ...

ولندع على أي حال أمر السودان الآن ؟ ولنتهيأ من جديد لمواصلة الطيران ودعينا إلى الطائرة وحلقت بنا عائدة إلى جدة .

ولكن ...

نعم ... « ولكن » ..

وكنت أظن أن كلمة « لكن » هذه مرض مصري يلازم كتاب مصر .. ولا يبرح أرضها أبداً .. وهأنذا أكتشف أنها كلمة عالمية .. تلازم المفكر

فى جميع أرجاء العالم .. أو كلمة عربية على الأقل تلازم العروبة فى مراحل تفكيرها .. ويكثر وجودها فى طريقنا .. لأن طريقنا دائماً ملىء بالأشواك.. وفى حاجة دائمة إلى الاستدراك .. وهذه الكلمة أداة استدراك كما لا بد أن تعلم.

نعم .. « ولكن » ..

ولكن هذا السودان الذى يشاركنا نعمة النهر .. وحرارة العقيدة .. ورابطة اللغة .. وحقوق الجيرة .. هو بعينه الذى يشاطر السعوديين نعمة البحر وحرارة العقيدة ورابطة اللغة .. وتبادل التجارة .. وهو بعينه الذى تربطه بهم وبنا أواصر العروبة التى لا انفصام لها ولا اعتزاز إلا بالعمل على بعث أمجادها .. مسلمة موحدة نافضة عنها غبار التأخر الذى أودى بها .

ورأيتنى — ونحن فى الطريق إلى جدة — أتجه بخواطرى اتجاهاً جديداً أربط فيه بين ثلاثة أراهم لأول مرة من خلص الأشقاء وأستقل عليهم تلك التسمية التى كنا إلى عهد قريب نعتز بها وهى « أبناء العمومة »

ومرت بخاطرى وجوه الشبه بين السودان والمملكة السعودية من حيث القلة فى السكان والعمران .. والسعة فى الصحارى القابلة لإقامة المصانع .. والأراضى القابلة لإنشاء المزارع .. والشمم الذى يلازم نفس كل عربى فى كل البلدين. ملازمة صارخة حية تبدو أدنى ما تكون إلى العقيدة النفسية .

ومرت بخاطرى وجوه الشبه بين مصر والمملكة السعودية من حيث الإمكانيات فى المال والنفور من الانجليز والاستعانة بالأمريكان والألمان .. والميل إلى إحياء لغة القرآن .. والرغبة الملحة من الجانبين فى الإكثار من القران بين الفتيات والفتيان .. مزجاً للدم .. وتوثيقاً للآصرة .. وتقريباً للنسب .. وتقوية للعروبة ..

وخرجت من العرض بأن ضممت مصر إلى السودان كما ينضم بالطبيعة الشقيقان .. ثم رأيت فى الثلاثة قوى تتكامل فلا يستخف بها عاقل .. ثم

عاودتنى ابتسامتى التى يؤذن ارتسامها على شفتى بإشراق جديد فكرى . .
فرحت أسائل نفسى : « كل هذا أثارته عندى طائرة بارحت مصر قاصدة مملكة السعوديين فهبطت مصادفة فى أرض السودانيين ؟ إلى أى مدى إذن يمكن أن ينتهى التفكير . . إذا بحثت وجوه الشبه الأخرى . . وأواصر العواطف الدفاقة الحرى . . بيننا وبين الأمم العربية . . عندما يخلى الاستعمار وأنصاره الحاكمون . . بيننا وبين شعوب هذه الدول . . وينطلق الفكر إلى تخيل القوى العربية متكافلة متكاملة . . متضامنة متعاونة . . أو عندما نتخيل هذه الدول ولايات عربية متحدة . . ونذكر مع مصر والسودان والمملكة العربية السعودية . . أشقاء فى العراق والأردن ولبنان وسوريا واليمن وليبيا . . وأدع الآن جانباً تونس ومراكش والجزائر . . وأدع الآن جانباً كل أفريقيا . . وأدع الآن جانباً بحث الأواصر الإسلامية بيننا وبين باكستان وإيران وأندونيسيا والأفغان ؟ »

مر هذا الخاطر الجديد المجنح بذهنى . . والقنينة المعلقة فوق رأسى والموصلة بين داخل الطائرة وخارجها ترسل على خصلات شعرى نسيما عليلا . . تكيفه تكييفاً جميلا . . فأمر بيدى على هذه الخصلات لأزيحها عن جبينى . . فتدوى الضحكة الرقيقة الناعمة فى أذنى . . فأتنبه على منظر لا أنساه أبدا . . منظر المضيفة العفريتة تميل على صاحبى الشيخ تلف الحزام حول وسطه . . (حزام النجاة) كما نسميه و (حزام الحياة) كما تعبر عنه لغة الإنجليز . . ويبدو أنها لاحظت عليه أنه يحاول ربطه ولا يحسن الربط . . بعد أن رأى الركاب يهمون بنفس المهمة . . فمالت الفتاة كما قلت لك على صاحبى الشيخ تلفح وجهه النشوان بأنفاسها العطرة . . وتحدق فى نظره الوسنان بعينها الحلوة . . وتداعب يداها جبينه وهو نشوان مستسلم . وشفتاه تغمغمان أغلب الظن « لبيك اللهم » . . لأنه حقيقة رجل صالح .

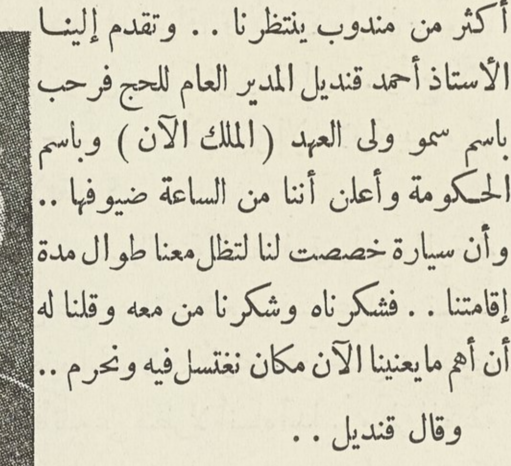
تنبهت على هذا المنظر الساحر . . وأدركت أننا دنونا من جده . . وكان الضوء الأحمر قد أضىء فأطفأت السيجارة . . ولم أبال الحزام . . وهبطت

الطائرة هبوطاً عمودياً أذكرنى بطائرات ستوكا المنقضة فى الحرب الماضية فكدت أثب ولكنى تمالكت نفسى .. ثم رأيت الطائرة تنساب انسياباً .. ثم رأيت الرمال أمامى وعجلات الطائرة تعدو فوق الرمال .. فأدركت أننا بلغنا جده سالمين .. والحمد لله رب العالمين .

فى جـــدة

انتظار .. وحفاوة :

وفى مطار جدة .. ارتفعت الأصوات تهتف باسمينا .. فأدركنا أن أكثر من مندوب ينتظرنا .. وتقدم إلينا الأستاذ أحمد قنديل المدير العام للحج فرحب باسم سمو ولى العهد (الملك الآن) وباسم الحكومة وأعلن أننا من الساعة ضيوفها .. وأن سيارة خصصت لنا لتظل معنا طوال مدة إقامتنا .. فشكرناه وشكرنا من معه وقلنا له أن أهم مايعنينا الآن مكان نغتسل فيه ونحرم ..





رحبوا بنا باسم ولى العهد

وقال قنديل ..

— مرحبا .. فى فندج (فندق) التيسير إن شاء الله .. وانطلقت بنا العربة إلى الفندق .

وعادت بى الذاكرة إلى التصرف الطيب الذى كانت العناية قد ألهمتنيه فكانت النتيجة هذا التكريم الذى نلاقيه .

نعم ذكرت .. قصة السفر الذى هبطت فكرته علينا فى الأسبوعين السابقين للحج .. وقصة الصعاب التى صادفتنا فى استخراج جوازات دولية أو تجارية لا علاقة لها بالحج .. وقصة تذليل الصعاب فى اليوم الذى أغلق

فيه الباب . . وصدر مرسوم ملكى سعودى بإقفال الطريق بين المملكة السعودية وخارجها فلا تستقبل طائرة ولا باخرة ، ولا تبرحها طائرة أو باخرة ، وذكرت اليأس الطارىء ساعتئذ . . والأمل المفاجىء الذى هبط على وأنا أتحدث إلى السيد جواد ذكرى الوزير المفوض فى السفارة السعودية أسأله إن كان هناك أمل فى طريق السفر . . فخطر له أن يقول وهو يهم بإلقاء سماعة التليفون :

— بالله تسمع . اسأل لى حياتك شركة B.O.A.C. لأنى تذكرت أن لها خطاً بين القاهرة وعدن فهى تمر بجدة وتستطيع إنزالكم فيها .



السيد جواد ذكرى

ذكرت ذلك الحادث . وذكرت أن السيد جواد لاحظ فى ردى انى لم أعد عابثاً ولا آملا . فاستحلفنى أن أتصل بهذه الشركة ، وأدع له هو مهمة الاتصال . وإزاء هذه الرقة التى لم تجاوز فى ميزانى لوناً من ألوان المجاملة والكياسة . وإبراء للاستحلاف والحلف أدرت قرص التليفون فإذا الخط موجود والأماكن موجودة والطائرة تقوم ليلة الوقفة .

وصاحبى الشيخ « زبون » قديم للحج . حج البيت واعتمر سبع مرات فيما أذكر . ثم حالت الحرب العالمية الأخيرة دون الثامنة . فكانت حجته معى هى الثامنة بالنسبة إليه والأولى بالنسبة إلى .

ونبهنى إلى حقيقة كبرى . قال إنك لا تعرف معنى كلمتى (جدة) و (مكة) صبح الوقفة أو ضحاها . ان جميع الوزراء والكبراء والأغلبية الساحقة من المسئولين والموظفين بل من المواطنين الحجازيين والنجديين يصعدون فى ذلك اليوم إلى عرفات . وتكاد جدة ومكة تخلوان إلا من القليلين

وقد لا نجد سيارة واحدة تقلنا من جدة إلى مكة . ومن مكة إلى عرفات . والتمع فى ذهنى خاطر .



سليمان الحمد

ذكرت أن رسائل كانت قد تبودلت بينى وبين ثلاثة من رجال المملكة . تعقيباً على بعض ما نشرته جريدتى . وأن وداً بريدياً كان قد وطدته هذه الرسائل بينى وبين السعوديين الثلاثة . وهم الإخوان سليمان الحمد (وكيل وزارة المالية يومئذ ووزير الدولة الحالى) وعبد الله بلخير (السكرتير الخاص لولى العهد يومئذ والسكرتير الخاص للملك الآن) وعبد السلام غالى (المصرى الأصل ، السعودى الجنسية والمشرف على الضيافة) فأبرقت إليهم إثر اتصالى بشركة الطيران البريطانى واهتدائى إلى أماكن خالية أخطرهم انى سأصل إلى مطار جدة صبيحة الوقفة .

فلما بلغنا جدة وارتفعت الأصوات تردد اسمى أدركت أن التصرف الذى ألهمتنيه العناية قد أجدى وأن أكثر من مندوب كان فى انتظارنا .

عبد الله بلخير

إحرام ومفاجأة :

وانطلقت بنا العربة إلى الفندق وقد تبدى كالمهجور لولا وجود مديره والمستخدمين فيه .

وهناك اغتسلنا وأحرمنا . وتأهبنا لأخذ طريقنا إلى مكة للطواف حولها والسعى بين الصفا والمروة ثم استئناف الرحلة إلى جبل عرفات للمساهمة مع الحجاج فى الوقفة والتلبية .

ولـكن مدير الحج فاجأنى بقوله أن عمه الوزير هنا .



عبد الله السليمان

وكنت أعرف أن كلمة (الوزير) لا تعنى غير الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية . فالخاصة يسمونه (الوزير) ورجل الشارع مدفوعاً بما لست أدريه يطيب له أن يسميه (الملك غير المتوج) .

وسألت مدير الحج :

— وماذا .. إن كان الوزير هنا ؟

وفهمت أنه أخطره بوصولنا فأعرب عن رغبته فى أن يرانا وهو فعـلا فى انتظارنا واتجهت السيارة بنا إلى بيت الوزير .

عند الوزير :

وكنت أحمل معى لبعض رجال الحكم الهدية التى لا أملك غيرها . نسخة لكل منهم من أعز وأقدم مؤلف لى هو كتاب (البرلمان فى الميزان) .

كنت أتوقع انى لا بد نازل عليهم ضيفاً ، فإذا تم ما توقعته كان لزاماً أن أقدم لهم بعض نفسى أو بعض حقيقتى .

كنت أعرف أن « بعض الصحف » المصرية لم تعن دائماً بإيفاد مندوبين عنها فى مواسم الحج يرفعون رأسها . وكانت بعض الحوادث التى وقعت فى الأعوام الفائتة قد ترامت إلى فى حينها . وكنت أخشى أن يفهم بعض رجال الحكومة السعودية أنى صحفى من ذلك الطراز الذى ألفوا أن يستقبلوه كل

عام ، وأن يشيعوه بذلك القصص غير الكريم ، ليستقبلوا فى العام الذى يليه فريقاً آخر من نفس الصنف .

ولم يكن فى وسعى أن أخلو بكل مسئول سعودى لألقى عليه محاضرة عن (خلقى أو قلبى أو شخصيتى أو حقيقتى) أما (البرلمان فى الميزان) فى طبعته الثانية فقد صدر بمقتطفات من أقوال الصحف عنى ، وبمقتطفات من آراء الوزراء والعظماء والساسة والأدباء الذين تناولونى ، وبمقدمة بقلم المرحوم ابراهيم عبد القادر المازنى حلل فيها شخصيتى وشرح فيها شخصى .

وفى وسع أولئك جميعاً — الأحياء منهم والأموات — أن يحدثوا البلاد السعودية عنى ، وفى وسع هذه البلاد أن تثق بهم وبآرائهم ، وتحت ستر «الهدية» أستطيع أن أقدم لكل مسئول نسخة من الكتاب رجاء أن يطالعه وأن يعرفنى .

وكان للوزير الخطير نسخة طبعاً .



عبد العزيز السلمان

فلما وقفت بنا السيارة بباب داره أخرجت هذه النسخة من الحقيبة وحملتها معى .

واستقبلنا الوزير يحف به من حوله أولاده الثلاثة عبد العزيز وهو شاب فى الحلقة الثالثة يعمل وكيلا مساعداً لوزارة المالية . . وأحمد وفهد وهما طالبان فى الحلقة الثانية أحدهما يدرس فى انجلترا وجاء إلى جدة لقضاء أجازته الصيفية والآخر يدرس داخل المملكة تمهيداً لإيفاده إلى الجامعة المصرية .

وكانت جلسة عائلية ثبت فيما بعد أنها قل أن تتاح لنا أو لغيرنا فى غير هذا اليوم الفريد لأن رجال الحكومة كانوا جميعاً فى معية ولى العهد

فى عرفات كما قلت لك ، وكان الوزير هو وحده الذى استأذن فى التخلف إلى ما بعد العصر ، وقد علل لنا هذا التخلف بقوله وهو يقبض على لحيته ويبتسم :

— يا سيدى أنا .. وهن العظم منى .. وتعبت .

وسألنى عن قصة الطائرة وتأخرها فقصصتها عليه ، فقص على بدوره قصة طائرة أخرى تحولت فجأة بابنه الجالس معنا — وكان قادما من انجلترا — إلى السودان والحبشة .. وكادوا يحجزونه هناك لولا الاتصالات التى قام بها أبوه .

وجرى ذكر الصحف وحركة التأليف فقدمت له نسخة (البرلمان فى الميزان) فقبلها بشفتيه ثم رفعها إلى ما فوق رأسه بيديه . فكان جذاب التحية حقيقة .. واستطاع أن يترك فى نفسى أثراً لا يمحى . واستطعت أن أدرك بعض دهاء ابن الصحراء وسر سيطرته .

وكان صاحبي الشيخ يرى — لياقة — أن يساهم فى الحديث .. فقص على الوزير قصة قديمة قال الشيخ أنها وقعت من قبل ٢٤ عاما عند ما كان يحج ومات قاضى جدة فطلبه الملك عبد العزيز وعرض عليه منصب القضاء بواسطة الشيخ عبد الله السليمان .

وتراقصت عينا الوزير تراقصاً ظننت معه أنه لا يذكر واقعة كهذى فأردت أن أداعب دهاءه فقلت أورطه :

— معاليك طبعاً متذكر ؟

فابتلع ابتسامة عريضة واستعار لوجهه أسارير جديدة وقال على الفور :

— إيش تفتكر .. أنا ذاكرتى ما تخونى .. بالمره .. علشان قلت لك وهن العظم منى ؟

وقلت ضاحكا :

— واشتعل الرأس ذكاء ؟

وأدرك الرجل أنى أردت أن أقول : (واشتعل الرأس مكراً) فقهقه أو قل ضحك بملء رئتيه .

ولهجة الوزير نجدية لم يحاول تغييرها .. وكان يبدو فى حديثه المازح بسيطاً إلى أبعد حدود البساطة .. حتى ليدهش رائيه إذا لم يكن له به سابق تعارف أو إذا لم تكن لديه فكرة عنه .. لهذه البساطة الحبيبة فى هذا الثوب الفضفاض كيف جمع صاحبها فى يديه كل هذه السلطات .. وكيف ظفر بثقة الملك كل هذا الزمن ؟ وحتى لقد ذكرت وأنا أواجه أخطر رجالات الملك عبد العزيز بعض الذكاء الفطرى فى قريتى المصرية النائية .

التربة .. التى يريدها :

وجاء ذكر الملك وثقته فيه فقال الوزير بلهجته النجدية اللطيفة أنه ليس وزيراً فى البلاط الملكى بالمعنى المفهوم من الملوك والوزراء .. وانما كان ومايزال وسيظل خادما بالباب .. ومن التربة التى نشأ فيها سيده ومولاه نشأ .. وأغلى أمانى الوزير أن يظل خادما أمينا لسيده ومولاه حتى يواريه جلالته نفس التربة بيديه .

وكان يتدفق فى تأكيد هذا المعنى تدفقا يلوح الصدق عليه ويضرم الحماسة والحرارة فى سامعيه .

أمنية ... ؟!

وفى توديعه لنا أكد أن هذه الزيارة العابرة ليست هى المقابلة التى يرجوها .. وأخذ علينا العهد والميثاق أن نتصل به بعد الحج لنتفق على موعد هو المقابلة التى يعنيها .. وأعطيناه من ناحيتنا هذه الكلمة شاكرين .. أما القدر فقد كان له فيها رأى سنعود إن شاء الله إليه فى حينه .

وطلب الوزير — وهو يودعنا — إلى نجله عبد العزيز الوكيل المساعد لوزير المالية أن « يهرج » — أى يتحدث تليفونيا — لمكة ويصدر التعليمات المشددة للعناية بنا .

وأقلتنا السيارة إلى مكة .. يسوقها رجل يملأ الكف حجما مشوب الوجه

بالحمرة .. تقترن فيه البساطة بالحماقة .. علمنا من الحديث معه أن اسمه (محمود نمر) وأنه (تركى الأصل) استوطن جدة من عشرات السنين وتزوج منها وأنجب .. ولا أهل له فى دنياه غير هذه الزوجة وهؤلاء البنات والبنين .. وتبين فيما بعد أنه على حماقته واعتداده و (شخطه ونطره) يعتبر ذا أخلاق إذا قيس بطائفة (السائقين) الآخرين من أهل مكة أو جدة .

وقد ربحت حب السائق فيما لاح لى لأنى لم أشأ أن أؤكد ذاتى فيه أو أبسط السيادة عليه وكان إذا أصدر إليه أحد أوامر نفر منها وأجفل .. ولاحظ على الأيام أن كثيراً من التكريم العام .. موجه إلى شخصى .. وأنى مع هـذا التكريم « الرسمى » و « غير الرسمى » أعطف عليه بمختلف (ألوان العطف) وأحسن إليه معاملة وأسلوبا ..

الفصل الثانى

إلى مكة وعرفات

لبيك اللهم لبيك :

وفى الطريق انطلق صاحبى الشيخ يلبى — وهو « زبون » قديم فى الحج كما سبق القول — فتابعته ولكن فى غمغمة لا تكاد تبين .. ولست أدرى لماذا خالجنى نفور عميق من إظهار التدين الذى يظهره الشيخ مخلصاً فيه بالطبع ، ومررنا فى الطريق الممهد بين جدة ومكة تمهيداً يعيد إلى الأذهان الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية . مررنا فى ذلك الطريق الممهد . . تنبسط على جانبيه رمال الصحارى وتكتنفه من اليمين والشمال جبال وجبال . . ذات ألوان وألوان . . ألوان تحكى لك ما فعلت بها الأجواء والأجيال . وتقص على الجغرافيين ما عراها من اختلاف درجات الحرارة وعوامل التعرية . . فتآكل منها ما تآكل ، وتفاعل معها ما تفاعل ، وتراكم عليها ما تراكم . . لتردد على مسمع التاريخ قصة العروبة من بدايتها . . وأطوار العرب حتى ساعتهم . . وتحدق برغمك وقد دنوت من المبانى الحديثة خارج مكة . . تحدق فى هذه الجبال وترى بعين الخيال أحداث الاسلام ماثلة . . وصورة محمد تطل عليك من ها هنا . . وتطالعك من ها هنا . . ويتلألأ على الوجه الجليل نور أى نور . . نور تتناقله الدهور والعصور . . وتقول للأناسى أى بقاء يقدر للحقائق . . وقد مضى على ابن عبد الله أربعة عشر قرناً وما يزال البيت الذى طهره عالى الذرى . . والدين الذى نشره مبسوط اللواء .

الآن أدرك معنى قولك : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

وعرتنى هذه المرة هزة . . واختلجت بين الضلوع خفقة . . وترقرقت فى العين دمعة . . وصحت برغمى وبصوت أعلى من صوت صاحبى : « لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . إن الحمد والنعمة لك والملك . . لا شريك لك » .

هنا باب جدة :

وصاح السائق محمود :

— قربنا من باب جدة يا عمى (وعمى . . كلمة تكريم يخاطب بها الصغير الكبير) .

— إيه باب جدة يا محمود ؟

وعز على صاحبى الشيخ أن أسأل غيره وهو العليم . . فنهر السائق الذى كان قد هم بالجواب . . وراح يقول : أنه مدخل مكة . . وعندما تبلغه تقرأ معى (السلام عليكم يا أهل المعلى . . السلام عليك يا سيدتنا خديجة . . الخ) .

وكنت أعرف من مطالعاتى أن بعض أهل الرسول وصحبه دفنوا فى هذه البقعة الطاهرة التى يسمونها (المعلى) فلما بلغنا (باب جدة) — وهو كأقواس النصر الضخمة التى تقام فى بعض المناسبات فى القاهرة — ألقيت السلام همساً لأن صوت صاحبى الشيخ كان قد علا . . وهديره كان قد تعالى . . والصيغ المحفوظة كانت قد بدأت تنساب من بين شفتيه . . فزايلتنى (الإشراقة) التى كانت قد بدأت قبلا تتسرب إلى أحاسيسى . . لأنى كما قلت لك أميل فى التعامل مع ربى إلى السر والنجوى .

وصلنا مكة إذن . . مكة المكرمة حقاً . . سلام عليك يا أم القرى . . وعفواً إن قلتها همساً فما أحب الجهر فى حبى . . ولا الصيغ المحفوظة التى تتلى . . وإنما أحب الصيغ نابعة من قلبى .

آل سليمان . . والصبان :

وأصر السائق أن ينفذ تعليمات الوزير واتجه بنا إلى بيت الشيخ سليمان الحمد وترك السيارة واتجه إلى الخدم ليسألهم عن سعادة وكيل المالية فقالوا له : أنه صعد إلى عرفات وهو يطلب إليكم التوجه إلى بيت الشيخ محمد سرور الصبان لأنه فى انتظاركم .

ظاهرة فى الخدم :

وأدى الخدم رسالتهم فى غير اكتراث وهى ملاحظة لا تفوت الضيف أبداً . . ملاحظة أن الخدم فى مكة وجدة يلقونك فى استخفاف وبغير اكتراث وفيهم اعتداد إزاء الضيوف ، وفيهم خضوع بين أيدى سادتهم ، ولست أدرى إن كان يحق لى أن أستنجد هنا بعلم النفس ونظرياته أو علماء النفس وآرائهم .. فأرى فى هذه الظاهرة دليلا على ما يلقاه الخدم من قسوة يفرغونها بالتالى على رؤوس كل من لا سيادة له عليهم .. ضيوفاً أكانوا أم غير ضيوف .. لست أدرى هل أفزع إلى نظريات علم النفس إزاء هذه الظاهرة أم الخير أن أعبرها . لا سيما أن ما ينطبق على الخدم فى الدور ينطبق على الخدم فى الفنادق إلا إن كانوا نوبيين أو أجانب مدربين ولم يكونوا مكيين .. ودع جانباً أن يكونوا بدواً أو نجديين .

وهل هذه النظرية التى مسستها تصح وتستقيم . . أم أن الصراط المستقيم أن ترد هذه الظاهرة إلى شمم الجبال فى هؤلاء الرجال . . وإلى كبرياء يريدون أن يبدوها أمام الأجانب . . حتى يتحصنوا ضد احتقارهم من أى جانب . .

فى دار الصبان :

واتجهت بنا السيارة إلى دار الشيخ محمد . . وقيل لنا (إنه فى البيت الآخر) وعدنا نخرج من (باب جدة) إلى (الفيلا) الأنيقة الجديدة التى أقامها الشيخ خارج مكة .

وأحسن الخدم استقبالنا « نسبياً » .

وأدخلونا إلى صالون فاخر يعيد إلى ذهنك أفخر الرياش فى أفخم القصور فى مصر . .

وجاءت (القهوة) على (الطريقة العربية) وكان سقاة القهوة أكثر بشاشة وأوفر ترحيباً فقدموها إلى وإلى صاحبى فى أدب جم .

وكان رأسى يدور . . ونفسى تسأل :

— لماذا يطوف بنا هذا السائق بهذه البيوت ؟ إننا ضيوف الأمير سعود من ساعة وصولنا المطار ، كما قيل لنا ، ومحل توصية الوزير من ساعة توديعه لنا فى الدار ، كما سمعنا بآذاننا ، فلماذا لم ينتظرنا الشيخ سليمان ؟ وهل يستقبلنا أيضاً الشيخ الصبان ؟ أم نظل وديعة السائق ينتقل بنا من مكان إلى مكان ؟ ألم يكن من الخير لنا أن ننزل ضيوفاً على أنفسنا . . وأن نفتح بأموالنا الأبواب أمامنا ؟ وأين الأخ « عبد الله بالخير » وكنت أتصور من رقة رسالته أنه سيقيم المملكة ويقعدها احتفاء بى . . وأين مواطنى عبد السلام وكنت أتصور أنه يطير فرحاً — إذا ما رأى مواطنه الكاتب المصرى قد نزل عليه ضيفاً — وهو مدير الضيافة وظيفة ؟



محمد سرور الصبان

وكل هذه الأسئلة النابية أعترف أنها كانت تملأ رأسى . .

وأعترف أن مجىء الشيخ محمد أجاب عنها بل مر بيد المحو عليها وخرجت من لدنه سعيداً إلى الحرم حيث الطواف والمسعى . . واغتسلت صفحة قلبى من أدران الصدأ الذى كان قد علاها أو ران عليها .

نعم . . فجأة . . وحدثت بين الخدم حركة . . وانفلت سيدهم من الباب داخلا . .

فارع العود .. شديد بياض الجلباب .. شديد سمرة الوجه .. شديد لمعة العين .. خفيف حركة الجسم .. تخاله شاباً يافعاً وهو يطل على الستين كما قيل . ضاحك السن .. طلق المحيا .. مشبوب الترحيب .. يلقاك كأنه أخ لك من قديم .. ويحدثك فتنسى أنك الضيف وأنه المضيف .. يحسن التمثيل بالشعر إن عرضت مناسبة .. فيه كل المؤهلات التى تؤهله للمكانة التى ظفر بها .

كانت الجلسة طيبة وطلية .. ودعا إليه السائق باسمه ، وأوفد معنا تابعاً يلازمنا فى الطواف والسعى ، وطلب إلى محمود (السائق) أن يحج معنا البيت ، فاعتذر بأنه غير محرم .. فضحك وقال له إنه كان يتوقع مابه تذرع .. وإنه أمر بأن تصرف له فوراً ملابس إحرام جديدة .. وأن تصرف له فوراً نفقاته لأنه يعرف أنه مقيم فى جدة وعليه الآن أن يلازمنا ولا يعود إلى جده إلا إن عدنا نحن إليها .

وأحسن الرجل توديعنا كما أحسن استقبالنا وأهديت إليه نسخة من كتابى .. وكنت أعرف أنه صاحب مكتبة تعتبر فريدة فى البلاد السعودية .. وكنت أعتقد أن كتابى لا بد أن يكون ضمن كتبه أو ضمن مكتبته .. ولكن الرجل كان مهذباً فلم يذكر ما يؤيد تشاؤمى .. بل على النقيض قص على فقط أنه كان من المعجبين الذين تتبعوا نقدى البرلمانى فى (البلاغ) سنين وسنين .

حادث فى الحرم :

واتجهنا بالسيارة إلى الحرم .. ومعنا التابع والسائق .

وملأنا الطريق إليه تلبية للنداء الذى جاء . وهتافاً لرب الأرض والسماء .

وليس فى نيتى أن أعرض هنا بالوصف لشعورى .. لأنى أميل الساعة إلى تسجيل الأحداث ولا أميل إلى تصوير المشاعر .

قال لى صاحبى الشيخ :

ـ أظنك لا تحفظ الصيغ التى تقال فى الطواف حول الكعبة .

وقلت لصاحبى الشيخ :

ـ قرأتها أكثر من مرة ولم أعن يوما باستظهارها . .

قال صاحبى الشيخ :

ـ اعتمد على لأن الحجة كما تعلم هى الثامنة ولأنى رجل دين وهذه صناعتى .. فسر إلى جانبى بدلا من أن تسير إلى جانب أحد المطوفين .. وردد معى ما أقوله .

ـ وهو كذلك .

قال لى هذا كله مراراً وتكراراً كما قاله قبل أن نبلغ الحرم .. ولكننا ما كدنا ندخله حتى انطلق يدعو .. بكلام لم أتبين أكثره . وبدا منه أنه اندمج فى الله ونسينى .. حتى بلغنا الكعبة .. وكان أهدأ وقت لها .. ولعله أهدأ وقت فى العام يمر بها .. لأن الحجيج جميعاً كانوا قد صعدوا إلى عرفات .. ولم يبق من حولها غير المطوفين المحترفين الذين لا يحجون .. وغير القليلين ممن يطيب لهم أن يطوفوا .. لأن الطواف من حولها لا يكاد ينقطع فى أية ساعة من ساعات النهار والليل كما قيل لنا وكما رأينا فيما بعد ذلك بأعيننا وهى إحدى معجزات البيت المحرم .

وجرت العادة إذا ظهر الحجاج الأجانب أن يخف إليهم المطوفون متنافسين وأن يحفوا من حولهم فى تزاحم .. ولكن يا عجبا .. إنهم جالسون جميعاً . ولا يتحركون أبداً .

وإنه لرجل واحد منهم .. وهو فى الأغلب الأعم ليس منهم .

رجل عليه علائم الصلاح والورع . فيما بين السبعين والثمانين من العمر ..

أبيض الوجه مشرب بالحمرة .. أشيب اللحية نظيفها . صافى النظرة وديعها دنا منى فى هدوء وهمس فى أذنى همسا رقيق النغم كالموسيقى :

— تحب أطوفك ؟

وأجبت فى بساطة :

— أيوه .

ولاحظ صاحبى الشيخ أن (المطوف) التقطنى .. فانصرف إلى طوافه وانصرفنا إلى طوافنا . حتى إذا ما فرغنا من الطوفات ... قلت لصاحبى الشيخ :

— اعط الرجل حتى يرضى .

ذلك أن صاحبى الشيخ كان يحمل تحت إبطه حقيبة صغيرة مما يحمله الحجيج لحمل النقود .. ولم أكن قد اشتريت مثلها جهلا منى فأعطيته كل ما معى من مال ليحمله معه فى حقيبته .. وكان مالى كله عملة مصرية .. ولم يكن معى نقود صغيرة .. وكان مع صاحبى الشيخ منها الكثير فاتفقنا على أن ينفق ويحاسبنى آخر يومى أو آخر حجى .

ووضع صاحبى الشيخ يده فى الحافظة وأخرج منها ورقة وأعطاها للمطوف الصالح .. ولم يجل بخاطرى إلا أنها مبلغ سخى .. أو على أبعد آماد الحرص « مبلغ معقول » .

وما كانت أشد دهشتى عندما رأيت المطوف الصالح يفزع من منظر الورقة .. ويقفز بضعة أمتار وهو يلوح بأكمامه تلويح من يقصى عنه شبحاً مخيفاً وقال صاحبى الشيخ محتجاً على حركات المطوف الصالح :

— هوه حر .. أنا عارفهم كويس .. هو أنا تايه عنهم ؟

ودنوت من صاحبى .

وكادت أعصابى تفلت من السيادة التى فرضتها عليها . . ولكنى عدت

فذكرت قوله تعالى « لا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » فصحت فى صاحبى بصوت مبحوح :

ـ إعطه حتى يرضى .

وأخذ صاحبى على خاطره ونادى المطوف : (تعال يا شيخ) وأضاف مغمغما (أنا أصلى عارفهم كويس) .

وكرر صاحبى النداء . . وكرر الشيخ التلويح بأكمامه . . ليخفى عن وجهه الشبح الذى أمامه . . وساهمت فى استدعاء الشيخ بكل قوة فى . . وبأعلى صوتى . . وعبثاً حاولنا أن يقترب منا . . وأن نصرفه عن عناده . لقد أصر الرجل على ألا يأخذ مليما . . حتى لم يبق أمامنا بد من التوجه والسعى واللحاق بالحجيج فى عرفات .. مخلفين وراءنا .. رجلا له أسراره .. وله إصراره ..

إلى عرفات :

وأتممنا السعى بين الصفا والمروة .

ولا أريد هنا أن أوجه النقد الذى تكرر عشرات المرات بشأن المتاجر القائمة على جانبى المسعى واختلاط الساعين ذهاباً إلى المروة وإياباً إلى الصفا بمئات الباعة والزبائن والتجارة . . بحيث يستحيل أن يقال أن (الساعى) فى هذا الطريق يمكن أن يخلص نجياً لله .

لا أحب أن أساهم فى هذا النقد بعد أن علمت أن سعود بن عبد العزيز هاله ما هال كل ناقد . وقرر أن ينزع ملكية الدور والمتاجر المحيطة بالحرم كله . . ليخلو بيت الله وما حوله الا للطائفين والساعين . . والعابدين الركع السجود . . فهيا بنا إلى عرفات . . هيا بنا نمر بمنى وإنها لقرية وفيها دور وقصور . . وهيا إلى المزدلفة وأخيراً هيا إلى عرفات . .

لقد طوت بنا السيارة هذا الطريق الطويل . . فى يسر .

وكنت ألمح إلى اليسار طريقاً آخر . . تشقه السيارات العائدة . .

كيف حدث هذا وكانت وعورة هـذا الطريق . . يشيب لهول وصفها الفودان ؟ كيف ؟ كيف شقت الجبال شقاً . . وكيف دكت الأحجار دكا . . وكيف رصفت الطريق رصفاً . . ثم كيف دار بك ثم استقام . . وعلا ثم هبط من غير أن تشعر بالعلو وبالهبوط ؟ . إنها إحدى معجزات العلم فى القرن العشرين . . تحققت بيد المهنـدسين العرب لأن مكة محرمة على الأمريكيين .. وأخيراً من صنع هذا كله يا محمود ؟

وأجاب السائق :

— « الشيوخ . . طويل العمر . . سعود » . .

حسناً . . فلنسجل هذه عبراً تمهيداً للبحث .

وتذكرت أنى قرأت قبلا أنباء هذا الطريق ضمن إصلاحات ولى العهد . . وتبين لأول مرة مدى الفوارق بين السامع والرائى . . أو بين القارىء والمشاهد . .

فى مخيم الفندق :

— إلى أين يا محمود؟

— مخيم الفندق يا عمى .

وفهمنا أن لدى السائق تعليمات بإنزالنا فى مخيم فندق التيسير ... وعرفات جبل أشم قائم على سهل منبسط .. ولا أقول بواد غير ذى زرع أو فى صحراء لا يرتد عنها الطرف . . ولا يحدها غير الأفق . . فى هذا الخلاء يقف على الأقدام نصف مليون من البشر .. وليس فيه بناء .. بل خيام تتراوح بين الصغر والكبر . . ومخيمات الفنادق كبيرة طبعاً لأنها معدة لنزلاء كثر . . وهناك طبعاً مخيم أكبر معد للملك أو لولى العهد . . وفيه كان ينزل هذا العام الأمير (يومئذ) سعود والرئيس محمد نجيب . . وأمام مخيم فندق التيسير

وقفت بنا السيارة .

واستقبلنا الشيخ عطا الياس صاحب فنادق التيسير وعطا هذا .. شخصيته تستأهل أن ترسم وتستحق أن تحلل وسيجىء دورها فى حينها فلندعها الساعة إلى غيرها .

وأرض المخيم فرشت بالسجاجيد . . وفى خيام تابعة له أو ملحقة به خيام أخرى صغيرة متناثرة لراحة من يحبون العزلة وفيها تناثرت بعض المقاعد . . فوق السجاجيد أيضا . هنا يطيب للجسم أن يرتد إلى أصله ويتعرف إلى معدنه . . لقد كان يطيب لنا بعد أن جنحت الشمس إلى المغيب أن نستلق فوق الرمال . . وننفر من السجاجيد . . كان يطيب للأجساد أن تصافح التراب لأنه الأصل والينبوع . . وهنا فقط تنهار كل الحواجز بين الأصول والفروع .

هنا . . هنا :

هنا نصف مليون من البشر . . بينهم ملوك ورؤساء دول . . وزعماء شعوب وساسة وشعراء وكتاب . . وأقوام أضنتهم عبادة الله فتبدوا فى إبراد ناحلة . . وأقوام أثقلتهم أوزار الحياة فتبدوا حيارى أو نادمين يجأرون كالذبيح ملبين . .

هنا . . هؤلاء جميعاً سواسية كأسنان المشط حقاً . . متساوون أمام الله والضمائر . . لا بحكم القانون العادل أو الجائر . .

هنا . . هؤلاء جميعاً عراة إلا من قماش يستر العورة ويذكر بالكفن . . حفاة إلا من نعال تقى الأقدام مضرة الحرارة والحصى .

هنا . . هؤلاء جميعاً يرفعون إلى السماء أكفهم فى خضوع ، يلف فى برديه الجميع . ويضجون فى ساحة الله الواحد بهتاف واحد « لبيك اللهم لبيك » .

لا أعتقد أن فى وسع دين من الأديان السماوية أو الوضعية . . ولا أعتقد

أن فى وسع فيلم أمريكى تنفق عليه يد السخاء مئات الملايين من الدولارات .. أن تقدم (على الطبيعة) أو (بيـد الصناعة) لوحة تماثل أو تقارب هذا المشهد .. أنها البشرية ترقى وإنه التجرد .. التجرد الذى لا تعرفه الحضارة .. ولا يعترف به العلم .. إنه التجرد الذى يعيشه أجهل آدمى يقف على هذا الجبل ولا يصفه أكبر كاتب يحمل الأوراق والقلم .

« لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك »

عبارات معدودة ومحدودة .. تنطلق من أفواه نصف مليون من البشر وهم أقوى ما يكونون إرادة .. وأنظف ما يكونون صدوراً .. وأطهر ما يكونون قلوباً .. وأشد ما يكونون التصاقا بالسماء وهم على الأرض فى هذى الصفوف وقوف

قد يكون .. وقد يكون :

قد يكون من حقك أن تسأل :

— ألم يكن بينهم رجل تبلد منه الحس وقسا منه القلب .. وكان يخالس الجارة النظر .. أو كان يدبر لأخ له أى شر ؟

وأجيب :

— نعم .. بينهم هـذه القلة المعتلة .. وهل تريد نصف مليون فى قطعة من العراء .. وتحت قطعة من السماء .. صحاح النفوس والقلوب .. لا يتسرب إلى أحدهم شيطان واحد ؟ بل أنا أعتقد أن من كبار القوم من أضلته المطامع فلم يتجرد منها بل أوغل فيها .. ورأى فى اجتماعه بمن هو أكبر منه نفوذاً فى هذا اليوم .. فرصة للملق .. فراح ينافق وينافق ، وأنفق جل يومه يلبى نداء سيده الكبير ولا يلبى نداء الخالق الأكبر .

قد يكون .. وقد يكون .. وقد يكون !

وأنا لا أتحدث عن ألف من خمسمائة ألف . ; إنما أتحدث عن أربعمائة وتسعة وتسعين ألفاً — تركوا بلادهم وأكبادهم وأموالهم — ومخروا عباب البحر أو شقوا أجواز الفضاء . . ليقفوا هذه الوقفة فى العراء . . وليتجردوا من أدران الأحساب والأنساب . . وليكفروا عن قوائم الجرائم قبل يوم الحساب . . وليهتفوا فى صوت واحـد . . وبقلب واحد : « لبيك اللهم لبيك »

أهذا قليل فى حساب الأحياء والحياة ؟

وهل هو قليل فى قوانين البقاء وفى ميزان الله ؟

كلا يا أخاه

إنه شيء عجاب

إنه إقرار عملى وقلبى وروحى بانى لست إلا العبد . . وانه الواحد الأحد والفرد الصمد

عبارات . . ولافتات :

وأحب أن ألفت نظرك إلى شيء آخر . . وإلى حقيقة أخرى . . أحب أن أقول لك ان عبارة : (لبيك) قد لا تحرك بين جنبيك عاطفة جارفة وقد لا تثير فى ذهنك معنى كبيراً . . ولـكنك فى عرفات غـيرك هنا . . والعبارة هنا غيرها هناك . . انها هنا كلمات ذات حروف . . لا تزيد على اللافتة المطفأة . . أما هناك فمفتاح النور موفور . . ومجرد وقوفك فى عرفات إدارة لهذا المفتاح وأضرب مثلا لما أقول . . حادثاً وقع لى . . فى سورة من السور :

كان من عادتى وأنا فى مصر أن أقرأ سورة (لإيلاف قريش) ضمن السور القصيرة التى أستخدمها فى الصـلاة . . وكنت أتلوها ميتة الحروف لا نور فيهـا . . وذات يوم وقفت أمام الـكعبة أصلى ركعتين . . وجرت هذه

السورة على شفتى — بحكم العادة فى الأغلب — ولكنى أحسست ان هزة تعرونى .. وأن المفتاح أدير واللافتة أضيئت والحياة دبت فى الحروف .. والكلمات استوت واقفة .. والسورة تربعت على عرشها فى صدرى وأخذت سمتها إلى قلبى .. واغرورقت بالدمع عينى ثم تنبهت ولم أعد أدهش .. بل رحت أتمهل وأنا أتلو :

— « لإيلاف قريش .. إيلافهم .. رحلة الشتاء والصيف .. فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وقل معى مرة أخرى :

« فليعبدوا رب هذا البيت » .

وأنا الآن قائم أصلى لرب البيت فى نفس « البيت » .. إن جدار البيت ماثل أمامى .. إنى فى صحنه وفى ضيافة ربه .. إن هذه الأستار المرخاة على الجدار هى التى يفزع إليها الملتاع .. ويتشبث بها المحتاج .. ويبللها بالدمع كل ضال .. يلتمس الهداية ، وكل ضارع يلتمس الإجابة ، وكل معوج جاء لتقويم الاعوجاج .

وما من إنسان لم يطعمه الله من جوع فى أحد المواقف .. أو لم يؤمنه مرة من بعض المخاوف .. وقد مر بذهنى يومئذ كل الشريط الشخصى .. شريط الماضى الحبيب والماضى البغيض .. شريط الجوع الذى لم يمكنه منى .. وشريط الخوف الذى آمننى منه وهذه رحلتى إلى البيت فى الصيف ..

فاللهم اكتب لى عندك رحلة الشتاء ..

وهكذا أدير مفتاح النور .. وأضيئت اللافتة ودبت الحياة فى الحروف واستوت المعانى قائمة بعد أن كانت محجوبة وراء اللافتة القاتمة .. فعرتنى الهزة وكان ما ينبغى أن يكون .. واحتوانى الجمال فانهال الدمع الهتون .

إلى المزدلفة :

ولم يكن من برنامجى فى فصولى أن أطاوع أبداً عاطفتى .. لكنها العاطفة حماها الله لنا . . ولا حمانا منها . . طغت على — كما ترى طغيانا — فأهدرت عهدى لك . . ونسيت الأحداث أمام الإحساس . . وما نزال كما ترى فى عرفات وأخشى أن تضيق بالرحلة هذه الصفحات .

الخير إذن أن نفرغ من التلبية وأن نستقل السيارة إلى المزدلفة وأن نقطع هذه المسافة القصيرة فى ساعات . . وأن نوجه بعض النقد إلى قلم المرور الذى لم يحسن التنظيم . . أو أن نقول لمن شق فى الجبال طريق الذهاب وطريق الإياب . . إننا ما نزال نطمع فى طرق كثيرة للذهاب وطرق كثيرة للإياب . . لأن عدد السيارات فوق ما تحتمله طريق واحدة .

الخير إذن أن نصل إلى المزدلفة على أية صورة . . وبعد أى زمن وفى صدر الليل . .

إغماء .. أو تهلكة :

وقد جاء وقت . . وقفت بنا السيارة فيه . . فلا متأخر لها ولا متقدم . . انتهى الشوط واستحالت الحركة وتزاحمت من حولنا الأناسىّ .. وتراكضت فى صدورنا الأنفاس . . وأحسسنا بالحاجة إلى الفضاء والهواء . . وخيل إلى أنى لا محالة مختنق . . وصرخت فى السائق : (يا جدع أنا بموت) .

وعرفت أخيراً أننا على بعد أمتار من مخيم الفندق فى المزدلفة فقذفت بنفسى إلى خارج السيارة وتبعنى صاحبى الشيخ وتقدمنا سائقنا المرشد . . وكافحنا فى سبيل البقاء كفاح الأبطال .. شاقين الطريق إلى المخيم حتى بلغناه . . فما كدنا ندلف من بابه إلى داخله حتى استنشقنا الهواء بملء الرئات وعادت إلينا الحياة .

وكان المخيم فى المزدلفة رديئاً على النقيض من المخيم فى عرفات .

حتى الطعام لم يكن فى المزدلفة غير (صاندويتش بالجبنة) ثم كان من حظى أن يجيئنى (الصاندويتش) من غير (جبنه) مع قدح الشاى وكان هذا هو كل العشاء . .

ونمت على أطراف سجاد ممزق .. واتخذت من حقيبة جلد صغيرة كانت معنا وسادة . . ثم نمت دقائق نهضت بعدها لأرى جاراً لى لا أعرفه يتوسد حقيبتى ولأرى رأسى يتوسد التراب .

وابتسمت . . وقلت : فى سبيل الله ما ألاقى فى المزدلفة . . وهنا فقط يحلو العذاب ويعذب .

وإلى منى :

وما كاد الفجر يجىء . . حتى بحثنا عن الماء للوضوء . . وبعد الجهد ظفرنا بجرعات فصلينا .

وبعد جهود مضنية اهتدينا إلى السائق والسيارة وأخذنا طريقنا إلى منى . . وفيها كما قلت لك مبان وفيها قصر الملك . . وفيها (فندق التيسير) الذى نزلنا عليه .

وبدأت الراحة من جديد . .

فلنسترح معنا قليلا . .

ولنلتقط أنفاسنا استعداداً لاستئناف الرحلة هناك .

بلغنا منى ..

ورحب بنا فندق التيسير فيها .. وأفردت لنا غرفة تطل من ناحية على (حارة) أو (زقاق) تقفله تكية الطائفة الاسماعلية وتطل — أى الغرفة — من الناحية الأخرى على الشارع الرئيسى فى منى ..

ومع أن « منى » قرية .. فيها دور وقصور وبها سكان غير الزوار فإنك

تشعر وأنت تقيم فيها .. أنك فى (طلعة العيد) فى أى إقليم مصرى أو فى مدافن الإمام الشافعي بالقاهرة .. أو فى مولد السيد البدوى بطنطا .

وفندق التيسير فندق كبير (وله ملحقان فى نفس القرية) ولكن الملحوظ فيه أنه مأوى للحجيج فى يومين اثنين أو ثلاثة أيام من كل عام .. ولهذا تراخت يد الإصلاح عن إحداث أى انقلاب فيـه .

مطوفى يطارد :

وفى هذا الفندق ، صباح العيد ، وحيث يتبادل الحجيج عبارات التهنئة والتبريك ، حدث لى حادث فاستمع يا أخى :

حدث أن كنت فى (بيت الراحة) ، وأردت كعادتى أن أنظف أسنانى ، وجزء منها كان قد سرى إليه السوس من أيام التلمذة ، فاستبدلت به أسناناً صناعية . فأخرجت هذه الأسنان لأنظفها بيدى فى الماء ثم أعود إلى أسنانى الطبيعية الباقية فأنظفها بالفرشاة أو أسوكها أو « أسنها » كما يقول اللغويون . وفجأة وثبت الأسنان المصنوعة من يدى وثبا ، وانفلتت إلى المرحاض انفلاتا . وقضى الأمر ولم يعـد هناك سبيل إلى التفكير لأن بيت الراحة ضارب فى أرض القرية حيث لا يعلم أحد . . ووجمت . . وجمدت . .

وبعد دقائق ابتسمت ، واغتسلت وعدت إلى الغرفة فى صمت .

ابتسمت يا أخى الذى يقرأ . ابتسمت يا من أبثه هـذا الذى أكتب . ابتسمت لأن حكمة الله استوت أمامى ماثلة حتى لتكاد تتجسد .

وحملت رأسى باليد . وبدأت أفكر .

إن الرجل الصالح الذى طوف بى حول الكعبة فى الحرم ، ما يزال يطارد ، وهذه أول آية .

قد تقول أن الذنب ذنب صاحبى الشيخ وأنا أخالفك ولا أظلم صاحبى . وأنا أقول مدفوعا فى قولى بحساسية الضمير أنه كان فى وسعى أن أفعل شيئاً

لم أفعله ، وكان يجمل بى أن أطلب من صاحبى الشيخ جنيهاً من جنيهاتى التى يحملها لى وأعدو خلف المطوف الصالح وأعطيه الجنيه برغمه ، وأبرىء ذمتى قبل أن أمضى إلى عرفات .

وحملت رأسى باليد . وبدأت أفكر .

إن المطوف الصالح ما يزال يطارد . ها هى ذى بضع أسنان مصنوعة قد تخلت عن فمى فأحدثت فيه فجوة غير مستملحة ، وأصابتنى بلثغة جديدة فى مخارج حروف الثاء والذال والزاء والسين والشين والصاد غير لثغتى الطبيعية فى حرف الراء .. فكيف بالله ألقى ولى العهد وأتحدث إليه ، وكيف ألقى أصدقائى السادة سليمان الحمد وعبد الله بالخير وعبد السلام غالى ؟ إنهم أصدقائى بالقلب أو بالقلم ، ولكنى لما أقابل أحداً منهم ، ثم أن الحديث هو الوساطة الوحيدة التى تعرفهم بعض نفسى وتميط اللثام عن بعض شخصى .

وحملت رأسى باليد ، وواصلت تفكيرى . .

ولكن لم كل هذا ؟ لم نسيت الذى لا ينسى قط ؟ لم شغلتنى الخلائق عن الخالق ؟ لم أعنى بالأمير ولا أعنى برب الأمير ؟ لم لا أحمد على هذا المكروه من لا يحمد على المكروه سواه ؟ لم لا يكون الخير العميم رابضا وراء هذا الامتحان الرهيب .. أو كامنا فى ثناياه .. لحكمة أرادها الله ؟

ورفعت عينى إلى السماء وقد اخضلتا بالدمع الذى لم ينهل ، وابتلعت رضابى راضيا وابتسمت .

وسألنى صاحبى الشيخ عما بى فقصصت عليه الحادثة .

وقال الشيخ ان الله لا بد منقذك بعد يومين على الأكثر .

واستطرد يفصل الأمر ، وأشهد أنه ما أفادنى فى رحلتى قط قدر ما أفادنى فى هذه المرة .

قال إن فى مكة طبيب أسنان مصرياً اسمه (عباس كرارة) كان فيما سلف

من الزمان صديقا له ، يوم كان يعمل فى القاهرة (صانع أسنان) وأن أحد أقاربه حمل صاحبى الشيخ (علبة) بها مسحوق خاص لصناعة الأسنان ينتظره (كرارة) بفارغ الصبر ، فعلى أثر مغادرتنا منى إلى مكة نقصد إليه ، وفى ليلة واحدة يصنع عوض الفاقد .

وقلت للشيخ :

ــ ولكن التشريفات الملكية صباح غد ، ونحن ضيوف الحكومة ، ويحتم علينا الواجب أن نهنىء الأمير ، وسنقابل هناك لأول مرة فى الحياة الأصدقاء سليمان الحمد وعبد الله بالخير وعبد السلام غالى ، ودع عنك الصبان لأنه رآنى من قبل وأنا سالم الأسنان .

وقال صاحبى الشيخ : ليهون الأمر :

ــ باكر ، أخوك ما هو أخوك وأبوك ما هو أبوك .

ويقصد بالمثل المصرى : أن زحمة التشريفات لا تنبه أحداً على نقص أحد ..

فى قصر الملك :

وفى صباح اليوم التالى أقلتنا السيارة إلى قصر الملك لنهنىء ولى العهد بعد أن تحللنا من ملابس الإحرام .

أقبلنا على القصر فإذا مداخل كثيرة ، يتجه إليها المهنئون ليأخذوا أماكنهم فى انتظار دورهم . ولكنى لمحت المدخل الأكبر الذى لا يسمح الضباط لغير الكبراء أن يدخلوا إليه ، وعرفته لأن أبانا أمين الحسينى مفتى فلسطين ــ وله فى المملكة السعودية مكانة ــ كان يدخل السرادق . فاتجهنا إليه وحاول أحد الضباط أن يرشدنا إلى مدخل آخر ، فقلنا له فى حزم وصلابة :

ــ لا يا سيدى .. مكاننا الطبيعى من هنا .

وسارع صاحبي الشيخ يعرف الضابط السعودى بى وكان الرجل مهذباً فقال يصافحنى :

ــ مرحباً .

وأفسح الطريق بعد أن سألته عن الشيخ عبد السلام غالى فدلنى عليه بإشارة من يده وكان يقف على مقربة من مدخل الباب فصحت فى عبد السلام

ــ تعال يا شيخنا يا عبد السلام .

وعرفنى الرجل من فوره ، وكان ذكياً حقيقة واحتوانى بين ذراعيه معانقاً ، وقدمت إليه صاحبى فعانقه ، وكنت أعرف صورة الشيخ من قبل .. كنت أعرف أنه فى الحلقة السادسة وأن لحيته المدببة بيضاء ناصعة ، وأن لون بشرته ضارب إلى الحمرة ، وأن أطلال الوسامة ما تزال قائمة على صفحة وجهه ، وأن عينيه براقتان تشعان قناعة وطيبة وذكاء ، وبعد العناق قلت للشيخ :

ــ وين أخى عبد الله يا شيخ ؟

وقال الشيخ :

ــ والله هو أكثر منك فى السؤال عنك .. تعال .. تعال

عبد الله بالخير :

ونادى الشيخ أخانا عبد الله ، ولا أدرى كيف عرف كل منا أخاه واندفع إليه واحتواه بين ذراعيه ، وإن كنت أعرف أنى نشرت له صوراً ، وأهديت إليه صورة لى ، وكان طبعاً قد تلقى برقيتى .

رأيت أمامى فتى ضارب اللون إلى السمرة .. فى وجهه بشاشة ، وفى أسنانه ضحكة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وفى عينيه فرحة ، وفى برديه شباب ، وفى هرولته نشاط ، وفى مجموعه ذكاء .

فى هذا الشاب شىء لا أدريه على التحقيق يجذبك إليه .. ويخيل لك أنه

هو أيضاً مجذوب إليك .. فهل كان ذلك الشعور منى خاصاً فقط بشخصى أم أن كل من يلقاه يجد منه مثل الذى ألقاه ؟ لست أدرى .

انجاب عنى الشعور بالغربة ، ولا أجامل أحداً إذا قلت إنى أحسست ساعتئذ أنى بين أهلى فى (سواده) — قريتى — وفى (المنيا) — إقليمى — لا فى (القاهرة) عاصمة بلادى .

أحسست أنى بين أهلى فى صعيد مصر .. أو أنى عائد من رحلة طويلة إلى مسقط رأسى لأريحه فوق التربة الزكية التى استقبل الدنيا فوقها .

كنت سعيداً بهذا اللقاء سعادة أنستنى قصة أسنانى .. ولا أدرى إن كانوا قد تنبهوا على الفجوة فى فمى أم لم يتنبهوا .. ولا أدرى هل أحسنت الحديث — وكنت رهين اللثغتين — أم لم أحسنه .

سليمان الحمد والصبان :

وكل الذى أدريه أن عبد الله بالخير لم يدع لى وقتاً أفكر فيه ، وإنما جذبنى من يدى قائلا :

— تعالى يا أخى محمد . . الشيخ سليمان الحمد يريد أن يراك وينتظرك بفارغ الصبر .

وفى نفس الجو وبنفس الحرارة كنت أعانق شاباً يفيض رجولة — ملء الجسم واسع العينين مبسوط الوجه ضاحك الثغر مشبوب الترحيب — فأحست من القلب أنى بين قوم يحبوننى من القلوب ، وأقبل الشيخ محمد سرور الصبان يصافحنى مصافحة الصديق القديم ولم يكن فى حاجة طبعاً إلى من يقدمنى إليه وقد زرته فى بيته كما حدثتك قبلا .

وقال الشيخ سليمان إنه سيرانى بعد الحج طبعاً وسيرانى كثيراً .

ومال الشيخ عبد السلام إلى أذنى وقال هامساً :

— امنحنى ثلاثة أيام أراك بعدها كل يوم فى الفندق .

وكنت قد قدمت صاحبى الشيخ إليهم جميعاً ورحبوا به ترحيباً .

فى حضرة ولى العهد :

واجتذبنى « بالخير » من يدى ووضع ذراعه تحت إبطى واندفع إلى حيث الأمير « يومئذ طبعاً » لأرفع إلى سموه تهانئى وصب فى أذنى خلاصة ذكية وسريعة للتقاليد المتبعة .. حتى إذا دلفنا إلى قاعة التشريفة الكبرى لم « بلخير » أطراف عباءته وهرول أمامنا صوب الأمير .. فوقف الأمير لاستقبالنا فاسرعنا الخطى نحو سموه .. فانحنى « بلخير » وهو يقول للأمير :

— الأستاذ محمد السوادى صاحب جريدة السوادى .

ورأيتنى أصافح سعود بن عبد العزيز لأول مرة .

ودار رأسى أو كاد يدور .

كنت أعرف أنى سألقى « سعود » فى زيه العربى النظيف البسيط .

وكنت أعرف صورته التى نشرتها فى جريدتى أكثر من مرة .

وكنت قد عرضت لشخصيته بالتحليل على ضوء دراساتى له — من أعماله وخطبه وصوره — ومن غير أن أراه أو ألقاه .

ولقد قيل لى فى القاهرة ومن سعوديين كبار إنى أجدت تصوير شخصية الأمير .

ومع هذا الثناء الذى أخجل تواضعى أشهد أن كل ما كتبته عن سعود انهار أمامى وتوارى عنى وأنا أصافح الرجل .. ثم وأنا أحدق فيه .. ثم وأنا أستأذنه فى أن يأذن لنا فى الانصراف .. ثم وأنا أصافحه مودعاً .. ثم وأنا ألقاه مرة أخرى بعد الحج مهنئاً سموه بالقيادة العليا التى تنازل عنها جلالة الملك عبد العزيز لولى عهده .

إن شخصية جديدة للأمير سعود طالعتنى من خلال هذه المقابلات التى حظيت بها وهذه الدقائق التى قضيتها معه . . شخصية تعيد إلى الأذهان الجلال فى بنى العباس والتقى فى صدر الإسلام . . مقرونة بالحضارة الحديثة فى هذه الأيام . . يزينها تواضع مهيب وإيناس حبيب وبسطة فى الجسم تشير إلى القوة . . وحركات متحفظة تذكرك بأنه ملك .

تناولنا القهوة العربية . ثم جاءتنا أكواب عصير البرتقال ثم استأذنا فى الانصراف فأذن . . وابتسم وودع . . ليجىء الفوج الذى يلينا . . ثم خرجنا لنوادع الصحب ولنتفق معهم على أن نلقاهم بعد أيام الحج الثلاثة الباقية .

وتحللنا وعدنا :

وواضح أننا كنا قد تحللنا من ملابس الإحرام قبل أن نتوجه إلى قصر الملك لنهنىء ولى العهد بالعيد الأكبر . . كنت أرتدى سترة من (الشاركسكين) الأبيض وبنطلوناً من الصوف (الرمادى) وهو اللباس الصيفى الشبيه بالرسمى وكان صاحبى الشيخ يلبس جبة سوداء تحتها (قطنية) جميلة . . وهما اللباس الرسمى للتشريفات أيضاً على الطريقة المصرية على الأقل .

عود للوزير :

وقد علمنا من السائق فى أثناء عودتنا من القصر إلى الفندق أن (للوزير) قصراً فى منى ، وأنه لابد أن يكون يومئذ فيه ، وكلمة (الوزير) كما قلت لك قبلا لا تعنى إلا الشيخ عبد الله السليمان (وزير المالية والاقتصاد) فرأينا أن نمر بمعاليه لنترك بطاقاتنا مهنئين بالعيد .

وفى الطريق كنا نسأل الشرطة عن بيت الوزير وأحياناً كنا نسأل السابلة من الأهلين فكان الجميع يقولون لنا فى بساطة لطيفة (تريدوا بيت عبد الله السليمان ؟) ويرشدوننا إليه .

(بيت عبد الله) مجردة من كل رتبة أو لقب .

ظاهرة حيبة تتلقاها أذناك فى كل مكان كلما سألت عن شخص بالغاً ما بلغ قدر هذا الشخص . . لا بك ولا باشا ولا معالى ولا سعادة . أنه (بيت عبد الله السليمان) وكفى . . ولعل هذه الظاهرة إحدى الفضائل التى خلفها صدر الاسلام حيث أشرق وقام .

الشعوب الاسلامية :

وقبل أن نودع مُنى إلى مكة لنطوف طواف الإفاضة ونختتم شعائر الحج يهمنى أن أقول لك شيئاً عن الشعوب الاسلامية . . شيئاً عابراً لا أقصد به إلى الدراسة وإنما أسجل فيه مشاعر خالجتنى وحقائق تستأهل أن تسجل . .

فى مُنى وعرفات والمزدلفة ومكة يجتمع نصف مليون من البشر . . يستحيل عليك أن تجتمع بمثل أجناسهم وبيئاتهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ولو كنت تملك مئات الملايين من الجنيهات ونفوذ الملوك والأمراء وضربت فى فجاج الأرض عمراً . . وذرعت الكرة الأرضية طولا وعرضاً .

أجل . . .

ليس هناك جنس واحد فى أى أقليم من الأقاليم فى أية دولة من الدول بل فى أى مجهل من مجاهل الدنيا إلاومنه هناك نساء ورجال وشيوخ وأطفال.

هنا تلتقى بالعالم الإسلامى كاملا غير منقوص ، وهنا تدرس كل البيئات والأجناس ولا يعجزك غير جهلك باللغات.. وأعتقد أنى بلغت من هذه الدراسة المبلغ الذي وسعنى ، وواضح أن هذه الدراسة تتطلب المجلدات الضخمة وكل الذى أحب أن أثبته هنا أسف عميق على تخلف هذه الأمم ، أو قل أن البون بين مستوانا نحن المصريين (وبرغم شكوانا من هوانه) وبين مستوى الكثرة من هذه الأجناس . . أكبر بكثير جداً من البون بين مستوانا ومستوى الشعب الأمريكى ، أو البريطانى .

أتريد مثلا يقرب إلى ذهنك الحقيقة ؟

قلت لك أن غرفتنا فى الفندق كانت تطل من إحدى جهتيها على (زقاق) يغلقه المبنى المعد (لتكية الطائفة الاسماعيلية) فى منى ، وفى هذا (الزقاق) صنبور ماء من الصنابير التى أعدتها الحكومة ليشرب منها الحجيج مجاناً ، ولكن هناك طوائف من حملة القرب يظلون طول يومهم يتشاجرون حول الصنبور ويتزاحمون على صورة مروعة يدوس القوى خلالها الضعيف ويهين الصبيان الشيوخ حتى يرخى الليل سدوله وتهدأ حركة الزحام ، ولو أنهم لا ينسون وهم يتماسكون ويهمون بالتضارب أن يقول أحدهم (صلوا على النبى) فيكفوا عن الضرب ... وباعث الشجار أن هؤلاء الفقراء يملأون هذه القرب ليبيعوها للحجاج فى دورهم لقاء بضعة قروش ... فإذا أرخى الليل سدوله خرج أفراد الطائفة الاسماعيلية لاحتلال هذه « الحنفية » أو هذا الصنبور .. ليغسلوا ثيابهم وليغتسلوا عرايا فى الطريق العام ... وعلى مرأى المارة من الرجال والنساء ... وعلى الصورة التى كان يعيش عليها ابن الغابة فى مستهل الوجود الإنسانى ، وفى بدائية باردة لا تميز الحسن من القبيح ، ولا تعرف ما نسميه الحياء ، وتدهش وأنت تسأل : أهؤلاء مسلمون ؟ وهل سمعوا يوماً عن الإسلام وما أرسى من قواعد للمجتمعات وما رسم من حدود للاستحياء ؟ ثم هل نسأل بعد هذا : كيف استعمر الغربيون بلاد المسلمين ؟ طائفة الاسماعيلية المهلهلة الثياب هذه هى التى تهدى إلى زعيمها فى أعياده مثل وزنه ذهباً ومثل وزنه ماساً .

إلى مكة :

والآن دعنا نأخذ طريقنا إلى مكة ، ولا محل لأن أتحدث إليك عن الشياطين الثلاثة التى حصبناها بالحصى ... فقد سبقنى إلى الحديث عن شعائر الحج عشرات من الكتاب ، وحسبى أن أثب بك إلى إفاضة الطواف ولنتم شعائر الحج ، وحسبى أن أثب بك بعد الإفاضة إلى فندق التيسير فى مكة بعد إذ أصبحنا حجاجاً .

الفصل الرابع

قصة الفنادق

ويخيل لى أن بك رغبة ملحة فى أن تعرف شيئاً عن الفنادق فى البلاد السعودية . وأن هـذا قد ينير الطريق أمامك إن أنت شددت الرحال يوماً إليها حاجاً أو معتمراً .. أو تاجراً أو موظفاً .

(١) فى مكة الفندق الفاخر الفخم « فندق الزاهر » الذى نزل عليه اللواء محمد نجيب فى هذا العام .. ولم ينزل عليه سواه .

(٢) وفى مكة « فندق مصر » وله فى مصر اسمه وسمعته .. وجل المصريين ما يزالون يعتقدون خطأ أنه ملك (بنك مصر) وأن البنك هو الذى يديره .

(٣) وفى مكة « فندق التيسير » الذى نزلنا عليه .

ولكل فندق من هذه الفنادق قصة أحب أن تلم بأطرافها .

فندق الزاهر :

كان جلالة الملك عبد العزيز قد بنى على أثر زيارته لمصر وعلى مشارف أم القرى قصراً فخما طبق الأصل من قصر الزعفران فى القاهرة ، وأسماه قصر « الزاهر » .

وكان الملك عبد العزيز قد تأثر من جلال الاستقبال الذى لقيه من مصر — حكومة وشعباً — وآمن بأن خير العروبة فى توثيق الصلات بين بلاده ومصر زعيمة الشرق العربى فأراد جلالته أن يقول التاريخ يوماً أن العاهل الكبير ذهب فى التكريم لمصر والمصريين إلى الحد الذى يقيم على ربى مكة قصراً على هذا النحو للذى كان مفروضاً يومئذ أنه يرمز لمصر ، وعين صديقنا

الشيخ عبد السلام غالى مديراً لهذا القصر ، وكانت لفتة بارعة من العاهل أن يعين هذا الرجل فى هذا المنصب .. لا لفضله فحسب ولا لما عرف عنه من إحسانه استقبال الضيوف فحسب .. وإنما لأنه (مصرى الأصل) .

وشاء الله أن ينصرف فاروق عن هذا « الواجب العربى » الكبير .. الذى يحمل معه ركناً من أركان الدين .. فلم يرد الزيارة لصاحب القصر ..

فى تلك الفترة رأى وزير المالية السعودية — الشيخ عبد الله السليمان — أن رؤساء الدول فى حاجة إلى قصر يماثل « قصر الزاهر » ينزلون عليه ضيوفاً إذا هم حجوا بيت الله . فاستأذن الوزير فى تخصيص بيته الفخم الكبير .. القريب من فندق التيسير .. لهذه الأهداف .. وأن يجعل منه فندقا للأثرياء من الأضياف .. فالكبير المدعو ينزل عليه ضيفاً ، والكبير غير المدعو يجد فيه فندقاً .. وأذن الملك فى تحقيق هذا الهدف وأطلق على بيت الوزير « فندق الزاهر » على غرار (قصر الزاهر) ويمتاز عن فندقى « مصر والتيسير » بأنه مكيف الهواء فاخر الرياش .

ولكن يبدو — وقد قامت الثورة فى مصر ورحل الملك السابق إلى إيطاليا — أن النية انصرفت إلى تخصيص (بيت الوزير) لرؤساء الدول فقط .. لأن أحداً من أثرياء الحجيج لم يجد فيه هذا العام فندقاً .. وإنما فتحت أبوابه لإستقبال الرئيس اللواء محمد نجيب ولم يستقبل بعده أحداً .. ونزل أمير الحج المصرى على « فندق مصر » كما نزل عليه كبار الحجاج وزعماء المسلمين .

وهذه هى قصة « قصر الزاهر » و « فندق الزاهر » .

فندق مصر :

أما فندق مصر فكانت له المرتبة الأولى مذ تعاون طلعت حرب وعبد الله السليمان على إنشائه ومذ تولى المقاول المصرى محمد حسن العبد هذا الإنشاء ،

وتولى (بنك مصر) إدارته فى براعة ومهارة .. واختير له شاب من الشبان المصريين تخصص فى دراسة الفنادق فى سويسرا .

فندق مصر بمكه

وكان الاتفاق بين المرحوم طلعت حرب والوزير عبد الله السليمان قد تم على إقامة فندق مماثل فى جدة وفندق ثالث فى المدينة ولكن المؤامرة التى حيكت حول زعيم مصر الاقتصادى فنحته عن إدارة البنك .. «وفقت» فى نفس الوقت إلى التخلص من الإدارة المصرية لفندق مصر فى مكة .. ولما كان الفندق من الناحية المالية قد أقيم بأموال الوزير السعودى فقد تقدم إليه أحد أصحاب الملايين من السعوديين وهو (صدقه كعكى) يرغب فى شرائه .. وتمت الصفقة وأصبح « فندق مصر » الآن فندقاً مصرياً بالسمعة والاسم .. وفندقاً سعودياً باللحم والدم .. وإن كان الشاب المصرى الذى يديره ما يزال قائماً على إدارته يعاونه مواطن سودانى .

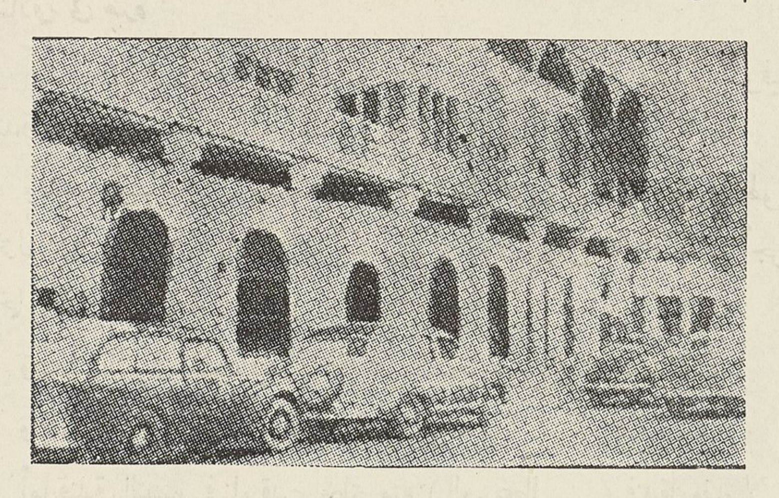
ويمتاز الفندق أول ما يمتاز بالجيرة الهانئة للحرم .. فالنازل فى « فندق مصر » يسمع الأذان فى المسجد الحرام ويؤدى الصلاة فى غير عناء .. ويتردد على البيت العتيق فى أى وقت يشاء .. وهذه ميزة كبرى .

والميزة الأخرى .. حسن الإدارة فيه .. والمشرفون مصريون وسودانيون .. والخدم مدربون .. وداخل كل حجرة نوم حجرة حمام كامل .. وتهوية بالمراوح .. إذا قيست غرفات الفندق بالغرفة التى استرحت فيها يوماً .

أما مساوئه ففى جوه لأنه قائم فى حضن الجبل .. فالشمس تصليه طول اليوم ناراً .. وان كان يلطف من الحرارة فيه عناية الفندق بالتهوية .

فندق التيسير :

أما فندق التيسير فأكبر ميزة فيه وقوعه فى ضاحية (الجرول) وهى بالنسبة إلى مكة . . كمصر الجديدة أو (العباسية) على الأقل بالنسبة إلى القاهرة . . فالجو فيه لطيف ، وما أحوج الحجيج إلى لطف الجو فى موسم الحج .



فندق التيسير بمكه

وكان فندق التيسير إلى وقت قريب يحتل المرتبة الثالثة بين الفنادق الثلاثة . . ولكن يد الإصلاح والتجميل امتدت إليه . . فأقامت غرفاته على الطراز الحديث ، وأقامت خلفه حديقة بلغتنا وبستانا بلغتهم ، وفيه يحلو سهر الحجيج ويطول سمرهم . . وإليه يفزعون بفراشهم كلما اشتدت حرارة الجو .

على أن مساوىء فندق التيسير وجود (ماكينة نور) فيه ترسل إلى الآذان ضجيجها . . وتتقاضى من الأعصاب ثمناً فادحا للإنارة على النقيض من (فندق مصر) الذى يملك آلة مماثلة لا تسمع لها حسا .

وفندق التيسير برغم يد الإصلاح والتجميل ، لا يزال أقل عناية بالرياش والنظام من (فندق مصر) وإن كان موقعه يرقى به إلى الوقوف معه جنباً إلى جنب ، بل إلى التفوق عليه من حيث الجو وأثره فى الأعصاب ، ولهذا تساوت أجور الفندقين ، وهذه المساواة فى الأجور اعتراف فعلى بالمساواة فى المرتبة .

وللحكومة الحق دائماً فى إنزال ضيوفها على أى الفندقين . . وتسوى حساباتها معهما بعد انتهاء كل موسم .

الفنادق فى جدة :

أما الفنادق فى جدة فمنها طبعاً فندق التيسير وفندق الشرق وفندق التوفيق وفندق البساتين وليس لفندق مصر فرع كما سبق القول .

وفندق البساتين فى جدة يماثل (فندق الزاهر) فى مكة مكيف الهواء وينزل عليه رؤساء الدول وزعماء المسلمين الضيوف ومن شاء أن يدفع أجراً ضخما يماثل أجر (فندق الزاهر) فى مكة .

وفندق الشرق تغلب فيه الأناقة على الضخامة ويمثل المرتبة الثانية .

وفندق التوفيق يمثل الدرجة الثالثة .

أما فندق التيسير فبناء قديم خلق منه (العم عطا . .) فندقا مقبولا بما أدخل عليه من تحسينات ولكنها تحسينات العطار الجبار يقاوم بها ما أفسد الدهر .. فلا سبيل إلى تغيير فى أوضاع السلم الصاعد من هنا والآخر الصاعد من هناك — والغرفات المتداخلة التى تصل إلى الواحدة منها باجتياز الأخرى فتصبح هذه ممراً وتصبح تلك محبسا — ولابستان يشبه أخاه الجاثم فى ضاحية الجرول بمكة .. لأن التيسير فى جدة يقع على الشارع الرئيسى فيها فلا فسحة فيه ولا فضاء حواليه .. وخير ما يصنع لهذا الفندق أن يهدم من الجدار وأن يقام من جديد (وسيرى حجاج العام الجديد ١٩٥٤ فندق الكندرا الفخم الجديد أقامته شركة مصرية سعودية لتزاحم به فندق البساتين) .

وجدة التى وثبت فى ست سنوات بفضل عبد العزيز وسعود والأعوان من ميناء قديم مخرب يقطنها خمسة وعشرون ألفا إلى ميناء جديد عالمى يقيم فيها ربع مليون من الأنفس . . جدة هذه فى حاجة إلى فنادق أرقى وأرخص .

المدينة المنورة :

أما المدينة المنورة فليس فيها غير فندق التيسير الذى يملكه (العم عطا) نفسه ويديره ابن أخيه . . ويضم هذا الفندق مئات الحجرات ولكن المبنى أثرى قديم عاصر الأتراك وغير الأتراك وكان فى الأصل ثكنات للجيش الذى كان يقوده فخرى باشا أيام الحكم العثمانى ولم تكن به حمامات .. ولا أية منشأة حديثة ولكن (العم عطا) استطاع أن يزحف بالإصلاح إلى مبنى غير قابل للإصلاح فأنشأ (حمامات) تشترك فيها بعض الغرف ولم يستطع أن يفرق بين الغرفات فلجأ إلى المساواة فى الرياش والأثاث فلم تعد هناك درجات متفاوتات .

على أن المدينة المنورة فى حقيقتها ليست فى حاجة ملحة إلى الفنادق حاجة مكة أو جدة لأن أهل المدينة مضيفون مثاليون وبيوتهم نظيفة وكريمة ومعدة دائماً لاستقبال الحجيج .

وأهل المدينة يغلب عليهم طابع صدر الإسلام فالنازل عليهم يلقى الأخوة والبشاشة والإكرام .

وعلى ضوء هذه الحقيقة لا أطالب بالمزيد من الفنادق وإن كنت أطالب يد (العم عطا) السحرية أن تزحف بمزيد من الإصلاح إلى فندقه .

فى الطائف :

أما الطائف — مصيف المملكة الفاتن — فتقع على ارتفاع شاهق وفيها الخضرة والعيون والزرع والنخيل والماء السلسبيل والهواء العليل فلا تتطلب فى هجير الصيف أى تبريد ولا تعرف (الثلج) الذى هو ترياق مكة وجدة

ومع ذلك ليس فيها غير فرع متواضع لفندق التيسير .

وأنا لم أزر الطائف برغم وجود جلالة الملك عبدالعزيز فيها وبرغم رغبتى الملحة فى أن أملأ عينى من الرجل الذى صنع بيديه تاريخ الجزيرة.. وقد حرمت نفسى هذه الأمنية الحبيبة تلافياً لما عسى أن يلحق بسمعتى بعد أن سبقنى إليها من سبقنى من بعض « المواطنين » وترامت إلينا أنباء تصرفاتهم فلم يكن بد لكى أحفظ كرامتى من التضحية بأغلى الأمانى عندى . . وهى زيارة الطائف بل زيارة الملك .

ونعود إلى فندق التيسير فى (الطائف) — لقد قيل لى إنه شىء أبعد ما يكون عن الراحة وإن المصيف فى حاجة إلى فنادق نظيفة أخرى . ولكن يبدو أن الحركة فى الطائف لا تشجع على مغامرات أصحاب الفنادق . لأن أحداً لا يزورها من الحجيج إلا بعض النابهين إن حل بها الملك أو ولى العهد . . وهذا الحلول غير مكفول فى كل عام ، وإن كانت (الطائف) قد ظفرت بهذا الحظ فى هذا العام وطاب للملك أن يطيل فيها المقام .

والآن نعود :

والآن نعود إلى فندق التيسير فى مكة حيث نعتزم أن نقيم ، وكان الشيخ عبد السلام غالى — بوصفه مدير الضيافة — قد مال إلى أذنى ونحن فى القصر الملكى بمنى ثانى أيام الأضحى وقال لى :

— ستذهبون الآن إلى فندق التيسير فاحتلوه ثلاثة أيام حتى ألحق بكم وأعد لكم مكانا أكثر لياقة .

وشكرنا للشيخ هذا الشعور المنطوى على التقدير ، وقلبنا الأمر على مختلف الوجوه ، فاستبعدنا (فندق الزاهر) بعد أن قيل لنا إن أحداً غير الرئيس محمد نجيب لن ينزل عليه فى هذا الموسم .

وإذن فالشيخ لا يعنى إلا أن ينتقل بنا إلى (فندق مصر) حيث ينزل

أمير الحج المصرى وبعثته .. وحيث ينزل أصحاب الأسماء اللامعة من زعماء الحجيج ولكن . .

ماكدنا نبحث الأمر حتى اعتزمنا أن نعتذر من عدم استطاعتنا الانتقال إلى (فندق مصر) لأن « التيسير » فى ميزاننا أكثر رجحانا وأخف ظلا . . وألطف هواء . . وأدنى إلى الجو الريفى السمح الذى نحبه ونركن إليه .. إنه فى ضاحية كما قلت لك .. وفيه بساتين نمرح فيها أحراراً .. وفيه الصحفيون المصريون الذين ألفوا أن يحجوا فى كل عام ، وبنا رغبة فى الوقوف على أحوالهم .. وليس فى (التيسير) بعثات أو هيئات أو زعماء يستتبع وجودهم مراعاة بعض القيود والقيام ببعض المراسيم التى أنفر منها بطبعى .

صح العزم منى إذن أن أعتذر للشيخ عبد السلام عند ما يهم بمفاتحتى فى تغيير الإقامة ، ولكن الشيخ أعفانا من مهمة الاعتذار لأنه لم يكلف نفسه مشقة العرض الجديد علينا .. وحسنا فعل .

المطوف الصالح :

وكان همى الأول على أثر عودتى إلى مكة واستقرارى فى الفندق أن أستخدم العربة التى وضعت تحت تصرفى طوال مدة إقامتى فى البيت الحرام فى أثناء الليل وفى أثناء النهار عسى أن أهتدى إلى (المطوف الصالح) لأدفع إليه بالأجر الذى له فى عنقى . .

ويا عجبا للمطوف الصالح . . عثرت على المحترفين من أهل مكة جميعاً حتى الصبية الذين لا يجاوزون الأحد عشر عاماً والذين يتصيدون الزنوج أو عشرات الهنود يرددون من خلف الصبية ما يقولون غير مدركين . . إلا مطوفى الصالح فلم أقف له على أثر .

والمضيف المصرى :

ولكن يحضرنى فى هذا المقام حادث يستأهل التسجيل حقيقة :

فقد حدث ونحن عند طبيب الأسنان أن جاء المغرب ونحن على مقربة من الحرم وطاف بذهنى أن نؤدى هذه الصلاة فيه . . رجاء أن نخرج منه إلى بيت الشيخ عبد السلام عسى أن يكون قد عاد من جدة إلى مكة لنسلم عليه ونحييه . وبعد الصلاة أخذنا طريقنا إلى الخارج وقبالة الحجر الأسود أو الأسعد .. وفى الصحن الفسيح الملئ بمختلف الأجناس .. لاح لنا من بعيد أحد الصالحين فى حالة استغراق صوفى عجيب .. فهالتنا روعة استغراقه ولم تتبين ملامح وجهه لأنه كان فى جلسته يولينا ظهره .

وما كانت أشد دهشتنا ! أن كان الرجل الغائب عن الوجود هو صديقنا الذى أريد أن أزوره . . الشيخ عبد السلام غالى .. ومن ذلك الوقت آمنت بأن الرجل ضارب فى « الحقيقة » بسهم .

عزلة لا بد منها :

ومرة أخرى . أعود بك إلى « التيسير » .

ها نحن أولاء نحتل غرفة جميلة فى الطابق الأول نطل منها على البستان ونافورة الماء والنائمين الساكنين الذين لا يطيقون الحرارة فى الحجرات فيهجرونها ومعهم فراشهم إلى مماشى البستان ، يتوسطهم سرير صغير أنيق يأوى إليه (العم عطا صاحب الفندق) إذا ما جن الليل . . فيذكر الله من داخل « الناموسية » كثيراً ويسبحه طويلا .. حتى يدركه النوم فينام .

وها نحن أولاء نعرف أن للطعام « صالة » أو قاعة مستطيلة وإن الطهاة مصريون من طهاة الطبقة الوسطى وأن هناك « صينية » من النحاس يوقع عليها أحد الصبية طرقات معينة فى أوقات الافطار والغداء والعشاء فتدور فى جنبات الفندق أصداؤها ذات الرنين تدعو النازلين إلى الطعام .

والجو فى مكة هذا العام ، كان معجزة من المعجزات .

قال لنا أهل مكة وجدة أن أحداً من المعاصرين لا يعرف عاماً رق فيه

الجو وراق .. كهذا العام .. فتباركت يا رب .. لمن من الحجيج كان هذا الإكرام البهيج؟ هو وحده يعلم .

عظيم . . عظيم :

وها هم أبناء الصحافة يدعوننى إلى المكان المختار لهم فى البستان لنسهر ونسمر . . فهل أحقق مطلبهم أم أظل بمعزل عنهم حتى أعرفهم ؟

وضعت هذا السؤال نصب عينى . وعنيت بالإجابة عنه قبل أن ألبى مطلبهم . . فمنهم من لا أعرفهم ومن لم أسمع بأسمائهم قبلا .. وهم هنا فى مكة من قبل الحج بأسابيع فما هى أهدافهم يا ترى ؟ كل هذا لا أعرفه .

وإذن فعلى أن أعرف أولا .

وهكذا استطعت أن أجيب عن السؤال فأقرر الاعتزال . . أنا وصاحبى الشيخ .

وأدرك الأخوان — بعد محاولات جمة — أن لا فائدة من هذه المحاولات وأن الخير فى أن يدعونى وشأنى ، وقد احتلوا هم البستان الفتان داخل الفندق ، فلنقنع نحن بالبستان الصغير الواقع بمدخله والمفروش بالسجاد القديم الهادىء ، ولننقل إليه الوسادات القطيفة ليلا ، ولنبسط أجسامنا أحرارا فوق هذه البسط .

وهكذا عرف من فى الفندق جميعاً أننا — لسبب أو لآخر — لا نحب الاختلاط بأحد ، وأننا نحيى « الزملاء » كلما التقينا بهم عبراً ، تحية تمليها المجاملة ويقتضيها الأدب ولا شىء أكثر .

بعثة الأهرام :

وبعد يومين ، وفيما أنا وصاحبى الشيخ فوق هذه البسط ، إذا باثنين لا أعرفهما أقبلا علينا مسلمين ، وقدما لى نفسيهما وعرفت منهما أنهما من أسرة « الأهرام » الغراء .

و « الأهرام » جريدة كبرى كما تعلم والمندوب عنها لا بد أن يحترم .

قالا لنا : إن للأهرام فى هذا العام بعثة مؤلفة من ثلاثة ، وأنهم ليسوا من المحررين ، بل هم مندوبو إعلانات أوفدتهم جريدتهم لعمل عدد خاص بالمملكة السعودية فى هذا الموسم ، وأن الحظ لم يحالفهم والريح لم تهب طيبة رخاء بالنسبة إليهم ، وأنهم يعرفون عنى كل خلق وقد رأوا أن يلقوا بالعبء على عاتق ، ويطلبوا المشورة منى .

ورحبت بهما وسألتهما عن زميلهما الثالث : فقالا أنه من خريجى الجامعة الأمريكية الملحقين بقسم الإعلانات لكتابة صيغها ، وأنه منصرف عنهما إلى صحفى باكستانى قادم من لندن يطلب من الحكومة السعودية عونا ولا يتكلم العربية .

وطلبت إليهما أن يقصا على تفاصيل أمرهما وبدأ الاثنان يقصان .

قال أحدهما ، وقال الآخر ، وأقول أنا ، ملخصاً لك كل حديثهما ، أن قسم الإعلان فى « الأهرام » كان قد رأى أن يصدر فى موسم الحج هذا العام عدداً « خاصاً » ينافس به الأعداد الخاصة التى أصدرتها بعض الزميلات قبلا .

وقالا « الزميلان » أن الأمر كان قد عرض على أميرين كبيرين ذوى شأن ، عند وجودهما معاً فى القاهرة قبل موسم الحج بشهور ، وأن الأميرين رحبا بالفكرة أيما ترحيب ، وأصدرا إلى السفارة السعودية فى القاهرة تعليمات فى هذا الشأن ، وأن السفارة رحبت هى الأخرى بدورها ، وأن « الأهرام » على ضوء ذلك الترحيب القديم أوفدت اثنين « الزميلين » من أقدم المشتغلين فيها بقسم الإعلانات ، وزودتهما بالزميل الثالث الذى هو فى حكم المحرر ليتولى تحرير « الإعلانات التحريرية » وصياغة ما يحتاج إلى الصياغة .

وقال « الزميلان » أن ثلاثتهم جاءوا « طائرين » على نفقة « الأهرام » وأن الإدارة زودتهم بمبلغ من المال يكفى لإقامتهم وحفظ كرامتهم ، وأن القصير فيهم يتولى مهمة الصيرفة والإنفاق .

صعوبة المهمة :

وقال الزميلان : إنهما التقيا بالشيخ عبد السلام غالى وغيره من المسئولين السعوديين .. وفهما منهم أنهم خلاة الذهن من المشروع الذى سبق للأميرين الجليلين أن باركاه .. كما فهم الزميلان على ضوء خلو أذهانهم « أن الضيافة الرسمية » لم تعد حقاً من حقوق بعثة « الأهرام » وأنهما اكتشفا بعد فوات الوقت أن الإقامة على نفقة (الأهرام) فى فندق التيسير .. أمر جد عسير .. لأن الأجور من الغلاء بحيث تستنفد ما معهما من مال فى أيام .

وقال الزميلان أن الشيخ عبد السلام كان رقيقاً معهما كل الرقة .. وقد أفهمهما أن الأمر كله — ما جل أو قل — بيد سمو ولى العهد ما دام قد شرف أرض الحجاز ، ثم اقترح الشيخ الرقيق عليهما أن يبرقا إلى سموه تنويها بالمهمة وأن يرفعا إلى مقامه كتاباً بالمطالب .

وقال الزميلان أنهما والزميل الثالث كتبوا فعلا وأبرقوا إلى سموه وأنهم لم يتلقوا حتى الساعة رداً .. وأنهم فى القليل حيارى .. وهم لهذا ما كادوا يعلمون بوجودى فى الفندق حتى استبشروا خيراً وخفوا إلى .. لأنهم يحسنون الظن بى ، وقد رأوا فى لقاء الشيخ عبد السلام لى يوم زارنى ما فهموا منه أن الشيخ يولينى عناية خاصة يكفى بعضها لتيسير كل مهمتهم على عسرها .

وقلت لهما :

وقلت للزميلين — وكان صاحبى الشيخ يستمع للحديث — إنى على استعداد لعمل الممكن فى سبيل تيسير مهمتهما .. ولكن يحسن أولا أن يعرفا أنى إنما جئت حاجا لا صحفيا .. وأن الكرم الذى أحاطنى به بعض المسئولين هنا إنما هو كرم منهم لم أطلبه أصلا .. فلم يعد فى وسعى أن أعاونهما منطلقاً . وإنما أبذل عونى على قدر الجهد وبهذا القيد وداخل السياج الذى ضربته حول كرامتى حتى لا يلحق بها الغبار .

الصحفيون المصريون :

وأكد الإثنان أنهما ما تشجعا على الاستعانة إلا بعد أن رأيا بأعينهما من تصرفاتي استمساكي بهذا التحفظ .

ثم بدأ كل منهما ينافس الآخر فى سرد بعض التصرفات التى تورط فيها بعض المنتمين للصحافة المصرية حتى اضطرت بعثة الأهرام إلى اعتزالهم كما اعتزلتهم .

قال لى « الزميلان » :

ستجد هنا « فلاناً » وستجد هنا « علاناً » وستجد « ترتاناً » وستجد .. وستجد ، وأخيراً ستجد أخانا الذى كان ضمن الصحفيين العشرة الرسميين وتخلف فى المدينة وعاد إلى جدة ليحاول السفر إلى الظهران — وستجد هنا ملحقاً بهؤلاء الصحفيين أو أصدقاء لهؤلاء جماعات لا نعرف عنهم إلا أنهم مصريون أطالوا اللحى .

وبدأنا نصغى :

وبدأت أصغى إلى هذا العجب . كنت أعرف أن أحد من ذكر الزميلان أسماءهم صحفى قديم وأديب محدث وأنه يحفظ كثيراً من الشعر والنوادر والطرف وأنه سمير مقدور من الشيخ محمد سرور الصبان ، وأنه — أى الزميل — كان يعمل سكرتير تحرير لجريدة حزبية زالت بزوال حزبها .

وكنت أعرف أن هذا الأخ — وهو محبوب منى — ظفر من سنين بلفتات من الحكومة السعودية ، فسألت إن كان قد نزل هذا العام أيضاً على ضيافة هذه الحكومة ، فقيل لى أنه دعى من السيد سرور وأنه نزل على فندق التيسير ضيفاً على الشيخ لا على الحكومة ، وأنه — أى الزميل — حرص على أن يصون كرامته وكرامة داعيه .

وعلى ضوء هذه البيانات لم أكن أضيق بالأخ كلما حاول أن يجالسنى أو يتحدث إلى .

مجلة هندية :

وعرض الزميلان لأخ آخر أعرفه من قديم .

لقد كان مخبراً فى (دار أخبار اليوم) ثم ترك عمله فيها والتحق بمجلة شهرية تصدرها السفارة الهندية فى القاهرة .

وقد سألت زميلى مندوبى الأهرام عن الدور الذى يقوم به هذا الأخ فى هذا العام فقيل لى أنه اتفق مع هذه المجلة الهندية على إصدار عدد خاص منها عن المملكة السعودية وأنه استعان على هذا العدد برفقة (السيد ذى العقال والعباءة) وهو فلسطينى قديم كان قد شغل منصباً كبيراً فى حكومة السعوديين.. ثم وضع شجرة النسب لملك شرقى معزول .. ثم أجرت عليه الحكومة السعودية معاشاً شهرياً يعيش به وهو مقيم بمصر إقامة دائمة ، وأن أخانا المصرى رأى فى وجود الفلسطينى معه نجاحاً مكفولا للعدد الخاص فجاء الإثنان . وطوفا بكل مكان ، وما يزالان يطوفان التماساً للتوفيق . وهما الآن يذرعان المملكة طولا وعرضاً ، ويعبرانها شرقاً وغرباً ، وإن كان اسم المجلة التى يمثلانها .. لا يعاون كثيراً على نجاح مهمتهما .

ثم حدث :

ثم حدث بعد جلستى مع زميلى (الأهرام) ان ظهر هذا الأخ المصرى فى الميدان .. فسلم على . ثم انتهز فرصة انفرادى ليلا فطلب أن يخلو بى فرحبت به وبدا يقول :

ـــ لعلك علمت أن لى صلة قديمة بهذه المملكة وإن جل الحاكمين أصدقاء لى شخصيون وإنى أعمل هنا مع (السيد الفلسطينى) . بمحض جهودى لأن المجلة التى أمثلها لا أصدقاء لها .. أما وقد جئت أنت وشخصك محترم

ومعروف وودنا قديم وموصول .. فأحسب أن من الخير أن نتكاتف وأن أحول مجهودى من المجلة الهندية إلى (السوادى) فما رأيك ؟

واستمعت إلى العرض الذى ساقه بعباراته الرقيقة .. ثم ابتسمت وقلت :

— أظن نرجىء هذه المهمة إلى العام القادم إن شاء الله .

— لأى سبب ؟

— لسبب بسيط . . وهو أنى جئت أحج البيت وليس فى نيتى أن أقوم بأى نشاط صحفى ، وزيارتى هى الأولى لهذه المملكة وحاجتى ماسة أولا إلى التعارف برجال هذه الحكومة على أساس خال من شوائب الغرض ، وماسة ثانية إلى دراسة هذا البلد ، فإذا توطدت بينى وبينهم الصداقة كان فى الوسع أن يتصل قسم الإعلان فى السوادى بالأسواق فى جدة ومكة على مهل ، وداخل التقاليد المرعية فى العمل ، إن لم يكن هذا العام ففى مقبل الأعوام . . وأنهيت الحديث فانصرف عنى الأخ (غير ممنون) على حد تعبير الصحفيين اللبنانيين .. ثم ظهر الأخ والفلسطينى ومعهما مصور ظريف .. ألف أن يحج إلى المملكة كل عام .. فأدركت أن الثلاثة اتفقوا على التعاون ثم اختفوا فعلا ، ولم نعد نسمع عنهم شيئاً .

والموظف :

أما هذا الجديد فلافت الشخصية غريبها ، لم أره من قبل وقيل أنه موظف فى إحدى مصالح الحكومة المصرية أو كان موظفاً . وهو يعرف القراءة والكتابة على ما لاح لى من حديثه .. ولهذا آثر أن يتخصص فى شئون البلاد العربية السعودية . . فمثل مجلة يصدرها صاحب مطبعة فى القاهرة . . لتنطق كما يقول بلسان العروبة والإسلام .

ولكن الأخ (الموظف) حملته الحياة فيما خيل إلى على احتراف الصحافة لأن الرزق عن طريق الصحافة رزق سهل وميسور ، وما عليه إلا أن يحج البيت

فى كل عام ، وللناس كما لا بد أن تعلم منافع من الحج ، وأن يحقق إحدى حكمه .

وأخونا (الموظف) جم النشاط كثير الطواف . يبارح الفندق فى الصباح . وقد لا يعود إليه إلا فى المساء .. فهو والحق يقال « من المنتجين » وما أيسر أن يذهب كل يوم إلى جدة ويعود إلى مكة .. وأكثر من مرة إن اقتضى نشاطه هذا الطواف .

ويبدو على بساطة شخصيته أنه ربح من السعوديين أصدقاء كثيرين .. لأن شباناً صغاراً من طلاب العلم كانوا يجيئون إلى الفندق فى عرباتهم (الملاكى) للسؤال عنه ، وكانوا يدعونه للغداء عندهم .. ويدعون من يجدونهم من الصحفيين معه .. وقيل إن من بينهم أمراء من عائلة السديرى التى تحكم المدينة ، وهى صداقة تدل على أنهم ينظرون إلى أخينا نظرة « توقير ؟! » .

بيد أن الشائعات التى لا ترحم أحداً فى مثل هذا الموسم قد أحاطت ببعض إخواننا المنتمين إلى الصحافة ، حتى لقد قص على سعودى كبير قصصاً تناهت فى الغرابة ولا أحب لها أن ينطوى عليها كتابى ، ولكن المهم أنه قال لى أخيراً :

— قل لى بالله ماذا نصنع فى مثل هؤلاء ؟ ..

وهززت رأسى وقلت : أنتم المسئولون ، وسألنى : « كيف » فأجبت فى صراحة .. إنكم تعرفون كل الصحفيين ولكم سفارة وفيها عيون .. فكونكم ترحبون بهذا الطراز وتفتحون لأفراده صدوركم ثم تحملون الصحافة أخطاءهم ظلم غير هين أو على الأقل خطأ بين كما ترى .

وصاح السعودى :

— إذا لم نكرمهم شتمونا .

— وصحت بدورى :

— وإذا لم ترخصوا لهم بالقدوم انقذتم أنفسكم وأنقذتمونا .

وقال الرجل :

— لماذا لم تمنعهم نقابتكم ؟

وقلت للرجل : إن النقابة لا تعرفهم . عاملوهم بجفوة ينفضوا عنكم .

— وإذا انقضوا ولم ينفضوا ؟

— لن يجدوا لهم فى مصر صدى ولا فى الصحافة سامعاً . بل فى وسعكم أيضاً الاتصال سنوياً بالنقابة لاختيار من يمثلون الصحف الكبرى من طراز رفيع ثم لا تعترفون بعدها بغيرهم .

وابتسم الرجل لأنه يحس فى نفسه بحقائق قد يعجزه التدليل عليها ثم هز رأسه وقال :

— والله « برضه » سيجيئون هم أنفسهم وسنرحب بهم حياء منا .

— تحملوا إذن مسئولية حيائكم .

مندوب الوكالة :

أما صاحبنا الذى أوفدته وكالة أنباء عالمية أمريكية فقد تخلف عن زملائه فى المدينة وعاد إلى جدة يريد الإذن له فى أن يطير إلى الظهران ليثب منها إلى الكويت والبحرين .

عاد إلى جدة مرة ثانية ، ثم علم بوجودى ، ثم قيل لى أنه يسأل عنى . وأخيرا هبط على فإذا هو الآخر قد أمسى ذا لحية كثة سوداء داكنة ، تملأ كل وجهه .

وأحب أن أقف عند هذه النقطة قليلا .

فقد جرت عادة السعوديين على أن يطلقوا لحاهم عند الذقن المدبب

إطلاقا رقيقا متواضعا . ولكن بعض من يترددون على الحجاز من المنتمين للصحافة يسرفون فى مجاملة السعوديين ، ويطلقون لحاهم كاملة إلى الفودين ، وفى غزارة تسترعى النظر ، فإذا مابلغوا الطور عائدين ، أزالوها غير آسفين ، ولعلك تأسف أنت .

وأعود الآن إلى الأخ الذى يمثل وكالة الأنباء .

هبط على وسلم ، والشرر يتطاير من عينيه . وبدأ يقص كل أمره .

قال إن وكالة الأنباء التى يعمل بها اتفقت مع أرامكو (شركة الزيت العربية الأمريكية) على أن يزورها وجاء يطلب الإذن له فى السفر إلى الظهران من المملكة السعودية فأذنت له ولكنها لم تمنحه أمر إركاب (أى تذكرة سفر مجانية بالطائرة) وأن هذا التصرف يراه الأخ غير كريم من جانب السعوديين وإهانة له بل ولجميع الصحفيين .

وقلت للأخ فى هدوء : وكالتك أولا عالمية وأمريكية وذات ملايين ، و (أرامكو) ثانيا شركة عالمية وأمريكية وذات ملايين ، والإنفاق على سفرك ثالثا خاص بهما وقائم بينهما ، ولا بد أنك تقاضيت أجر السفر من وكالتك ، فما دخل الحكومة السعودية فى الموضوع .. وهل هى دعتك إلى هذه الرحلة حتى تسافر على حسابها ؟

وزمجر الأخ وقال فى ثورة :

— هل لايستحق الصحفى منا أدبياً أن يسافر مجانا على الخطوط السعودية ؟

وقلت له :

— آه ، هذه مسألة أخرى تدخل فى باب التقدير أكثر منها فى باب الحقوق .

وانتهى أخونا إلى الاقتناع بأن من الخير الإقلاع عن هذا المطلب .

ولكن حدث بعد ذلك أن انتقلنا فى نهاية الرحلة إلى فندق التيسير فى جدة بعد أيام نيفت على الأسبوعين أو الثلاثة ، فألفيت أخانا لا يزال مقيما فى جدة فى الفندق ، وعلى ضيافة الحكومة السعودية . ولاحظت أن له نشاطا واسع المدى ، وأنه استحوذ على سيارة تقله ، وأنه يزور بعض كبار المسئولين ويتحدث عنهم كأصدقاء ، ثم حصل أخيرا على تذكرة السفر .

وهكذا انتصر إصرار الأخ .

وصحفيون .. غير مصريين :

وكان معنا صحفيون من غير مصر .. إثنان من العراق أحدهما سليمان الصفوان نقيب الصحفيين العراقيين ، والآخر عبد العزيز بركات صاحب إحدى الصحف فى (البصرة) وأشهد أنهما حرصا إلى حد كبير على ما نسميه (الكرامة) ، واجتماع الاثنين فى زمالة ووفاء برغم أن أولهما شيعى والآخر سنى .. يدل على أن الخلاف المذهبى فى العراق بين المتعلمين فقد على الزمان حدته .

وكان يقيم معنا صحفى باكستانى فقير قال إنه مقيم فى لندن من ثلاثين عاماً ، وأنه جاء ليحج البيت ويعرف المسلمين ، ويقابل الصحفيين منهم .. وقيل إنه إنما جاء يطلب معونة الملك أو ولى العهد .. وأنه يحمل كتاب توصية من الشيخ حافظ وهبه ، وكان الصحفى الباكستانى ثرثاراً .. لا يريد أن يصمت ، وجوالا لا يريد أن يهدأ .. وبرغم طيبته التى تسترعى النظر .. وحالته التى تثير العطف . كان يواصل الحديث مع كل من يلقاه فى أية ساعة من ساعات الليل والنهار بحيث يورثك الملل .. مهما يكن عطفك عليه ، وقد وجد فى أخينا (العضو المحرر) من أعضاء (بعثة الأهرام) صيداً سهلا ، لأن (أخانا) أولا يعرف بعض الإنجليزية ، ولأنه ثانياً يحب أن يعرف الأجانب ، ولأنه ثالثاً هادىء الأعصاب إلى حد يثير الدهشة ويتسع لصداقة الباكستانى الملتحى .. أو الفارع العود .. أو مسبل القميص المفتوح فوق البنطلون القديم .. أو ما شئت له من

الوصف .. الذى يرسم الصورة للجسم الأهوج أو للعقل الأهوس .

عدو لدود :

وأحب أن أذكر — قبل أن أنسى — أن الصحفى الباكستانى لم يكن يكره أحداً من النزلاء إلا شخصى الضعيف ، ومبعث الكراهية طريف .. ذلك أنى لاحظت فيه الثرثرة التى لا يتسع لها صدرى فلما أراد أن يتقرب منى وألقى السلام على بالإنجليزية تظاهرت بأنى أجهلها .. وردت عليه بقولى (عليكم السلام) فطوف بى بضع مرات ثم جاء بأخينا عضو بعثة الأهرام — ومترجمه الخاص — وطلب إليه أن يقوم بمهمة الترجمه بيننا وظن الزميل المصرى هو الآخر أنى أجهل هذه اللغة ، فطاب له أن ينهض بتبعة الترجمة ، ولكن حدث على الأيام أن لاحظ الباكستانى أنى أعرف شيئاً من الإنجليزية وأنى أتعمد التجاهل .. فحاول جهده أن يخرجنى من هذا التجاهل ، فأصررت عليه .. فأدرك أنى غير راغب فى الاستماع إليه .. فقنع بالسلام يلقيه على بالإنجليزية وبالرد يتلقاه منى بالعربية . ثم حدث أن سبقنا إلى جده ليقابل ولى العهد ، وليستقل الطائرة إلى المدينة .. فلما انتقلنا إلى جدة بعد أسبوع من سفره التقينا به مرة أخرى فى (فندق تيسيرها) فلم يسلم على فأدركت أن أعصابه قد خانته وضيقه بى قد تفجر .. وأرجو إن كان قد أتيح له أن ينشر فى إحدى صحف لندن أو الباكستان مذكرات كهذى .. أن يذكرنى هناك كما أذكره هنا .

جو غريب :

وهكذا عشنا بضعة أسابيع فى مكة فى جو غريب مشحون بأقاصيص الصحافة معبق بروائح تختلف فى الحكم عليها الأنوف ، وحال حرصى على إيثار الصمت فى معظم الوقت دون القيام بأى تحقيق لهذه الأقاصيص ومدى الصحة فيها .

وكرامات .. مصرية :

وأعتقد نسبياً أن أخانا « زكريا نيل » ممثل المصرى كان حريصاً على كرامته برغم ما له من شباب .. وما يتسم به شبابه من اندفاع .

ومع ذلك يبدو أن الحرص على الكرامة لايميل الحظ الحسن إلى محالفته ، وقد وقع أخونا زكريا مرة فى ورطة ، أشهد أنى أخرجته منها بفضل الصدفة وحدها .. لا بفضلى .. والأناسى فى أغلب الأمم مدينون بما يلقون من الخير .. لمحاسن الصدف .

ولى العهد :

وقصة الورطة أو السقطة التى أشير إليها .. خاصة بسمو ولى العهد الأمير سعود (جلالة الملك الآن) والحفلة التى أقامها لتكريمه فضيلة الشيخ الباقورى أمير الحج المصرى فى فندق مصر وفقاً لما يجرى عليه العرف من زمن .

وأذكر بهذه المناسبة أننا لم نشهد الحفلات الرسمية التى تقام عادة قبيل الموسم ، وتلقى فيها القصائد والخطب ، لأننا بلغنا جدة صبيحة الوقفة كما سبق القول ، ولكن حدث أن دعينا بعد الموسم لحفلة أمير الحج تكريماً لسمو ولى العهد ، وشهدناها فعلا ورأى أمير الحج أن يلفت نظر مندوب « المصرى » إلى رغبة فضيلته فى أن يقتصر الوصف الذى يرسله المندوب لجريدته على بضعة أسطر إخبارية يقول فيها ما معناه (أن فضيلته أقام حفلة تكريم لسمو ولى العهد وألقى كلمة مناسبة وأن الأمير ودع كما استقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم) .

وأدى زكريا الرسالة كما طلبت منه وذكر (سمو ولى العهد المعظم) ، ولم يذكر اسمه .. لأن شهرة سعود كولى للعهد كانت تطبق الآفاق .

ولكن ما نسميه (المطبخ) فى جريدة (المصرى) فى (القاهرة) أراد أن يبالغ فى التكريم بذكر الاسم الكريم .. فنشر الخبر هكذا (ولى العهد المعظم

الأمير فيصل) بدلا من (الأمير سعود) .

وجاءت نسخ (المصرى) إلى جدة ومكة بالطائرة ، وكانت قنبلة الموسم .. لا لأن أى الأميرين عنى بهذا الخطأ ، وإنما لأن الجماهير ونحن منها — كثر تساؤلها ، وجن جنون زكريا — وهو ثائر الشباب أصلا — وأبرق لجريدته فى القاهرة يسائلها عن سر هذا (المقلب) .

وكلمة (المقلب) هنا تصور الحادث فى ذهن زكريا تصويراً معيناً .. لأن زكريا يعمل مراسلا فى القاهرة لمحطة الإذاعة السعودية فى مكة ، وقد ظن خطأ أن الذى تصرف فى الخبر على هذا النحو .. إنما يقصد إلى الإساءة إليه فى العلاقة بينه وبين هذه المملكة .

الأمر فى النصاب :

وأجرت (المصرى) التصحيح أو التصويب ، وأبدت الأسف الصادق العميق ، وأبرقت إلى سمو ولى العهد تعتذر عن الخطأ غير المقصود . كما أبرق زكريا إلى سموه أيضاً .

وحدث أن ديوان ولى العهد كان قد حدد لنا موعداً نزوره فيه أنا وصاحبى الشيخ .. فقصدنا إلى القصر فى جدة .. وبينما نحن جلوس فى غرفة الأستاذ عبد الله بلخير سكرتير ولى العهد .. وكان السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين موجوداً أيضاً .. إذ برقية اعتذار (المصرى) تصل .. ففضها عبد الله وأشرق منه الوجه وناولنيها صامتاً .. فقرأتها ورأيت أن الفرصة سانحة لإنقاذ زكريا .. فقصصت على الأخ عبد الله حقيقة الأمر .. وغادر مكتبه إلى مجلس الأمير فعرض عليه الحقيقة كما سمعها منى .. فضحك الأمير واعتبر الحادث منتهياً .. وأمر بالرد على برقيتى (المصرى) و (زكريا) شاكراً .

علائم الرضا :

وظهرت علائم الرضى واضحة عندما أمر الأمير بإهداء (الكسوة) إلى

مندوب (المصرى) وقد اقتصر إهداؤها هذا العام على بضعة من الصحفيين المصريين يعدون على أصابع اليد ، وعلى الصحفيين العراقيين الذين أشرت إليهما من قبل .

قصة الكسوة :

و (الكسوة) فى ذاتها ليست ذات شأن .. وإنما شأنها الكبير فيما تنطوى عليه من معان .. وهى تعنى — أول ما تعنى — رضاء الملك أو ولى عهده عن الذى تهدى إليه .

و (الكسوة) من الملك عبد العزيز فيما قيل لنا كانت عبارة عن عباءة مقصبة شتوية من الصوف فى الشتاء وصيفية (رفيف كما يسمونها) فى الصيف . وعقال مقصب لا يحق لأحد من أهل المملكة أن يرتديه إلا إن كان من العائلة المالكة أو من الأشراف .. وإن كان يحق لكل ضيف أجنبى أن يرتديه إذا أهدى إليه .. (وحطة) أو (كوفية) من خالص « الكشمير » القيم توضع على الرأس ليعلوها العقال .. وساعة ذهبية يراعى فيها قدر المهدى إليه فقد يرتفع ثمنها إلى مئات الجنيهات وقد يهبط الثمن إلى جنيهات .

هذا هو وصف الكسوة التى قيل لنا إن الملك عبد العزيز كان يهديها إلى ضيوفه .. وقد أهداها فعلا إلى الصحفيين العشرة الذين رافقوا الرئيس محمد نجيب رسمياً هذا العام إلى الطائف وسعدوا بلقاء الملك .. وقيل إنها أهديت إلى تسعة .. وكان للعاشر قصة .. لم يحن فيما يلوح وقت نشرها .

أما (الكسوة) التى أهداها إلينا ولى العهد الأمير سعود فى هذا العام (جلالة الملك الآن) فكانت أختاً لتلك التى وصفتها .. ولكن تنقصها (الساعة) وأغلب الظن أن واضع البروتوكول تعمد هذا (النقص) للتفريق بين هدية (الملك) وهدية (ولى العهد) وهو تصرف محمود إن صح استنتاجى .

قواعد الإهداء :

وكان المتبع فيما مضى — كما قال لى الصحفيون المصريون أن تهدى الكسوة لكل صحفى بغير تفريق — فهل حدث هذا العام مثل الذى كان يحدث فى سالف الأعوام ؟

كلا مع الأسف .

أقول « كلا » وأظلم السعوديين إذا أنا لمتهم .

لقد سلك (بعضهم) — بعض المنتمين إلى الصحافة كما حدثتك — مسلكا أقل ما يقال فيه أن صدور السعوديين الواسعة ظلت تضيق به على السنين حتى كادت من الغيظ تتميز .. ولكن السعوديين حريصون دائماً على كرامة مصر والصحافة المصرية ، وشعور المصريين على العموم وشعور الصحفيين على الخصوص . فلم يجدوا - أعنى السعوديين - بدأ من أن يحتجوا على هذا (المسلك) احتجاجاً صامتاً ومؤدباً وعملياً بأن يهدوا الكسوة إلى فريق دون فريق ، فيعرف الذى أهديت إليه أنه محل التقدير .. ويعرف الذى حرم منها أن عليه أن يتصفح من جديد أوراق كتابه .. من غير أن يوجه إليه لوم أو يواجه بالعتب ، ومن غير أن يحرم من حلاوة لقاء شيخنا اللطيف عبد السلام غالى ، ومن غير أن يحرم من الزوغان الظريف من جانب صديقنا عبد الله بلخير .

هذه هى الخطة الجديدة التى أرسى السعوديون قواعدها فى الحج الفائت .

المهدى إليهم :

أما من هم أولئك الذين أهديت إليهم الكسوة هذا العام ؟ .. فلا محل لذكرهم ، لأن أقل إشارة إليهم تجرح الآخرين ، وفصولى أحب لها أن تجىء أرفع من أن تجرح أحداً .. إلا على مذبح الصالح العام .

مضحكات :

ورحلة كهذى — وفى مثل هذا الزحام — لا بد أن يحدث فيها بعض الاضطراب ، وأن ترتسم على الشفاه بعض الإبتسامات .

ومن هذه المضحكات أن صديقنا الشيخ عبد الله بلخير أرسل ، ونحن فى مكتبه بالقصر نستأذن فى السفر ، برقيتين إحداهما إلى معالى الأمير عبد الله السديرى وكيل أمير المدينة المنورة يخطره بأن السوادى ورفيقه فى طريقهما إلى المدينة ضيفين على الحكومة ، والأخرى إلى المختص بإعداد تذكرتى سفر بالجو إلى المدينة فالطور .. ونسى ان يقول (إلى القاهرة) وكنا أكرم على أنفسنا من أن نلفته إلى هذا (السهو) البسيط ، ولم يكن يضير أياً منا أن يدفع عشرة جنيهات لطائرة مصرية من الطور إلى القاهرة .. أى من أرض مصرية إلى أرض مصرية .

وقد تسألنى : (وأى مضحك فى سهو وقع ؟) .

وأجيب : المضحك فى هذا السهو أن بعض إخواننا الذين كنا نتوسط لهم فى الحصول على تذاكر العودة ، صرفت لهم هذه التذاكر إلى القاهرة ، أما نحن فقد تبدى موقفنا بسبب السهو غير المقصود ، غريبا بعض الشىء وكان من حق أى « ساذج » أن يستخلص من ذلك « الواقع » أنى وصاحبى كنا أقل شأناً فى نظر القصر والحكومة ممن كنا نتوسط لهم .. هذا هو المضحك الذى أعنيه.. لأنه نتيجة للسهو الذى وقع أخونا فيه ، وقلمه يجرى على البرقية ، ومكتبه يموج بالعشرات من عظماء البلاد الإسلامية ، وأجراس المسرة تواصل دقاتها .

فى التشريفات :

وأحب أن أحدثك الآن فى كلمات عن إحدى التشريفات التى شهدناها .

حدث ذات يوم أن رددت بطاح مكة صدى مرسوم خطير تلقته الجهات

المسئولة من جلالة الملك الراحل المغفور له عبد العزيز آل سعود يتنازل فيه عن القيادة العليا للقوات البرية والبحرية والجوية لولى عهده الأمير سعود .

وهرول عبد السلام غالى إلى الفندق متهلل الوجه مبسوط الأسارير ، ينقل إلى الخبر ويحسن التعبير عما فى قلبه من سرور ، فأبرقنا فى الحال إلى ولى العهد نرفع إليه التهنئة ، ولكن الشيخ عبد السلام أفهمنا أن تشريفة كبرى ستقام فى القصر الملكى فى جده ، فكان لزاماً طبعاً أن يذهب الصحفيون إلى القصر لتهنئة ولى العهد بالفضل الذى أسبغه عليه والده ومليكه .

وانتشر الخبر وخف إلينا الصحفيون العشرة أو التسعة ، وجىء لهم بسيارات من الفندق واستقللنا نحن السيارة الموضوعة تحت تصرفنا .. وهناك فى ساحة القصر التأم جمعنا ، ثم دعينا إلى القاعة الكبرى ، واعتبر صاحبى الشيخ فى هذه الرحلة صحفياً .

وكان الصحفيون قد تفضلوا فقدمونى ، فسرنا فى صف طويل والأمير سعود جالس هناك فى صدر القاعة فلما رآنا تفضل فوقف ، فكان لزاماً علينا أن نغذ السير ونستحث الخطى بل أن نهرول حتى نبلغه ، وحتى لا يطول وقوفه . . وفى خلال الهرولة . . وعندما بلغناه .. وعن غير عمد طبعاً .. رأى صاحبى الشيخ نفسه فى المقدمة . . فارتحت لمحاسن الصدف التى أعفتنى من هذه الصدارة.. ونقلتها عفواً وبجدارة.. إلى رجل من رجال الدين بقطع النظر عن صلته بالصحافة . . وحظينا بمصافحة صاحب الجلالة ولاحظت أنه يحرص فى الدقائق التى يمكثها المهنئون فى حضرته على الإبتسامة الدائمة ، ويوجه بين الحين والحين كلمات الترحيب العربية فى هدوء كنا نستشعر منه الهيبة والتوقير .

ولاح على رجال الحاشية عند خروجنا أن قيامنا بهذا الواجب صادف منهم كل الإرتياح، وتبدى ارتياحهم فى توديعهم لنا توديعاً لاتعوزه الحرارة .

وعدنا إلى الفندق كما عدنا إلى الجلباب والتحرر وجلسة البستان .

الفصل الرابع

بعيداً عن الصحافة إلى حين

ونعم .. نحن ما نزال فى فندق التيسير بمكة ..

ومايزال العم عطا الياس صاحب فندق التيسير يصابحنا بصلواته وتسبيحاته، وتلاوته القرآن قبل مشرق الشمس (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) .. ويماسينا بقصصه التاريخية عن عهد الحسين بن على وعجائبه .. ويجرى المقارنات بينه وبين عهد عبد العزيز الآمن.. ثم يتحفنا العم عطا بالذكريات الحلوة عن صباه .. وما لقى من عناية الله .. ووفاء صديقه القديم الشيخ محمد سرور .. حتى إذا انتصف الليل حمل الرجل غطاءه إلى البستان .. حيث أعدوا له سريراً فوثب إليه وأغمض عينيه .. وأطللنا نحن عليه .. من نوافذ الغرفات والشرفات .

كانت ليالى جميلة ليس من السهل أن ننساها .

وكان فى مكتبه شبان من الحضارمة والوطنيين أحسن اختيارهم ، فأحسنوا معاملتنا ، وليس من السهل أيضاً أن ننساهم ..

بل إن منهم شاباً حضرمياً يعمل مراقباً فى المعهد الدينى بالطائف طوال العام الدراسى ، ولا يتردد فى موسم الحج فى أن ينضم للعم عطا الياس مشرفاً على الفندق أو مساعداً لمديره .

ومدير الفندق هو السيد عمر الياس ..

شاب هادىء الطبع رقيق الحاشية يعرف لكل نزيل قدره ويؤدى فى غير تردد واجبه وهو ابن أخى العم عطا وزوج كريمته .

أما الخدم فخليط من الحضارمة والحجازيين بعضهم دائمون وبعضهم يعملون فى الموسم .. حتى إذا خف زحامه ودنا من نهايته .. خفوا بدورهم إلى

دورهم يبحثون عن أعمال أخرى .. ومنهم الكسول الذى تناديه فلا يرد ..
ومنهم نصف الكسول الذى تناديه فيتثاءب ويجىء بعد فوات الوقت ..
ومنهم غير الكسول يخف إليك هاشاً ويقول (مرحباً) .

ولكن لماذا أندفع الآن إلى الحديث مرة أخرى عن فندق التيسير وقد أشبعتك أحاديث عن الفنادق ؟

إنها ذكريات تثور كما ترى فى غير ضابط وتجرى فى النفس مع الخواطر .

واللبنانى :

وجرياً مع الخاطر تثور فى الذهن ذكرى صبى لبنانى .. نعم .. أذكر مثلا أخانا عبد الجليل الشامى الذى يمثل لبنان أحسن تمثيل .. بل يمثل العنصر الفينيق القديم .. المغامر المهاجر .. الضارب فى الأرض ، والماشى فى المناكب ، والآتى من كل فج .. ممن (يبارون فى المسير الغماما) على حد تعبير شاعر النيل .

وعبد الجليل فتى من فتية لبنان المسلمين جاء إلى جدة من بيروت ولا يعرف أحد كيف جاء .. لا جواز له ولا مال عنده .. ولكنه أفلت .

كان العم عطا يزور مرة لبنان .. وهناك ألقت الأقدار فى طريقه بهذا الصغير الذى لا يجاوز ثمانية عشر عاماً .. وعرف أن عطا صاحب فنادق وقال له مازحاً أنه سيجىء يوماً إلى مكة وسيعمل عنده .. ورد عطا مجاملا : (مرحب) .

ومر الزمن ..

وفى موسم الحج رأى العم عطا هـــذا الفتى الوسيم الضحوك الذكى (المتعابط) يقف أمامه .. ويستنجزه وعده .. وقال عطا لعبد الجليل (اشتغل) .

وانقلب الفتى (جرسوناً) مقطوع النظير (وخادماً) لا يمل العمل .. ينام الخدم من كل جنس وهو ساهر .. يصيبهم الإعياء والغباء وهو وحده

الذكى الماهر .. حتى إذا خف زحام الموسم .. خجل العم عطا من إخلاء طرفه فألحقه بالطابق الأعلى من الفندق خادماً مقيما للنزلاء الدائمين .

وهكذا عرف اللبنانى الصغير كيف ينفذ إلى القلوب فيوطد فى الفندق قدميه . وأرانا صورة مجلوة للبنانى المهاجر الذى لا يأنف من عمل ولا يفتر فى الهمة .. ولا ينعى سوء الحظ .. ولا يقارن بين الأجور .. بل إنه عمل من غير مرتب .. حتى أعطى نقوداً فشكر .. وأنا أتوقع أن أعود بإذن الله فأراه وقد ترقى .. وقد لا تمضى السنون حتى يثرى .. من يدرى . وقد ننزل يوماً على فندق يملكه .

كان المصريون يمزحون معه كثيراً .. وإلى حد التجريح .. وعلى حساب الملاحة فيه .. فجاراهم مبسوط الأسارير باسم الثغر .. غير ضائق بأية كلمة مهما يكن لونها .. فلما توالت الأيام رأيت العلاقة بينه وبينهم وقد استحالت صداقة أو كالصداقة .

كان أخونا مصطفى الصباحى أشدنا إثقالا عليه بالتجريح وبالطريقة المصرية فى (التنكيت) الثقيل .. وبالتقليد الساخر للهجة اللبنانيين .. وكان الفتى يخاطبه باسمه مجرداً صائحاً فيه (انت يا أزعر يا صباحى .. شرف بيروت بتلاقيها جنة .. شو مصر بتعكن يا أزعر) .. وانتهى هذا التلاحى إلى موقف لا أنساه .. كان الصباحى يزمع الرحيل .. ووزع بعض «الإكراميات» الخفيفة على الخدم ولكنه خص عبد الجليل وحده بمبلغ ضخم .. مقابل احتماله مُلَح الصباحى .

وأنا أعنى بهذه الصورة وأستملحها للمعانى التى انطوت عليها .

لقد كنت أدهش للشآميين ونجاحهم فى المملكة السعودية ، ولكن عبد الجليل أزال الدهشة عنى ورأيت فيه على بساطته حلا للغز الذى تعذر على حله .

والإدارة المصرية :

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر (على حد تعبير المرحوم سليم سركيس) فإن الإدارة فى فندق مصر تستحق هى أيضاً أن تذكر .

وقد زرت هذا الفندق مدعواً بضع مرات ، وحدثتك عنه فلا أعود ، وإنما أمس فقط ذكريات لى وقعت فيه .

حدث مرة أن دعانى الشيخ عبد السلام غالى لتناول طعام الغداء معه فى فندق مصر . واستقبلنى مديره الشاب ووكيله السودانى النابه وكاتب حساباته الموفور النشاط ، وفى غرفة الادارة والحسابات .

وهناك أطلعونى على دفتر الزيارات لأكتب لهم كلمة فيه .. وهذا الدفتر يزدان بكلمات لكثيرين .. منهم رؤساء وزارات ووزراء وزعماء من مختلف الأجناس

ولاحظت أن مدير الفندق الشاب يحب كثيراً أن يكتب عنه الكاتبون ، وأن يطلع الزائرين على ما كتبوه شهادة فيه . فأشبعت رغبته وكتبت عنه وعن معاونيه .

والمهم فى هذا الشاب أنه لقينى ورحب بى ثلاث مرات .

وفى كل مرة كان يؤكد أن له فى عنقى أمانة لا مفر منها .. وهى أن أقبل دعوة منه إلى مأدبة يقيمها لى .. وجلسة ساهرة يمضونها معى .. وكنت أؤكد له استعدادى للقبول .

وكانوا يحدثوننى كقراء يعرفوننى .

وأقمت فى مكة قرابة الشهر ، ورحلت عنها ، والكلمات الحلوة منهم ترن فى أذنى ، والمائدة لم تقم بعد ، والليلة الساهرة لم يحيها أحد .

ومع ذلك سافرت راضياً عن هذا الشاب .

وأدركت سر نجاحه كمدير للفندق .

التاجرة الهندية :

على أن ذكرى أخرى عن تاجرة هندية تثب الآن إلى ذهنى .

إنها سيدة حسناء ممشوقة القوام مليئة الجسم باسمة الثغر واسعة العينين مبسوطة الأسارير سمراء اللون اجتماعية السلوك سافرة الوجه هندية الزى .

والحاج عادة يغض إذا واجه حسناً ، ويستغفر الله إن طاف به من الشيطان طائف ، ولكن الهندية السمراء دائمة النشاط بادية الاغتباط ، تذرع « فندق التيسير » ذهاباً وجيئة ، وتوزع ابتساماتها البريئة على جميع النزلاء ، وتتحدث إلى كل من تأنس فيه قابلية للحديث معها .

وبالاختصار (هوستنا) . حتى استنكر صاحبى الشيخ هذا السفور منها . ثم استطاب على الزمان سفورها وآمن ببراءتها ، ووضعنا يوما أيدينا عليه وهو يبادلها التحية ، ولكنها مع الأسف لا تحسن الفصحى ولا العامية ، ولا تتكلم إلا الانجليزية ، وهى لغة ملعونة ابتلينا بها نحن وبرىء منها صاحبى الشيخ .

والسيدة الهندية أو الفاتنة السمراء تاجرة من كولومبو (عاصمة جزيرة سيلان) . تاجرة واسعة الثراء تتعامل مع تجار الحجاز من قديم ، وتحج البيت فى كل عام ، ويجىء معها زوجها وعشرات من أتباعها يحجون معها ، ويحجز لهم جناح كبير فى الفندق من أول ذى القعدة فى كل عام بنصف الأجر حتى يصلوا ، وبالأجر الكامل متى وصلوا .

وتعتبر رحلتها (زيارة وتجارة) فهى تحج البيت ، وتسوى مع التجار حساباتها ، وتتلقى منهم طلباتهم ، وتعود إلى بلادها حاجة وموفقة ، ولا تنقطع عن هذه الزيارة فى أى عام ، لتثبت أن فى الحج منافع للناس .

وزوجها ضئيل يملأ الكف ويخفى المنظار نصف وجهه ، وهو بالنسبة لها لا يعدو أحد أتباعها ، أما هى فشخصية بارزة تفرض نفسها وتملى إرادتها

ولا تزايل الابتسامة ثغرها بل أكاد أتخيل أن الابتسامات تملأ عينيها أيضاً وتطل منها على رائيها .

وهذه صورة من الصور الإنسانية التى يتحفنا بها موسم الحج .

الشريف :

أما الصورة الجديدة فلرجل رقيق أنيق يلقى علينا تحية الإسلام ويستوقفنا منه عقال قصبى لا يلبسه إلا أبناء العائلة المالكة والأشراف .. وهذا الوجه مألوف منى .. وقد رأيته كثيراً .. فمتى .. وأين ؟ .

وفى اليوم التالى رأيته يرتدى بذلة أفرنجية كاملة لاح لى أنها بقايا ماض وبقايا مجد وبقايا ثراء .. وهو لا يخالط الناس .. بل يطيل الصمت .. ويؤثر العزلة .. ويستمسك بأهداب الوقار .

وها هو ذا يخطو إلى صداقتى فأرحب به فنتجاذب الحديث .. وأسمع صاحب الفندق يناديه بكلمة (الشريف) فيفسر لى قصب العقال .

وأخيراً عرفت أنه مقيم من قديم فى القاهرة وبقية أسرته فى العراق .. وهو يجلس فى مقاهى ميدان الأوبرا حيث نجلس .. ومن أشراف الحجاز قبل الغزو السعودى .

ما شأنه :

واستطعت أن أعرف من الرجل أن نجاح السعوديين فى حكم الحجاز مر بيد المحو على ما كان ينطوى عليه الأشراف من موجدة .

وخضنا فى سيرة سعود بن عبد العزيز (ولى العهد) فأثنى الشريف عليه ثناء مستطابا وقص على الكثير من ميزاته .

رجاء الأحدب :

وتوطدت على الأيام أواصر الصداقة بينى وبين الشريف .. ونسيت أن

أقول لك أنه محدودب الظهر قليلا .. بادى الكبرياء كثيراً . ذو كبرياء كريم لا زيف فيه ولا اصطناع يعروه .. كبرياء الأمير الذى كان مثريا ثم افتقر .. ولم يبق له فى مصر غير نصيبه فى أطيان كانت موقوفة تقع فى أقليمنا (المنيا) وهو نصيب لا يكفيه من حيث المظاهر .. فهو يكمل النقص بأحاديث المجد المندثر والكبرياء المتزن والكرامة البادية .

ولهذا الشريف الأحدب رجاء كبير هو الذى جاء به إلى الحج فى ذلك الموسم .

لقد كان فى بغداد يشهد حفلة تتويج الملك فيصل وكان سعود بن عبدالعزيز ينوب عن والده واستطاع الشريف أن يحظى باللقاء وبسط بين يدى سعود شكوى له من قديم بل من بداية غزو السعوديين للحجاز .. خلاصتها أن للشريف أملاكا أو أوقافاً — لا أدرى — استولى عليها ولم ترد إليه وهو الآن فى حاجة إلى تعويضه عنها بالقدر الممكن وإن كان غير قادر على (الإثبات الرسمى) إلا إن أرادت عدالة ولى العهد أن تتلق الحقائق من أفواه المعاصرين للفتح السعودى والعارفين بالقصة .

وقال الشريف : « ماكان أسعدنى وكنت يائساً من إصغائه لى أن أراه وقد أصغى إلى ورحب بى وأمعن فى تكريمى ودعانى لحج البيت ضيفاً على حكومته .. لينظر بعد إنتهاء الموسم فى مظلمتى .. وأعتقد أنه عند وعده .. لأن سعود ما قال كلمة قط إلا وكان عندها شأن أبيه وذويه .. كما أكد لى كل عارفيه » .

وطمأنت الرجل بل هنأته .

ثم اطمأن فعلا وهنىء .

آخذ على خاطره :

ولقيته إلى جانبى فى قصر الملك فى جدة ونحن نهنىء ولى العهد بالقيادة العليا ، ولما عدنا إلى فندق التيسير فى مكة خيل لى أن الشريف غاضب فانتحيت به وسألته سر ما يبدو عليه من الغضب وبدأ الرجل يتكلم :

قال لى أن خطأ وقع فى حقه فى الحفلة .

وقلت له : (من الأمير) ؟

قال : حاشا أن يقع سعود فى الخطأ .

قلت : من الحاشية ؟

قال : بل من ضابط واحد .

وضحكت وقلت له :

ـ يا أخى أنت تعيش فى القاهرة المتحضرة وتعرف ما تلقاه من غطرسة بعض جنود البوليس . أفما تشفع لك هذه المعرفة فى خطأ يجىء من بوليس بدائى هنا ؟

قال الشريف :

ـ لا والله .. أكذب إن قلت لك إنى غير متأثر .

ـ طيب إيه الحكاية ؟

قال الشريف :

ـ الحكاية يا سيدى إنى كنت أجلس فى الصف المقابل لك تماماً وكان الأمير فى الصدر يصغى إلى زعيم المسلمين فى الملايو .. وعبد الله بالخير يترجم بينهما .. فلما استأذن زعيم الملايو نهض الأمير فنهضنا .. ورأيتكم تتحركون صوب الأمير مستأذنين فانتظرت حتى تنتهوا من مصافحته لأتقدم بدورى مصافحاً .. وكانت كوبة عصير البرتقال لا تزال فى يدى أرشف العصير منها .. فإذا ضابط يشير إلى بعنف أن انصرف .. فأمد يدى لأحد الخدم بالكوبة فينتزعها الضابط منى فى عنف .. ويكرر أمره لى بأن أتقدم من الأمير مصافحاً وأنصرف .. وعلى صورة غلا معها الدم فى عروقى .. ولكنى تجنبت الاحتجاج رعياً لجلال المقام فتجاهلت الحادث وصافحت الأمير وانصرفت .

وسألت الشريف :

ـ طيب ما ذنب الأمير والمملكة إن أخطأ جندى أو ضابط ؟

واربد وجه الشريف وهز رأسه فى أسى وقال :

ــ الحقيقة إنى تشاءمت وأخشى ألا تمكن لى مثل هذه الحاشية من اللقاء الخاص الذى جئت لأحققه .

وقلت للشريف ؟

ــ كلا يا سيدى .. إن الأمير سكرتيراً خاصاً هو مثال الأدب والتهذيب فما عليك إلا أن تلقاه وهو يحدد لك موعد اللقاء .

وهش الرجل لما قلته .

وجاء موعد سفرنا فارتحلنا فجأة وتركنا الرجل ولا أدرى إن كان قد بلغ أهدافه .

وإنما أقص عليك هذا اللون من زوار الحجاز وضيوف الأمير لتعرف مدى العبء الملقى على سعود بن عبد العزيز ومدى الرجاء المعقود عليه من جميع الناس ومن مختلف الأرجاء .. وكيف لا يضيق صدره بهذا كله وهو ولى للعهد .. فما بالك به الآن وقد أصبح مليكا وإماماً .

وعبد السلام مرة أخرى :

على أن بنفسى ملاحظة أحب أن أبديها .. خاصة بصديق المصرى مولداً ونشأة والسعودى وظيفة وجنسية وولاء وعاطفة وأعنى به الشيخ عبد السلام غالى .

عبد السلام ليس نجما .

ومكان عبد السلام الطبيعى كان يجب أن يكون فى طليعة النجوم والكواكب المحيطين بهالة الملك .. ولكن عبد السلام لا يريد أبداً أن يأخذ مكانه .. وهو يكتب إلى من الشهور يستحلفنى بالبيت ورب البيت أن أصون حياءه . وإلا أحدث الناس عنه وعن الدور الذى يقوم به .. حتى لقد بلغ به الإلحاح أن حمل أحد ضباط البوليس المصرى المنتدب فى الحجاز والقادم

إلى القاهرة فى اجازة خطاباً يعيد فيه استحلافى وآخر من صديق الحاج عبد القادر غزاوى عضو مجلس الشورى (سابقاً) يستحلفنى هو الآخر أن استجيب لحياء عبد السلام .

وقد استجبت طبعاً لهذا الرجاء (العجيب) و (غير المسبوق) .

لـكنى هنا سأتحدث عن عبد السلام لأوجه إليه لوناً من النقد المرح ما دام قد استحى .

نقد . . . ومرح :

والشيخ عبد السلام هو صلة الوصل بين الضيف والمضيف ، او بين النازلين على الفنادق وحكومة صاحب الجلالة .

ولبعض الضيوف مطالب ، ولبعض الضيوف مطامع ، ولجل الصحفيين الذين حدثتك عنهم أشياء يضيق لها صدر السامع ، مجرد سامع .

عيب عبد السلام أو (ميزته) أنه يوهم كل متحدث إليه أنه محب له ، متدله به ، قادر « عبقريته » . واهب نصف العمر للعمل على راحته ، مكرس نصفه الآخر ليكون فى « شرف خدمته » .

وكل ضيف يعلق كل آماله على عبد السلام وحلو تحياته .

ثم يودعه الضيف هـذه الآمال الـكبار ثم ينام ملء جفنيه تعرض عليه أحلامه صوراً فتانة للشيخ وهو يستمع إليه ثم يميل عليه ثم يأخذ منه قبلة بحفنة يده ثم يقبل هذا اليد وهو يقول له : « أبشر » .

ويختفى الشيخ يوما .

وتتراقص أعين هذا اللون من الضيوف فى المحاجر ، مشدودة إلى الباب الرئيسى بل إلى الشارع الـكبير . وكلما لاحت سيارة تشبه فى لونها لون سيارة الشيخ « الفسدقى » ، تحركت الأجساد فى الـكراسى وينهض بعضهم ثقالا ،

وينفر بعضهم خفافا ، والسيارات يكثر التشابه فى الحجاز بين ألوانها ، فإذا ثبت أن السيارة لآخر غير الشيخ ، ران عليهم اليأس ، وعاد النافرون إلى الكراسى ثقالا كلهم وكانت مشاهد تثير الضحك وأنا أحدق فيها وأتتبع ذويها وأترصد حركاتهم وسكناتهم .

ويجىء اليوم التالى ويظهر الشيخ الضاحك .. فجأة .. وكأن الأرض قد أنبتته إنباتاً .. فإذا وثب إليه أقرب الجالسين انفلت فى زوغان رشيق إلى مكتب الفندق ليخلو بالعم عطا ، ولينكب على حسابات ودفاتر ، ولينفلت من باب جانبى إلى زيارة بعض كرام النزلاء فى غرفاتهم .. فإذا عبر به فى الردهة نزيل .. قبله فى شوق وانتحى به جانباً وأسر إليه أن يرسل برقية إلى الديوان يحدد فيها المطلب ويدع له الباقى مع كلمة (أبشر) التقليدية . ثم لا يرى مانعاً من أن يستكتبه البرقية ليرسلها هو على نفقة الضيافة ولا يكلف الضيف أجراً .. فإذا قفشه ضيف ثان انتحى به ثم يرسل اشعاعاته الضاحكة إلى ثالث يكون قد أدركه قائلا له (جى .. أنا فاكر .. داحين .. دقيقة واحدة) ويعود إلى الثانى قائلا له : (سيب لى الحكاية دى يوم أو يومين .. دى بتاعتى أنا .. أبشر ..) ثم يميل إلى أذنه قائلا : (كلمة فى الأذن الحبيب .. بلاش الحديث مع حد فى الموضوع ده) فإذا لاحظ أن أمر الباقين لا يزال معلقاً مرق من الباب فى خفة يحسده عليها الشباب .. وقبل أن يتنبه الباقون تكون السيارة قد طوت به صدر الأرض .

والحقيقة :

يفعل عبد السلام هذا كله وله من ورائه هدف واحد .. ألا يخيب لأحد الضيوف رجاء فى المملكة مهما يعظم المطلب من وصنى الضاحك فما أبعد الحقيقة .

وعبد السلام يعرف أن تحقيق هذه المطالب دفعة واحدة مستحيل .. ويعرف أن تحقيق كل مطلب تحقيقاً كاملا مستحيل .. ويجب أن يترك كل

ضيف هذه الضيافة وهو راض عن المملكة ورجالاتها محب للملك ورجاله .

وبهذه الطرائق الجذابة يستطيع أن يوزع المطالب على أيام .. وأن يبدو ما يقضى منها بعد المتاعب والمشاق جميلا لا ينسى للمملكة ، وأن يظل كل إنسان آملا حتى يحقق له بعض الأمل .

وأما الخاتمة .. فقل أن خرج ضيف من دار الضيافة غير راض .

الفصل الخامس

من ألوان الإنتاج

وراعنى من أهل مكة والنازلين عليها جانب مستملح آخر مما نسميه هنا (الإنتاج) لأن الكثيرين يربحون من صناعات لم تكن تخطر قبلا ببالهم وأضرب للفكرة مثلا أو أسوق واقعة :

حدثتك قبلا عما قام به الأخ المصرى عباس كراره الذى كان صانع أسنان فى مصر . ثم اشتهر طبيب أسنان فى مكة من خدمة لى .

هذا الرجل الفاضل قدم لى كتباً ألفها عن الحج وهو ليس بالمؤلف وقد أكد لى أن خدمة الدين والمسلمين والحجيج كانت كل هدفه .

وقد التزم كراره فى وضع هذه الكتب أموراً تناهت فى البساطة وهى كل ما يحتاج الحاج إلى معرفته عندما يفد على الحجاز لأول مرة وهو يجهل معنى الطواف والسعى.. والصيغ التى تقال هنا وهناك .. والشعائر وكيف تقام .. والمناسك وكيف تؤدى .

ووضع كتبه .. فهل تدرى أنه يوزع منها كل عام عشرات الألاف وأن مصر وحدها تستنفد آلافاً ضخمة .. مصر التى تستنفد من كتب طه حسين والعقاد بضع عشرات فى كل شهر وتدع للشرق العربى العاطش والجائع مهمتى الشبع والرى ؟

والأخ كرارة يستحق هذا النجاح ما دامت نيته كما قال استهدفت خير الإسلام .. وكتبه تؤدى الغرض منها على أحسن وجه وأكمله .. إنما أسوق هذا المثل على عجائب فى الحجاز بشأن الأرباح والإنتاج قد تدهش لها أنت فى مصر .

واللبنانيون ... :

ولقد روى لى بعض الحجازيين فى الفندق وقائع أخرى لا أحب أن أتبسط فيها ، وهى فى سبيلها إلى الانقراض طبعاً ، وكان طبيعياً أن تصاحب البدائية التى عاشت فيها الجزيرة حيناً حتى أخذ الملك عبد العزيز بيدها ، ومن الطبيعى أيضاً ألا تجد هذه الأحاديث مكاناً لها الآن ، وسعود ينشر الحضارة فى أرجاء المملكة ويستقدم كبار الخبراء إليها ويوفد إلى الجامعات فى الخارج بعوثه المتوالية .

قص الحجازيون على ، أن إخواننا أهل لبنان — وهم كما لا بد أن تعرف شطار وجوابو آفاق وسلالة الفينيقيين — قد نجحوا نجاحاً باهراً فى جدة وغيرها .

قال لى محدثى ذات مرة :

— تصور أن حلاقاً لبنانياً يضيق به العيش فى بيروت أو طرابلس أو صور أو صيدا أو بعلبك ، فيتسلل إلى جدة بعد مكاتبات بينه وبين مواطنيه الذين سبقوه ، فتكون وصيتهم له أن يدعى لدى وصوله أنه (دكتور) وليس (مزين) وأن يدرس قبل أن يجىء مبادىء فى علم الصحة يعرفها صغار التلاميذ ، وأن يحسن وضع السماعة على قلب المريض وجس نبضه وبعض الأدوية الشائع نجاحها فى بعض الأدواء ، ويجىء الرجل وبشفاعة أو بأخرى يحصل على الترخيص ويصبح طبيباً عبقرياً .. وبعد السنين يمسى مثرياً لبنانياً .

مثل هذا الحادث لا يمكن أن يقع الآن طبعاً بعد أن غصت مستشفيات عبد العزيز وسعود بعشرات الأطباء من النابهين من مصر ولبنان وسوريا والعراق ، وإنما أسوق المثل على ما كان يحدث فى الماضى وعلى لون من ألوان الثراء الذى كان يظفر به الشطار من أهل لبنان ، لتعرف أن اخانا المصرى عباس كرارة لم ينل شيئاً إذا قيس بالناجحين من السوريين واللبنانيين .

عقد يجب أن تحل :

على أنى أنتهز هذه الفرصة لأغزو جانباً آخر من الود بيننا نحن المصريين وبين السعوديين .. وأعنى به عقدة نفسية غريبة مستقرة فى أعماقهم حيالنا ، وحان أن تنحل .. لأنها وليدة الوهم .. ولا أصل لها مطلقاً . وإنما رسخناها نحن فى نفوسهم بسوء تصرفات بعض المسئولين هنا فى عشرات السنين الفائتة .

وحان أن تحل .. بعد أن توحدنا الآن سياسة وقلوباً ، وكل منا يرى فى أخيه صديقاً وحبيباً .

نعم .. استطعت أن أدرك خلال الأيام الثلاثين التى قضيتها فى البلد الشقيق أن السعودى يحب مصر حباً عميقاً وأكيداً ، ويرى فيها مثلا أعلى له .. ويرى فينا مثل الذى نراه فى انجلترا وأمريكا من حضارة ورقى بقطع النظر عن استنكاره لبعض الشرور التى تلازم التفرنج ، ويود كل سعودى من الأعماق لو احتذى حذونا ونسج على منوالنا وتزوج من بناتنا وفتح المتاجر فى بلادنا بل وأقام جل العام بين ظهرانينا .

لكنه الأصغر والأرشد ، والأخ الأصغر إن كان كريم الأرومة وليد البادية يخشى دائماً أن يسىء أخوه الأرشد معاملته أو يمتهن صغر سنه .. بدلا من أن يأخذ بيده.. فتنشأ عقدة فى نفسه تقوى على الزمان وتنمو .. وتحمله حتى من غير أن يدرى على النفور من أخيه الأرشد .. أو على التحفظ إزاءه .. أوعلى إيثار غيره فى التعامل .. وعلى الحذر منه إذا هو تحدث إليه أو تفاهم معه .

والمسئولون فى جمارك مصر زادوا هذه العقدة تعقداً فى السنوات العشر الأخيرة فلم يكونوا يرعون حرمة الأخوة فى معاملة الأخ كلما جاء إلى القاهرة مصطافاً أو زائراً أو تاجراً .

كان هذا يحدث من أولئك المسئولين فى هذه الجهات .. مع أن رجل الشارع المصرى يحب رجل الشارع السعودى حباً أكيداً .. ويرنو إلى أبناء

البلاد المقدسة بعين مسلمة وقلب وامق .. ومع ذلك لم تتنبه على هذه الحقيقة وتنبه عليها أهل لبنان فوضعوا أنفسهم فى ركاب المصطافين السعوديين خدماً .. بل أقاموا لهم كما قيل لى ألفى منزل نظيف تعطى للمصطافين السعوديين مجاناً .. وافتن اللبنانيون وهم أهل فنون فى جذب السعوديين إلى مصايف الجبل .

ونبى السعوديون مرغمين .

أقول (مرغمين) وأعنيها .. فما يزالون يحبون مصر .. ويبيعون الشهر فى لهو لبنان وجوه .. بيوم فى حر القاهرة ولذعات القاهريين .

كيف بالله لم تتنبه على هذه الحقائق .. حتى من ناحية السياحة وحتى لو اعتبرناهم أجانب .. أى والله أجانب .. السعوديين الذين وقفوا إلى جوار مصر حرباً وسلماً وآخوها كل التآخى دائماً ، وكان عبد العزيز يرى فيها مجد الأخوة كاملا ، وتابعه سعود بن عبد العزيز حتى يوشك أن يجعل من الدولتين دولة . ولعلك مدرك صحة كل حرف قلته عن حب السعوديين لنا ، ونقدهم فى إجلال بعض تصرفاتنا ، وتحكم العقدة التى أشرت إليها فى تفكيرهم وشعورهم إذا أنت قرأت كتاباً عن مصر اسمه (كما رأيتها) لأخينا أحمد قنديل مدير عام الحج الذى كان فى استقبالى يوم وصولى إلى جدة وأهدى إلى كتبه ودواوينه ومن بينها هذا الكتاب الذى يقول فيه وهو يصف يومياته عن مصر :

« هى صرخة الطفل الفأفاء فى وجه أبيه الرجل أو أخيه الرشيد »

إلى أن يقول :

« فهى بمكانة رب العائلة يحف به حتى صغار أفرادها إعجاباً وإيماناً وبحلقة حتى ذرة الغبار العالقة بهندامه للبراءة منها نشدان مثالية لازمة له » .

هذا هو لون الشعور ومنحى التفكير عند أدباء السعوديين فلماذا لم ننتفع بهذه المكانة ؟

على أى حال لم يفت الوقت بعد :

أدب وأدباء :

وكنت قد ظننت أن الأدب لا سوق له فى الحجاز وأن أدباءهم قلة أو حفنة أرسلوا إلى الخارج فتعملوا أشياء وعادوا فوظفوهم فى الدواوين وتواروا .

ولكن الإقامة فى مكة أخلفت تلك الظنون .

رأيت ذات مرة رجلا من نجد يقول الشعر جزلا ويحفظ عن شعراء العربية جميعاً ، ولو قد قيل لك قبل أن تسمعه أنه شاعر لافترت شفتاك عن ابتسامة عريضة ، ولا يحضرنى الآن اسمه .

ومرة أخرى جلس إلى شاب ضامر العود ضارب إلى السمرة علمت أنه رئيس نقابة السيارات فى جده ومنتدب للعمل فى موسم لحج فى مكة .. فإذا هو أديب مدرك رقيق الحاشية كريم النفس .. ما كدت أفتح له زاوية من قلبى حتى وثب إليها واطمأن لها واستقر فيها .. وأخذ يبثنى شكواه من النقص فى بلاده وملاحظاته على النقص فى بلادنا فإذا هو أديب واجتماعى وواسع الإدراك .

عندنا دواوين :

وحتى سلطان الجبل الأخضر يسمر بالشعر ويفخر .

وهذا السلطان هو الشيخ سليمان وسلطنته أو مشيخته تابعة لسلطان مسقط .. وعلى رأسه عمامة .. وعليه جلباب .. ومن خلفه حاشية لا محل هنا لتناولها بالوصف .. والسلطان وحاشيته ينزلون ضيوفاً على الحكومة .

وكنا قد ظلمنا سلطان الجبل الأخضر وحسبناه خالى الذهن من ثمار الحضارة والفكر ونظم الحكم ، ولكن حادثاً وقع قلب الرأى رأساً على عقب .

أعجب سلطان الجبل الأخضر بصاحبى الشيخ وزيه وأدرك أنه عالم مصرى ، وفهم انه قاض شرعى سابق ، وللقضاء فى تلك الأنحاء هيبة ورهبة ، فانصرف السلطان عنا إلى صاحبى الشيخ وخصه بوده ، وخلا الإثنان إلى حديث ذى

شيجون وكنا نرقبهما من بعد باسمين .

وسمعنا صاحبى الشيخ يسأل السلطان :

— وعندكم دواوين كالدواوين فى نظامنا المصرى ؟

وأجاب السلطان مزهوا : نعم .. نعم .. كثير .. عندى دواوين .

— مثل إيش ؟

ووجه الشيخ سؤاله وانتظر أن يقول له السلطان :

— ديوان الصحة وديوان الأشغال وديوان الحربية وديوان الزراعة .

ولكن السلطان ابتسم ابتسامة عريضة مزهوة واهتزت لحيته الترابية الداكنة اهتزازات الحاكم المعتز بنهضة بلاده وأجاب :

— عندنا ديوان شوقى وديوان حافظ وديوان الخليل .

وأخفى صاحبى الشيخ ضحكته فى أكمام قفطانه وأفلتت منا الضحكات لعدم وجود أكمام لأزيائنا ، وهرولنا من القاعة إلى أخرى نسترد فيها حرية الضحك كاملا .

ولم يقف الأمر بالسلطان عند حد الدواوين بل تنازل فاتخذ منا أصدقاء له فى المرتبة التالية لمرتبة صاحبى الشيخ ، وبدأ يوجه إلينا أبياتاً من الشعر تنطوى على كلمات مهجورة وألغاز ، ليتحدانا أن نفسرها له وليشعرنا بأن له قدم صدق فى الأدب عامة وفى الشعر خاصة وكانت أعين الحاشية تتراقص إعجاباً وهم يرون سلطانهم عالماً على هذا النحو وإلى هذا الحد .

واحد منهم فقط لم يكن يساهم معهم فى الإعجاب .. ذلكم هو صديقنا مطر .

مطر .. القائد العام :

ومطر عبد زنجى خفيف الروح والظل قصير القامة أفطس الأنف .. قد من البدائية وانتسب إلى إنسان الغابة .. لامع سواد الوجه .. ولامع بياض الأسنان ذو فك واسع وفم عريض وعينين حمراوين فى الأغلب الأعم وهو

دائما ضاحك.. حتى فى صمته يفتح فمه بالضحك لسبب ولغير سبب .. ونستطيع أن نقول بلغة ابن البلد فى القاهرة (شربات) وحسبك من حالته الصحية أنه يسابق سياراتنا إلى الحرم فيصل إليه قبلنا على القدم

مطر هذا — هذه الحلقة المفقودة بين الإنسان الأول وأناسى هذا الزمن — قيل إنه القائد العام فى ولاية هـذا السلطان وقيل إنه رئيس الحرس .. وقيل إنه الياور الخاص وقال لى السلطان نفسه (حارسى الخاص)

ومن عجب أنهم جميعاً يلبسون جلباباً أبيض (الدبولان) السميك فى حين أن مطر يلبس جلباباً من الحرير الشفاف الرخيص ليبدو من تحته ثوب أحمر قانى الحمرة أدنى إلى ما نسميه فى مصر (بالتفتاه) وإلى يمين مطر خنجر ذو مقبض ذهبى يضرب عليه (مطر) بين الحين والحين إرهاباً لنا .. ثم يطلق ضحكته التقليدية ليعيد الطمأنينة إلينا .

مطر هذا كان الأوحد الذى لم يساهم فى الإعجاب بالعلوم والآداب التى تتدفق أو تنساب من فم مولاه السلطان ، لأن صديقنا (مطر) لا يفهم النحو ولا الصرف ولايعنيه النثر أو الشعر ، وهو يفكر دائما فى شى واحد .. منحه سعود ابن عبد العزيز منحة مالية ضمن من منح من الحاشية .. وهو يعتزم الزواج من رابعة إثر عودته إلى الجبل الأخضر .. والحديث منه منصب على هذه الأمنية .. والتفكير فيه — إن يكن فيه تفكير — محصور دائما ومحصور فى تخيل هذه الزوجة الجديدة الرابعة .

ودواوين .. وكتب :

ونعود إلى الأدب فى الحجاز فأذكرك بحديثى عن الأخ أحمد قنديل مدير عام إدارة الحج ومؤلفاته التى أهدانيها .

والأخ أحمد قنديل كان مرة يزور مكة وكان ينزل فى (فندق مصر) وقد أرسل إلينا تصريحاً نستخدمه فى المرور بين مكة وجدة كلما طاب لنا أن نزور جدة أو نعود إلى مكة فى الفترة التى تعقب الحج ويحرم فيها الخروج من مكة

أو الدخول إليها بغير تصريح حتى تثبت نظافة الحج .

ثم تفضل الأخ قنديل فأرسل لى ولصاحبى الشيخ بضعة كتب من تأليفه بعضها شعر وبعضها نثر وعلى كل منها عبارة إهداء رقيقة ومهذبة وهى :

« الأبراج » و « أغاريد » و « أصداء » وكلها دواوين شعر و « كما رأيتها » وهو الكتاب الذى يصف فيه مصر التى أحبها كما رآها وكما هى كائنة وكما ود أن تكون .

وتصفحت هذه المؤلفات . . فعلا قدر هذا الصديق عندى . . ورأيت فى نقداته ظلا واضحا للناقد .. ورأيت فى شعره حلاوة وطلاوة وعمقا فى بعض المعانى وفلسفة فى بعض الآراء .. وقسته إلى النهضة فى المملكة العربية السعودية فلم يسعنى من هذه الناحية « النسبية » إلا أن أرى فيه شاعراً مجيداً وكاتباً قادراً ومفكراً وأديباً .

من هذه الوقائع العابرة ..

وفى هذا الجو المحدود ..

ومن بين الأناسى الذين لقيتهم ..

وعلى ضوء معلومات لى سابقة آمنت بأن فى البلاد السعودية أدبا وبين السعوديين أدباء .

وأحسبك تذكر من بين الأسماء اللامعة فى الشرق العربى شاعرا فحلا .. هو خير الدين الزركلى الوزير المفوض لوزارة الخارجية السعودية وهو اليوم سعودى الجنسية .

ولقد اكتشفت أخيراً أن أخانا أحمد موصلى وكيل وزارة الاقتصاد شاعر مجيد ولم أعرف أنه يقول الشعر حتى قضى عاهل الجزيرة الملك عبد العزيز فاهتزت شاعرية الموصلى .. وقال شعراً جزلا وفخما وثبت أنه شاعر أى شاعر .

أما الأسماء المعروفة من قديم فى شعر المناسبات فأشهر من أن تذكر ، ولا يجهل أحد قدر الشاعر الكبير ابراهيم الغزاوى ولكن الرجل قصر شعره على مولاه الملك وفى مناسبات معدودة ليحفظ على نفسه مكانها بعد أن اتخذ مكانه فى مجلس الشورى نائبا لرئيسه .. ويعرف المصريون طبعا أخانا الآخر فؤاد شاكر وشيطانه الذى لا يصحو إلا فى المناسبات المليحة ، وأما الكتاب الذين تجرى أقلامهم على صفحات « البلاد السعودية » و « أم القرى » و « المدينة المنورة » و « الرياض » فمعروفون بأسمائهم .

وأصدقاء .. أدباء :

بل إن لى من بين السعوديين أصدقاء أعرف أنهم أدباء من الخطابات لا من النتاج .. فأنا لم أقرأهم إلا كتباً منهم يحملها البريد إلى .. والكتاب أو (الخطاب) لا يتأنق فيه كاتبه ولا تحتشد له مواهبه لأنه لغة القلب من الصديق إلى الصديق .. ومع ذلك لاحظت أن الصديق عبد الله بالخير كان يرد أمامى على البرقيات التى يتلقاها الديوان فيجرى قلمه على الصفحات فى يسر وعجلة فتجىء العبارة جميلة ورصينة تشعرك بأن صاحبها أديب وكاتب .

غنية إذن بالأدباء هذه المملكة على حداثة النهوض فيها .. والغنى هنا نسبى طبعاً .

وكبير إذن رجاؤنا فى مستقبلها الثقافى المأمول وغدها الفكرى المرجو

فى طريق العودة

من مكة إلى جدة :

ونختصر الآن الطريق ونحزم الحقائب ونستعد للرحيل من مكة إلى جدة فى طريقنا إلى المدينة .. وقد يطرف بالنسبة لك أن نذكر أن العربة التى كانت تقلنا فى الطريق إلى جدة لحقت بأخرى لاحظنا أنها تقل الشيخ سليمان

سلطان الجبل الأخضر الذى حدثناك عنه قبلا « وحاشيته الكريمة » فمرقنا إلى جوارها ماضين إلى غايتنا .

ويبدو أن « الأمير » عز عليه أن يسبقه « بعض الرعايا » فأصدر « أمره السامى » إلى السائق السعودى أن يسرع ويسرع .. حتى يحرز قصب السبق علينا . . وأسرع السائق حتى لحق بنا ثم سبقنا . . وفى ابتسامة صفراء شامتة ونظرة نارية ثاقبة من سلطان الجبل الأخضر حدق بعينيه فينا . . ثم هز رأسه هزة من يقول لنا : « هل بلغت بكم القحة هذا الحد ؟ » . . وفجأة تعطلت سيارة السلطان عن السير . . وكاد يجن . . وهبط السائق يحاول الإصلاح عبثاً . . ومررنا بصاحب العظمة وأطلقت برغمى ضحكة . . خفت أن يطلق فى إثرها « غدارة » . . ولكن « مطر » قائد جيوشه ولابس الجلباب الأبيض .. والمتمنطق وحده بهذه الغدارة كان صديقاً لنا كما حدثتك قبلا . . وكان يكشف بكل قوة فى شفتيه عن أسنانه الوحشية البيضاء ليشاطرنا الشماتة والابتهاج .. ومرت الحادثة فى دقائق معدودات .. ولكنها كانت لوناً لا ينسى من ألوان التفكير عند سلاطين المحميات البدائيين . .

الملك عبد العزيز :

وفى فندق التيسير فى جدة . . ألقينا العصا فى انتظار الطائرة نستقلها إلى المدينة لزيارة الرسول . .

وكان صديقى الشيخ مصراً على أن نستأذن الأمير سعود ولى العهد (يومئذ) فى زيارة الطائف لنحظى بمقابلة الملك عبد العزيز .. وكنت فى داخل النفس أكثر منه شوقاً إلى هذه الخطوة لأنى لم أكن قد رأيت الملك وكان صاحبى قد رآه مراراً . . ولكنى كنت أحس — فى قرارة النفس أيضاً أن القدر لابد حائل دون هذه الأمنية وقل أن يكذبنى مثل ذلك الحس . .

ومضى صاحبى يلح على فى مفاتحة المسئولين . . وحرت بين الكرامة

والرغبة.. واستخرت الله وفاتحت الصديق الذى لاتخجلنى مكاشفته (وأعنى به الشيخ عبد السلام غالى) وسألته فى تحفظ إن كان يرى لزاماً أو واجباً أن نزور الملك فى الطائف .. وبمهارة راغ الشيخ الحصيف من الإجابة وقال « أبشر .. ويكون أفضل طال عمرك لو تتكلم مع الأخ بالخير » ثم مال عبد السلام كعادته عند ما يريد أن يسر إليك شيئاً وقال : « كلمة فى الأذن . المسألة تتوقف على الصحة أطال الله عمر مولاى صاحب الجلالة وسمو ولى عهده المعظم » وأكملت أنا ضاحكا : « وسمو نائب جلالة الملك » .

ولم يكن ميسوراً وجود طائرة إلى المدينة لأن كل الطائرات كانت تنقل الحجاج إلى الطور رأساً .. الحجاج الذين سبق لهم أن زاروا الرسول قبل الحج وجاء دور عودتهم إلى بلادهم .

وباء الجدرى :

وحدث فجأة وبعد أن أعلنت الحكومة السعودية نظافة الحج أن شاع فى جدة أن وباء الجدرى اكتشف فى « الطور » منقولا عن حجاج المغرب إلى الحجاج المصريين .. ثم شاع أيضاً أن كل حاج لابد أن يحجز فى محجر الطور أربعة عشر يوماً لا يومين ولا ثلاثة كما هى العادة .. وفزعنا وتريثنا .. ثم قيل لنا إن فى إمكاننا العودة عن طريق بيروت ومنها إلى القاهرة رأساً تفادياً للطور وكسباً للتساهل اللبنانى المعروف . وفجأة قيل إن المكتب الإقليمى للهيئة الصحية العالمية شدد النكير على عواصم البلاد العربية لتتخذ نفس الاجراءات التى يتخذها محجر الطور فلا جدوى من وراء بيروت .

ومع أن هذه الشائعات ثبت بعد أيام أنها مبالغ فيها .. فقد اتسع الوقت أمام صاحبى الشيخ ليعاود إقناعى بزيارة الطائف .

عدول نهائى :

وحدث أن دعيت لزيارة صديقى عبد الله بلخير فى مكتبه بالقصر

الملكى فى جدة . . وكان الزوار يملأون المقاعد وجلهم من زعماء الدنيا والدين فى البلاد العربية — فاستبقانى الصديق حتى ينصرف ولى العهد وينصرفوا . . ثم دعانى إلى جولة فى سيارته حول شواطىء جدة لنجتليها ونتنسم بعيداً عن العمران عليل نسيمها . . وفى خلال هذه الطوفة طرقنا موضوع الطائف فقلت « لبلخير » فى صدق وصراحة :

— أريد كأخ عربى ومسلم أن أوجه إليك سؤالا صريحاً أطلب عنه الجواب صريحاً .

— أبشر .

— هل ترى أن فى وسعى أن أحتفظ بكامل كرامتى إذا أنا زرت الملك عبد العزيز فى الطائف فى هذه الآونة ، فلا تفسر أى تفسير ؟ علماً بأنى أحمل لجلالته نسخة من كتابى القديم : « البرلمان فى الميزان » أحب أن أرفعها إلى مقامه هدية بريئة منى . وأجاب عبد الله فى صراحة :

— كأخ عربى ومسلم أجيب فى صراحة : « لا » فهل تريد المزيد ؟

— نعم إن أمكن .

— إذا كنت حريصاً على أن تظل السوادى الذى نعرفه فأرجىء هذه الزيارة إلى وقت آخر تدعى إليه .. فضلا عن أن فى وسعى أن أبثك سراً وهو أن جلالة الملك أطال الله عمره يشكو تعباً ولا أريد أن أقول طال عمره إنه مريض .

— اقتنعت فلا تضف جديداً . وأرجو أن ترفعوا أنتم إليه هديتى بطريق البريد .

— لك هذا .

وفعلا أعطيته نسخة الملك وبعد عودتى إلى القاهرة تلقيت خطاباً من رئيس الشعبة السياسية عن طريق السفارة السعودية فى القاهرة يبلغنى شكر

جلالته السامى ثم شاءت عناية الله أن يقبض إليه العاهل الراحل من قبل أن أراه ..

أجانب .. لا كالأجانب :

نحن الآن كما ترى فى جدة .. (جدة) ذات الميناء العالمى الحديث وذات التاريخ الذى ساهم سعود مع أبيه ومعاونيه فى صنعه .. ليقول للأحفاد غداً كيف غزا العمران هذه الصحارى .. وأقام على الشطئان هذى الموانى .. ونقل إلى القفار هذه الحضارات ..

نعم فى جدة الآن ربع مليون من السكان وقصور تجثم على الكثبان وتعلو على الجبال وشارع رئيسى واحد عريض وطويل .. يشق المدينة شقاً وما عداه ففروع منه .. وفى هذا الشارع أو على جانبيه تقوم أضخم البيوتات المالية والمصارف والشركات والمتاجر وترى من وجوه السمر والصفر والسود .. أضعاف أضعاف ما ترى من البيض .. أو قل ترى العروبة والإسلام ممثلين أصدق تمثيل وعلى أوسع نطاق — وقد تلمح أقواماً من البيض تخالهم يونانيين أو إيطاليين ثم تعرف أنهم لبنانيون فتحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه .

ولكن .. هل معنى هذا أن جدة لا أجانب فيها ؟

كلا .. بل قل إن جدة هى البلد السعودى الأول المسموح للأجانب على اختلاف أديانهم وأجناسهم بالإقامة فيه .. لأن السلك السياسى مقره جدة .. وكل ما يستلزمه وجود هذا السلك موجود .. فضلا عن بعض الألمانيين وغيرهم من الفنيين فى الأعمال الكبرى ، ولكنهم ليسوا كالأجانب فى القاهرة وبغداد .. إنهم أجانب لا مكان لهم فى المجتمع السعودى .. فإذا فرغوا من أعمالهم وكان لابد من اجتماعهم .. اجتمعوا فى دورهم وقل أن تلمح فى الطرقات أحداً منهم .

ولعل أكبر دليل على عدم وجود المكان المرموق للأوروبيين بين السعوديين أن أمور الضيافة الرسمية فى موسم الحج يعهد بها إلى الشيخ عبد السلام غالى وهو من حملة عالمية الأزهر ولا يعرف اللغات الأجنبية ..

ولم يشعر الشيخ قط بحاجته إلى هذه اللغات .. فالضيوف الكبار أما مستشرقون يعرفون الفصحى أو سياسيون جاءوا للتشرف بمقابلة الملك فتولى السكرتير الخاص مهمة الترجمة .. أو جاءوا لمقابلة المسئولين فى وزارة الخارجية وفيها طبعاً مترجمون .

وفى الموسم الفائت لم يحتج الشيخ عبد السلام إلا لمترجم بينه وبين الصحفى الباكستانى (الغلبان) الذى حدثتك عنه .. وكان هناك لهذا الصحفى ألف صديق وصديق يقومون بهذه المهمة .. وإن كنت قد ضبطت الشيخ مرة متلبساً بالتفاهم الضاحك بينه وبين الصحفى الباكستانى بلغة الإشارات .

وهكذا تستطيع أن تقول وأنت آمن أن سلطان الأجانب فى مملكة سعود معدوم أو فى حكم المعدوم .

الفصل السادس

ونحن نزمع الرحيل

أى نعم .. أحسسنا ونحن نعد الحقائب فى جدة ، أننا نزمع الرحيل إلى مصر .. مع أننا نرتقب خبرا من المطار عن قيام طائرة إلى مدينة الرسول .. فما معنى هذا الشعور ؟

معناه — وقد عرفناه بعد أن بلغنا المدينة وعشناه — أن كلامنا شعراً تلقائيا وهو يبارح جدة إلى المدينة .. إنه يبارح فعلا آخر حدود المملكة السعودية .. وأن مدينة الرسول بقعة نائية وطاهرة .. ومهجر هادىء متعبد .. لا يعرف من خلط المكيين بين الدنيا والدين كثيراً .. ولا يعرف شيئاً على الاطلاق من صخب التجارة والشطارة ومن مناورة هذه المفوضية أو هذه السفارة .. وصفير الباخرة ودوى الطائرة وضجة السيارة .. تلك المظاهر التى يعيش عليها سكان جده .

فلما خالجنى هذا الشعور العجيب من قبل أن أرى المدنية .. وعلى ضوء ما طالعته عنها وما سمعته من أفواه الذين زاروها .. بل على ضوء بعض أهليها وقد جمعتنى بهم فى مكة ساعة من الزمن .. أقول لما خالجنى هذا الشعور العجيب من قبل أن أراها .. وأفضيت به إلى كبير فى جدة .. شاعت الابتسامة العريضة فى وجهه المستطيل وقال :

— لم يكذبك شعورك يا أخى .. أتدرى التسمية التى نطلقها نحن السعوديين هنا إذا عرضنا لأم القرى ويثرب وجدة ؟

قلت : لا

قال وقد سره ان يجيئنى بجديد :

— نحن هنا نسمى جدة « مدينة الدنيا » ونسمى المدينة « مدينة الدين »

ونسمى مكة مدينة « الدنيا والدين » .. فهل تستغرب بعد هذه التسمية أن يخالجك مثل هذا الشعور وأنت تزمع الآن الإنتقال من مدينة الدنيا إلى مدينة الدين ؟

ودار رأسى دورة سريعة صامتة بين هذه التسميات منهم ، وبين هذا الشعور منى .. ولم أعد مشتغلا إلا بالساعة التى أبرح فيها جدة إلى المدينة .

ولكن تليفوناً يدق فى الفندق .. وشيخنا محمد سرور الصبان (مستشار المالية العام يومئذ والوزير الآن) يتحدث ويقرر أن عربته ستصل الآن إلى الفندق لتقلنا إلى قصره فى حى البغدادية — ضاحية جدة الجديدة — لتناول القهوة معه فى بستان القصر .

وأخذت وصاحبى الشيخ طريقنا إلى البيت .. وعنده — وفى بستانه الفريد الفاتن .. التقينا بالسيد صائب سلام رئيس وزراء لبنان السابق ومعه وزير لبنان المفوض فى جدة .. وجرى الحديث عذباً عما صنعت يدا عبدالعزيز وسعود فى تعمير جدة بعد إنشاء الميناء العالمى ورصف طرقاتها وتزويد الدور فيها بالمياه والنور الكهربائى .. فقال الشيخ سرور يرد على سؤال لى عن عدد السكان وحركة العمران :

— يكفى يا أخى أن أقول لك ما يأتى : اسأل أى واحد فى جدة عن جدة قبل ست سنين لا عنها قبل ستين سنة .. ست سنين فقط كانت إيه وبقيت إيه .. وبعدين نتكلم .

وقلت له :

— ما تقول انت بدال ما اسأل .

وقال الشيخ سرور :

— بلاش أقول إلا كلمة واحدة .. كان سكانها ٢٥ ألفاً فأصبح سكانها اليوم ٢٥٠ ألفا .. عشرة أمثال فى ست سنوات وتصور على ضوء هذه الحقيقة ما تحب أن تتصوره عن حركة العمران .

وهززنا رؤوسنا فى صمت

صقر الجزيرة :

وعرضنا خلال الحديث لصقر الجزيرة عبد العزيز . . وحرصه على أن يظل شيخ الصحراء كما كان فتاها . . وعلى ألا يعير المدنية الغربية أى التفات من حيث حياته الخاصة

ورأى الشيخ الصبان فجأة أن يجنح إلى التركيز وبلاغة الإيجاز فقال يوجه حديثه إلى :

— هل تعرف ماذا يأكل الشيوخ (أى الملك ؟) وأى أنواع الملابس يحرص عليها ولا يرتدى سواها وأى سرير يطيب له أن ينام فيه ويطمئن إليه ؟

قلت :

— طبعاً لا

قال :

— (الشيوخ) لم يغير قط فى مأكله أو ملبسه حتى الآن . . ولم يسترح قط فى مضجعه إلى غير ما كان يستريح إليه فيما فات من الأزمان

— بلغتكم . . كيف . . كيف ؟ (بكسر الكاف) .

وابتسم الشيخ محمد وقال :

— أقسم لك يا أخى . . وفى وسعك أن تسأل فى القصر وأن تسافر إلى الطائف وأن تتحرى كما تشاء أن عبد العزيز لم يغير طعامه قط . . ولم يأكل حتى الآن غير اللبن والتمر واللحم أطعمة البدو . . ثم عاد فامتنع مراعاة للسن عن اللحم واقتصر طعامه الآن على اللبن والتمر . . تماماً كما كان أيام شبابه مبعداً فى الكويت وأيام مجيئه غازياً للرياض وأيام حكمه فقيراً قبل تفجر الزيت .

— وملابسه ؟

— هى . . بعينها . . ويكفيك أن أقول لك إن الكوفية التى يلبسها الآن

تحت العقال هى الكوفية الحمراء التى يلبسها البدو فى الصحراء . . والتى لا ترى مثيلا لها على أصغر وجيه فى المملكة .

— عبد العزيز سيد الجزيرة ؟

— نعم . . وباليد يأكل .

— باليد يأكل ؟

— أهنأ الأكل .. ولا يطيب له إلا إن كان على سفر وترجل وافترش الأرض التى كان يفترشها غازياً .

— والملايين ؟

— ينفقها على الملايين .. ولا أهداف له غير أن يلقى الله غير متخم بطعام وغير مزدان بفراش أو رياش .. وغير مسئول عن ظلم حاق بإنسان .

— وإذا كان فى مملكته اعوجاج .. وقل أن تخلو مملكة من المعوج ؟

— تقسم غير حانث أنه لو علم به لقومه . .

— وكل خطأ وقعتم فيه . . لا علم له به ؟

— لو علم به لصوبه . وما بلغته شكاية فقير ضد أمير من بنيه .. إلا أخذ من الأمير للفقير . وحصنه وحماه طوال الحياة . والسوق هنا زاخرة بحكايات وأحاديث .

والدين . . فى بلد الدنيا :

جدة . . مدينة الدنيا ! !

هذه التسمية ما تزال تدوى فى أذنى . .

وقد عنيت بها وخرجت إلى الطرقات لأراها « على الطبيعة » ، وكدت اعتقد لفرط ما رأيت من حركة المال ونشاطه فى المصارف والشركات أن سكان « مدينة الدنيا » نسوا كل شىء إلا المال . . ورأيت فى اتخاذهم وحدة

تعاملهم (الريال) . . دليلا على أنهم ينسجون على منوال الأمريكيين « بالدولار » .

ولكن حادثاً صغيراً صادفنى فهز هذا الاتجاه فى نفسى هزاً بل كاد يقلبه إلى نقيضه تماماً . .

قلت لصاحبى الشيخ : هيا نشاهد سوق جدة يا مولانا وأحسبك خبيراً به طبعاً . .

وطاب لصاحبى الشيخ أن أراه خبيراً ، ونسى أن خمسة عشر عاماً مرت بين يومنا هذا وآخر حجة له ، وراح يتحدث عن غلاء أسعارها .

وقلت لصاحبى وهو يقارن بين الأسعار فى جدة ومكة :

— يا سيدى المسألة ليست مسألة مال وأسعار . . وإنما نحن حجاج . . وكما نودينا ونحن فى القاهرة فطرنا إلى عرفات لنقول لمن نادانا : لبيك اللهم لبيك . . كذلك أمر الأرزاق . . إن كان قد كتب لتاجر فى جدة أن يأخذ بعض رزقه من جيوبنا . . طرنا إليه طائعين أو كارهين وقلنا للرازق الذى دعانا : لبيك أيضاً .

ومشى صاحبى الشيخ معى حتى بلغنا مطالع السوق .

وفجأة استوقفتنى حركة غير عادية فيه . . وشرطة فى أيديهم عصيهم يرسلون صراخهم ومع كل طائفة رجل يبدو عليه الصلاح يلبس جلباباً أبيض وعلى كتفه انسابت كوفية بيضاء .

ورأيت التجار يتركون متاجرهم مفتوحة ويهرولون .. وبعضهم يرخون على البضائع شباكا ثم ينصرفون عنها مسرعين . . وصرخات الشرطة رتيبة لا تتغير . . والكلمة واحدة أو اثنتان تتكرران وأنا غير مدرك . . وفجأة ارتفعت أصوات المؤذنين بالصلاة ووضحت فى أذنى الكلمة التى يتصايح بها الشرطة بلهجات نجدية وحجازية لم أكن قبلا مدركا لها وهى :

ــ الصلاة . . الصلاة .

فإذا توانى تاجر اتجه إليه الرجل ذو الجلباب الأبيض وصاح فيه عنيفاً :

ــ الصلاة يا شيخ . . الصلاة يا شيخ .

وامتلأت عينى بروعة هذا المظهر . . امتلأ قلبى بجلال معانيه وجمال أهدافه وعلمت أن ذا الجلباب مندوب (جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وهى جماعة لها قصة ليس هذا مكانها .

وهكذا يسود المظهر الدينى . . حتى جدة (بلد الدنيا فقط) . .

بل هكذا يطبع الاسلام كل شىء فى هذه المملكة بطابعه . . يطبع ؛ دينها ودنياها . . ويطبع ؛ فجورها وتقواها . . والصلاة تؤدى فى كل مكان ومن كل مواطن وفى غير رياء . . العصاة يؤدونها تكفيراً عن معاصيهم لشعور فيهم بأنها ترتكب فى بلد ليس من الهين ارتكاب المعاصى فيه . . والصالحون يؤدونها فريضة عليهم من ربهم . . والحاكم يقف بنفسه فى الطريق ليزع بالسلطان كل من لا يوزع بالقرآن .

ولا أتحدث طبعاً عن الصلاة فى مكة حيث يعلو بناء الكعبة فى فضاء الحرم . . وحيث تدعوك دائماً للطواف من حولها . . وتغريك دائماً بالتشبث بأستارها والفزع إلى الأمن فى ظلالها .

وعار أن أتحدث عن الصلاة فى المدينة أو أدلل على التزام الأهلين لها فى أوقاتها . . وأنت فيها مشدود دائماً إلى مسجد الرسول ومجذوب . والرعدة دائماً تسرى فى أوصالك كلما لاحت لك مآذنه . . وكلما جلجلت من فوقها أصوات المؤذنين .

رأس القاتل ويد السارق :

ويالك من حقائب لا تريدين أن تحزمى قط . .

ويالك من طائرة لا تريدين أن تبرحى جدة إلى المدينة فى يسر . .

أهناك أحداث لا تزال تنتظر ؟

وتلقينا الجواب من القدر . . أن نعم .

هناك قصة لاثنين أعدما فى جدة تطبيقاً لحكم الشرع . . ومن حق آذاننا أن تمتلىء بهذه القصة امتلاء .

إعدام قاتلين .. يا لسوء الذاكرة .. ويد السارق .. ألم نرها وهى مقطوعة فى مكة . . كيف لم أحدث عنها قراء كتابى ؟ استمع يا سيدى :

أولا — حدث أن كنا نصلى الجمعة فى الحرم المكى بعد انتهاء الموسم وأعلن أن سارقاً ضبط وهو يسرق وحكم عليه الشرع بإقامة الحد أى قطع اليد اليمنى ، فلم نستطع أن نواجه الموقف وجىء بالسارق على بعد أمتار منا أى أمام دار الحكومة .. وعلى مرأى من عشرات الآلاف و « بنجت » يده وقطعت بنصل حاد ثم علقت اليد على باب (دور الحكومة) فمررنا بالسيارة أمامها وحدقنا فيها . . وعرتنا هزة ثم ذكرنا الأمن فغمرنا الرضى .

وثانياً — حدث أن قضى « الشرع » — أى المحكمة — على اثنين من القتلة بالإعدام قيل إن أحدهما هتك عرض فتاة ثم قتلها حتى لا تذيع الجريمة . . فجىء بهما إلى الساحة وعلى مرأى من الشعب وقد ربطت يدا كل منهم إلى خلفه وأجلس الاثنان القرفصاء وتلى عليهما الحكم ، وجىء بسياف يقال إنه أحد اثنين فى المملكة لا نظير لهما فى المهارة ، وكان يخفى سيفه تحت كمه . . وفى جزء من الثانية لم يتنبه فيها متفرج واحد من عشرات الآلاف الحافين من حوله .. مس السيف صدر المجرم فانتصبت قامته آلياً نتيجة لغمزة السيف .. فجرى السيف إلى عنقه ففصله .. وكل هذه العملية تمت كلمح البصر بحيث لم ير الناس إلا رأساً يثب بعيداً عن الجسم . . وتكررت العملية فى الآخر . . وكل منا يسأل أخاه . . كيف تم كل هذا بالله ؟

وبعد ؟

نعم وبعد . . أرانى أبتسم وأنا أرجع إلى هذه الأحداث . . وأحدث القراء عن ذلك الأمن . . وأرجع بالذاكرة مرة أخرى إلى الأمن قبل حكم السعوديين . . يوم كان حجاج بيت الله يذهبون إلى الحج ومعهم أكفانهم وأسلحتهم . . ويوم كان حرس المحمل مزوداً بالمدافع والبنادق . . ثم لا يغنى هذا كله . . ثم لا يكاد الركب يمر بين جبلين حتى تنهال عليه طلقات البدو . . أو يخرج على العزل من وراء الكثبان قطاع الطرق . . ويجردون الحجيج من أموالهم وحليهم . . ويذبحون من يقاوم منهم ذبح الشاة . . ثم لا تحرك حكومة « الأشراف ! ! » ساكناً .

ذكرت هذا كله . . فذكرت أمير شعراء العروبة شوقى وقد هاله ما كان يحدث فاتجه إلى سلطان العثمانيين — وكان الحجاز خاضعا لحكمه — يجأر بالشكوى ويصيح فى سلطان آل عثمان :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها فى مكة الأمم

تلك الربوع التى ريع الحجيج بها ... ألشريف عليها أم لك العلم ؟

أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... إن أنت لم تنتقم فالله ينتقم

أفى الضحى وعيون الجند ناظرة ... تسبى النساء ويؤذى الأهل والحشم ؟

ويسفك الدم فى أرض مقدسة ... وتستباح بها الأعراض والحرم ؟

ذكرت كل هذا وتساءلت :

— أليس من حق العروبة أن تفخر بهذا الملك العربى ؟

عبد الله السليمان والصبان :

حدثتك عن جلسة البستان فى قصر الشيخ الصبان . . وما جرى بيننا من حديث عن الملك عبد العزيز . .



عبد الله السليمان مرة أخرى

ولكن حديثاً آخر ذا بال .. جرى ويتصل أيضاً بالملك . كان قد شاع أن الشيخ عبد الله السليمان دعى فجأة إلى الطائف لمقابلة الملك عبد العزيز فطار الوزير إليها فى حاشية ولى العهد .. وعاد منها ليعد حقائبه على عجل .. لأنه أمر من مولاه بالسفر إلى أوروبا فى خلال يومين .

وكان طبيعياً أن أسأل الشيخ سرور عن سر ذلك السفر .. وكنت أعلم علم اليقين أن الشيخ محمد كبير العقل بعيد النظر تخفى أسنانه البيضاء الضاحكة ، ناباً ازرق على الزمان وبفعل الأحداث التى جرت عليه منذ كان من الثوار فى صدر الشباب وقاوم الغزو السعودى فيمن قاوم من شباب الحجاز .. ثم عاد فآمن بعدل عبد العزيز فانضم إلى الصف ومشى تحت اللواء .. وتجلت منه المواهب فوثب إلى الصدارة حتى غدا مستشاراً عاماً لوزارة المالية .. وحتى أمسى اسمه يذكر باهتمام .



سرور الصبان

وأدرك الصبان ما أرمى إليه من السؤال فتبدى من فوره فى ثوب فضفاض من الصراحة وهو يتدفق فى الإجابة تدفقاً .. شأن الرجل الذى يريد أن يشعرك أنه لا يعد جواباً ملفقاً .. وقص القصة وأكدها وخلاصتها أن الملك عبد العزيز معنى دائماً بصحة عبد الله السليمان .. فلما قدم بالطائرة إلى الطائف طبيبان عالميان .. لفحص حالة الملك أمر باستدعاء عبد الله السليمان ليراه الطبيبان .. فما كادا يوقعان الكشف عليه حتى هالتهما الحال .. وأنذرا

بسوء المآل .. إذا لم يسافر الوزير فوراً إلى إيطاليا وفرنسا وسويسرا ليعالج ببعض المياه المعدنية فيها .. وليستريح شهوراً فى إحدى المصحات وتحت رعاية الإخصائيين ..

وعجبت .. للأوضاع .. بين هذا الذى يروى .. وبين ذلك الذى يشاع ..

عجبت لرجل الشارع فى طرقات جدة وفنادقها يحاول أن يرى فى سفر الوزير المفاجىء .. معانى لا أول لها ولا آخر .. ويعزوها لأسباب يطيب لرجل الشارع أن يغزل خيوطها .. وينسج بردها .. ليرضى رغبة بعينها فى نفسه .. أدنى ما تكون إلى غبط الوزير على ما أتاه الله من نعم وما أولاه مولاه من ثقة .

وسرور الصبان .. يتحدث عن « الوزير » بهذا اللسان الحلو .. ويصف حب الملك لخادمه ووزيره وصفاً يكاد يرقى إلى مراتب الغزل .. فبأى القولين يأخذ المحقق ؟ .. أنا كمحب للوزير آخذ بقول الصبان .. أما كباحث ومحقق فلا أملك إلا أن أتريث وأواصل البحث .

نزوره هو

وقال صاحبى الشيخ بعد أن بارحنا قصر الصبان — ولصاحبى الشيخ فى بعض الأحايين لمعات ولمحات :

— نزوره يا أخى .

— من ؟

— الوزير .. ألم يأخذ علينا موثقاً برب البيت .. أن نتصل به إذا ما فرغنا من الحج .

— حصل .

— طيب .. وها هو ذا يزمع السفر .. فلماذا لا نبر بوعدنا .. وقد

تعرف منه شخصياً سر سفره ؟

— فكرة .

— يالله يا شيخ . . توكل على الله .

وتوكلنا واتجهنا بسيارتنا إلى بيت الوزير وفى الساحة الواسعة أمام بيته الكبير وقعت أعيننا على مئات السيارات تترتل أنيقة فخمة فى صفوف تليها صفوف . . وتنبىء أن القصر يموج بالزائرين .

ودق الحارس الخارجى الباب ففتح حارس داخلى فطلبنا إليه أن ينبىء الوزير بأننا نريد التسليم عليه فأغلق الباب وتوارى . . ثم عاد ومعه رجل كان قد رآنا يوم زيارتنا الأولى للوزير فرحب بنا ودعانا إلى الدخول فدخلنا . . وإذا الأبهاء تموج فعلا بالجالسين . . وبينهم عظماء وكبراء وبينهم العم عطا الياس صاحب فنادق التيسير بعضهم يتهامسون . . وكلهم سكوت .

وألقينا السلام وجلسنا .

وتركنا مرافقنا وانفلت داخلا .

ومضت خمس دقائق ثم عاد فأشار إلى وإلى صاحبى الشيخ . . فاتجهنا إليه بروح الرجاء فى اللقاء . . وعيون الجميع تتجه إلينا بروح التهيب لنا والتساؤل عن أقدارنا . . ولكن أقداراً من نوع آخر تحولت بإبرة الرجاء فجأة فقال تابع الوزير بعد مقدمة حلوة واعتذار يفيض رقة .. إن الوزير يرجو ويلح فى الرجاء أن تتفضلوا بالزيارة فى الغداة لأنه مجتمع بالسفير الأمريكى وكل الجالسين هنا من ساعات يعرفون هذه الحقيقة . . وقلنا : (وهو كذلك . . تحياتنا لمعاليه)

والتفت تابع الوزير إلى هذا الجمع الحاشد وقال فى بساطة كلاما باللهجة السعودية يصح أن نترجمه إلى اعتذار الوزير لهم ووعده بأن يلقاهم فى فرصة أخرى .

ووقف الجميع فى سكوت .. وأسرعنا نحث الخطى إلى الخارج ونحن نحمد الله على ما لقينا من تكريم وترحيب .

إلى بيروت وألمانيا :

وفى اليوم المحدد لنا ـ والمتروك لنا فيه حرية اختيار الساعة التى تطيب ـ كان الوزير قد طار إلى بيروت ليرافق أسرته إلى مصيفها . . وقيل لنا إنه سارع بالسفر قبل أن تشتد قبضة الحجر الصحى فى بيروت أيضاً . . وبعد أيام طالعنا فى الصحف المصرية أنه اجتاز مصر فى طريقه إلى أوروبا مستشفياً . . وبعد عودتنا إلى مصر طالعتنا صحفها بأنه يطوف بمصانع ألمانيا باحثاً ودارساً ومتفقداً . . وأن أصحاب المال والأعمال ورجال الصناعات فيها يتبارون فى تكريمه .

ويبدو أن الوزير الخطير استرد العافية بمجرد تغيير الهواء والأجواء .. أو يبدو أن التقدم الصناعى فى ألمانيا الغربية أنسى الوزير قرار الطبيبين العالميين ومياه فيشى وحمامات كارلسباد والمصحات السويسرية . . والوزير يؤثر على نفسه ولو كانت به علة .

هذه صورة من وقائع وأحداث .. عسى أن تحمل لك صورة من الرجل الذى عاصر عبد العزيز آل سعود من فتح الرياض حتى الآن ..

ومن عجائب الأقدار وكان ابن السليمان يحدثنا عن التربة النجدية الزكية التى يضرع إلى الله أن يدفن فيها بيد مولاه .. من عجائب الأقدار أن يموت الملك عبد العزيز .. وخادمه الوزير خارج المملكة .. فيعود إليها طائرا وقلبه يتفطر بكاء وينشج وفاء ولكنها إرادة الله .

الفصل السابع

فى المدينة المنـــورة

أطلنا .. أطلنا .. وما نزال فى بابنا الأول .. فهيا بالله إلى رسول الله فى يثرب .

أن مدير المطار (يهرج) — تليفونياً وفجأة — فى الفندق طالباً إلينا أن نكون فى المطار بعد ربع الساعة .. وصح العزم منا وسافرنا .

ولا عليك إن أعفيناك من وصف الرحلة بالجو من جدة إلى المدينة .. إنها المرحلة المتعبة أجساداً والمريحة أرواحاً .. وقد نسينا « بساط الريح » الذى أذكرنا بالقصص القديم عن سليمان الحكيم .. وواجهنا الشياطين الذين حاولوا أن يتمردوا على سليمان ونصره الله عليهم.. فجاءوا بعدالأجيال والقرون ينفسون علينا أن هدانا إلى ما هدى إليه سليمان من رب معبود .. ودين قيوم .. فأحدثوا فى طريقنا جيوباً جوية مروعة وبدأنا نواجه . « المطب » بعد « المطب » .. فيخيل إليك أن الطائرة تهوى رأساً أو تنقض .. فإذا انتقلت أمعاؤك من مكانها وأمسكت بها تحاول أن تعيدها بدأت الطائرة ترتفع ثانية لتهوى من جديد .. واصفرت وجوه .. وابيضت وجوه .. وكان من فضل الله على صاحبى الشيخ أن أنزل عليه سكينة النعاس فنام .

أخيراً .. بلغنا المدينة .

وفى المطار لم نجد أحداً فى استقبالنا فلم نشعر بأى نقص .

ألم أقل لك أننا شعرنا مذ بارحنا جدة أننا بارحنا حدود المملكة .. ودخلنا فى حمى الله والرسول والبلد التقى المأمول ؟

وأقلتنا شركة السيارات فى إحدى سياراتها إلى مكتبها فى قلب المدينة .. وكان العارفون يشيرون إلى آثار الهجرة والرسول .. أما أنا فلم أكن معهم ..

كنت أتطلع كلما دنونا إلى مآذن المسجد النبوى .. وأتلقى منها على البعد عبيراً طيباً .

عناية ولكن ..

وما كدنا نبلغ مكتب الشركة حتى قلنا للقائم بالأعمال فيه إننا سننزل على فندق التيسير .

واتصل الموظف بالفندق وقال لهم إن هنا اثنين من المصريين يريدان النزول على الفندق فابعثوا بسيارتكم .

والتفت إلينا الموظف طالباً ذكر اسمينا .

وما كدنا نذكر الاسمين حتى صاح : (ياعمى .. ياعمى) .

— إيه ياسيدى ؟

— أمير المدينة ياعمى يسأل عن هذين الإسمين من ثلاثة أيام عدة مرات فى كل يوم .

— بارك الله فيه .

— وفيكم ياعمى .. فقط يجب أن تزوروه أو تخطروه .

وأفهمنا الموظف أن الأمير مشكور .. ولكن أحداً لا يمكن أن يقول .. إن زياره الأمير تقوم على زيارة الرسول .

وأشرق وجه الموظف « المدنى » وتهلل .. وأقر اتجاهنا وباركه .. وجاءت سيارة الفندق فأقلتنا .. وهناك وجدنا جل الأخوان الصحفيين .. وكانوا قد سبقونا .. ومنهم بعثة (الأهرام) الثلاثية .. وأخونا ممثل المجلة الهندية .. ومصريون آخرون كثيرون .

فى الحرم النبوى :

واغتسلنا وتوضأنا .. ثم ارتدينا ملابسنا .. واتجهنا إلى الحرم النبوى .

ولا محل هنا للوصف .. بعد إذ رأيت لمسجد الرسول أكثر من صورة

فى أكثر من مناسبة .. وحدثتك صحف مصر حديثاً مسهباً عن « العمارة » القائمة فيه وعن الملايين التى رصدها عبد العزيز آل سعود من جيبه الخاص لإصلاح الحرم .

المهم أنى الساعة أمشى فوق الطنافس إلى ضريح الرسول لأقرئه السلام .. واقرىء صاحبيه أبا بكر وعمر .. عن يمين وعن شمال .. وألقى صفاً من الحراس حول الضريح يذودون عنه هواة التقبيل ووضع اليد على الحلقات .. وما بنا فى الحقيقة من حاجة إلى هذا الصنيع الذى ينكره الكثيرون من أنصار السنة المحمدية .. ويقبل عليه الأكثرون من حجاج البلاد الإسلامية حتى ليحلف العامة فى مصر من الحجيج (بالنبى اللى وضعت إيدى على شباكه) .

وليس فى نيتى أن أبدى فى مثل هذا الخلاف رأياً .. وقد ثبت أن الحديث الذى لا يأتيه الباطل يقول لنا فى صراحة وبساطة (وإنما الأعمال بالنيات) .. وما يدور بخلد جهول — ولو كان أخا فخولة فى الجهالة — أن يقاتل ويزاحم . ليضع يده على مقبض فى الضريح أو حلقة من نحاس ليشرك فى عبادة ربه أحداً .. وهو المسلم الذى يشهد فى صلاته بأن لا إله إلا الله وأن محمداً (المسجى داخل هذا الضريح) عبده ورسوله .. وإذن فالوهابى المستمسك بالسنة الصحيحة والأمى الذى يجهلها ويصر على ألا يعود إلى بلاده من غير أن يضع يده (على شباك النبى) يلتقيان بالنيات عند حقيقة كبرى .. هى الشهادة بأن الله واحد أحد .. لا شريك له أبداً .. ولم يلد ولم يولد .. وأن محمداً على جلال رسالته ليس إلا عبده .. وكل مجده فى صدق هذه العبودية .

وقد فطنت حكومة السعوديين على الزمان إلى هذه الحقائق .. فتخلت عن مصادمة الشعور ومصادرة العواطف .. وظلت تقوم على واجبها فى أضيق الحدود .. فتقيم حراساً لطافاً .. يقولون للطائفين من حول الضريح (اسعوا .. اسعوا) أو (وحدوا الله .. وصلوا على النبى) وهو قول ينطوى على التذكير الرقيق بحقائق الإسلام .. ومن غير حاجة للوعظ والإرشاد .

تبلد .. غير مفهوم :

وأكذب إن قلت لك إن الزيارة الأولى أحدثت فى نفسى الهزة الكبرى التى كنت أرقبها وأنت ترى أنى حريص فى كتابى على الاستمساك بالصدق مهما يكن الثمن .

وقفت إلى جوار صاحبى أمام المقام الطاهر . وقد تخلى الإشراق عنى .. أنا الذى كنت أتلهف شوقاً إلى هذا الحرم .. لأجتلى من خلال عمده وأروقته .. معانى أبقى على الزمن الباقى من الزمن .

وعدت إلى الفندق كاسف البال أبحث عبثاً عن الجوهر المصفى فى قلبى وأنطوى حزيناً على النفور العميق من ذات نفسى .. وأسأل لم كنت وحدى واقفاً كالتمثال جامداً كالصنم .. ألوك فاتحة الكتاب فى الفم .. بغير حس ولا فهم .. والمئات من حولى يهللون فرحين .. ويتزاحمون من حول الرسول .. ويوجهون إليه الخطاب فى إثر الخطاب .. ولعل من بينهم من كان يتلقى الجواب .. إلاى يامولاى .. إلا أنا ظللت المحروم وحدى من هذا الفيض يا ربى .. ألم أتجرد لك حاجاً .. أو ألم ألب لك فى عرفات بكل قلبى .. أو لم تشعرنى هناك بأنك غفرت لى وتقبلت منى .. أو لم تحطنى برعاية الناس جميعاً فأولونى تقديراً واحتراماً .. محكومين وحكاماً .. أو لم تملأ قلبى فى أم القرى بل فى جدة نفسها إشراقا ونوراً .. فكنت أرى مآذن المدينة بعين البصيرة : . وأجنح بخيالى إلى ابن عبد الله وأبى القاسم .. يبتسم لى من وراء المسافات والأبعاد .. ويعرف مدى شوقى إليه فيبارك هذه العاطفة فى .؟ أين ذهب هذا كله .؟ حتى الروضة الشريفة لفت صاحبى الشيخ نظرى إليها وذكرنى بها فذكرت .. وكنت أعرف أنها روضة من رياض الجنة .. وصليت فيها مع صاحبى .. وكان صاحبى وضاء الوجه واضح النبرات .. وهو يسبح بحمد الله الذى مكن لقدميه من الوقوف فى الجنة وهو على قيد الحياة .. أما أنا فوأسفاه .. أديت الصلاة لله .. كما أؤديها فى

أى مكان آخر . . وخرجت منها كما دخلت إليها متبلد الحس متجمد الأطراف . . فما سر هذا يا رباه ؟

الجواب على هذا السؤال سيجىء . . مقروناً بإشراق جديد . . فتمهل معى إلى ما بعد زيارة الأمير .

فى زيارة الأمير :

عدنا إلى الفندق فقيل لنا إن الأمير « يجلس » بعد صلاة المغرب .

و « جلوس الأمير » يعنى مبارحة (الحرملك) إلى (السلاملك) أو مبارحة البيت الخاص إلى القاعة الكبرى التى يحق لكل مواطن أن يزوره فيها .

وأعد الفندق سيارته لتقلنا إلى بيت الأمير عبد الله السديرى (وكيل أمير المدينة) لأن أميرها كما لا بد أن تعلم هو الأمير محمد بن عبد العزيز (ثالث أنجال الملك سناً ونفوذاً بعد سعود وفيصل) ولهذا فإن عبد الله السديرى وكيل الأمير يعتبر نائباً عن سموه فى حكمها ويلقب بلقب (صاحب المعالى) لا (صاحب السمو) ولا يعتبر (آل السديرى) من (آل سعود) وإن كانوا أخوالا قدامى للملك عبد العزيز نفسه بل أخوالا جدداً للأمير الشاب عبد الله الفيصل نجل الأمير فيصل بن عبد العزيز وزير الخارجية ونائب الملك فى الحجاز يومئذ (وولى العهد الآن) .

وبلغت بنا العربة بيت الأمير السديرى . . فوقف العبيد الجالسون أمام الباب ورحبوا بنا فسألناهم إن كان الأمير « جالساً » فقالوا « نعم » وأشاروا إلينا أن نتفضل بالدخول إلى القاعة أو (المجلس) فاتجهنا إليها . . فإذا نحن أمام قاعة كبيرة . . مستطيلة . . تحف بها من ثلاث جهات فيها (مصطبة) مرتفعة مفروشة . . استغنى عنها وصفت أمامها على سبيل التجديد كراسى (مذهبة) . . أما الجهة الرابعة التى لم يكن لها حظ من (المصطبة) فاكتفى بشغلها بالكراسى فهى الجهة التى يقع نصفها إلى يمين الباب وأنت داخل . . ونصفها الآخر إلى يساره أو يسارك وأنت داخل أيضاً .

سمو الأمير :

وما كدنا ندخل الباب حتى لقينا الأمير جالساً وحده إلى يمين الداخل فوق كرسى مذهب وعلى رأسه « عقال مقصب » وهو كما قلت لك لا يرتديه غير أبناء العائلة المالكة .

وألقينا السلام . . فنهض واقفاً .

ومددت يدى إليه . . فمد يده . . فى غمغمة لم أتبين منها شيئاً . . فرأيت أن أقدم نفسى إليه بعد إذ علمت إنه والى السؤال عنا ثلاثة أيام قبل وصولنا فقلت له :

ــ السوادى .

فغمغم بكلمة ترحيب لم أفهم منها شيئاً .

فساء الموقف صاحبى الشيخ ورأى وهو رجل دين وذو منصب شرعى له جلاله أن يقدم نفسه بدوره مقروناً بكلمتى (القاضى المصرى) .

ومع ذلك لم يكن حظه أكبر من حظى .

وكان أخونا ممثل المجلة الهندية قد طلب إلينا أن يرافقنا فى هـذه الزيارة فراح هو الآخر يقدم نفسه ولقى ما لقينا .

وإذن فهذه طريقتهم فى الترحيب .

ولـكن لا أكتمك إن صدرى ضاق بالطريقة . . بل لا أكتمك إنى بتفكيرى « المصرى » خيل لى أنى « أهنت » فرأيت أن أثأر لكرامتى ، وليكن ما هو كائن فقلت أوجه سؤالى للأمير :

ــ حضرتك . . تبقى أمير المدينة ؟

وأجاب فى اقتضاب وبلهجة بدوية لا تخلو من خشونة :

ــ لا . .

واستولت علينا الدهشة وإن كان الكابوس الثقيل قد انزاح عن صدرى فرأيتنى أقول بلهجتى المصرية :

— إمال تبقى مين ؟

ولم يفهم الرجل فعاد يغمغم بكلام لا يبين . . فاستطردت أسأله :

— أمال لابس عقال مقصب ليه . . إنت مش أمير ؟

وأجاب :

— نعم .

فتبادلنا نظرة عجلى واستطردت أسأل :

— من السدايرة ؟

— لا .

— أمال منين ؟

— شيوخ .

وكنا نعرف أن كلمة (شيوخ) وصف للملك نفسه أو ولى عهده وتطلق أحياناً على أى أمير من العائلة المالكة فسألنا أخانا .

— شيوخ منين ؟

— من سعود .

فلذنا بالصمت . . ولما طال قلت للأمير .

— وسمو أمير المدينة فين ؟

— داحين يبجى .

و (داحين) يعنى (الآن) أو (دلوقت) أو (حالا) لأنها تعنى بالفصحى « هذا الحين » .

ولم يكذبنا الواقع . . وسمعنا وقع أقدام . . وجاء فعلا أمير المدينة . . وكان واضحاً أنه الأمير . . لأنه دخل دخول صاحب البيت وألقى السلام

فنهضنا لتحيته وكان يلبس العقال الأسود العادى وهو رجل صغير الحجم سمح الوجه لا غبار عليه فى مجموعه .

مفاجأة :

وما كانت أشد دهشتنا أن نرى (الشيوخ) — مقصب العقال — يثب من كرسيه وثبا ويخر ساجداً أو يكاد .. ثم ينحنى على يد أمير المدينة ويطبع عليها قبلة الطاعة والولاء .. أو قبلة العبيد للأسياد ..

وكدت من فرط دهشتى أذهل عن واجبى للأمير .. ولاحظ صاحبى الشيخ هذا الذهول فسارع بتقديم نفسه إليه فرحب به الأمير كل ترحيب.. فتنبهت على الموقف وقدمت نفسى ، فذكره اسمى بالبرقية التى كان قد تلقاها فراح يمزج الترحيب المشبوب بالعتب الحار .. فشكرنا له العناية وأفهمناه سر بقائنا فى جدة كل ذلك الأمد .. ورجا أن يطول مقامنا فى مدينة الرسول .. فأسفنا على أن أعمالنا فى القاهرة تتطلب منا العودة العاجلة ورجونا أن يطلب إلى مدير المطار إخطارنا فى الفندق عندما تصل إلى المدينة أى طائرة قادمة من جدة فى طريقها إلى الطور ولو وصلت فى نفس اليوم .. ووعد الرجل آسفاً بتحقيق رغبتنا ، وجاءت القهوة العربية ثم الشاهى (الشاى) واستأذناه فى العودة إلى الفندق فأذن .. على أن يرانا قبل سفرنا ..

وخرجنا من بيت الأمير نضرب كفاً لكف .. وأمسى (لغز الشيوخ) شغلنا الشاغل .. وفى المساء اجتمعنا برئيس بعثة البوليس المصرى فى المدينة (واسمه الملاح إذا لم تخنى الذاكرة) ومعه بعض صحبه .. فذكرتنى رقة أحاديثه وروعة أعماله وأعمال زملائه .. برقة رئيس بعثة البوليس المصرى فى مكة (حسين سعيد) وروعة أعماله .. وما ظفر به هو وإخوانه من احترام السعوديين .. وراقنى أن أسجل هنا الحمد لمن أحسن اختيار هؤلاء المبعوثين فكانوا خير العناوين ..

وكنا قد سألنا ونحن فى مكتب الشركة عن الأخوين على حافظ وعثمان

حافظ صاحب جريدة (المدينة المنورة) فلما طلع صبح اليوم التالى زارنا الأخ عثمان حافظ فلم يجدنا فترك بطاقته على أن يعود بعد الظهر .. ثم بر بوعده وعاد فرأينا فيه أطيب مثل للزمالة والإدراك واللباقة والخلق .. وأصر على أن نصحبه فى سيارته لزيارة آثار الرسول فى مدينة الرسول وإصلاحات عبد العزيز وسعود فى العصر الحديث ..

وصلبنا .. وحللنا العقدة :

وطوفنا بفجاج المدينة وشعابها وضواحيها بضع ساعات .. من أحلى ساعات العمر .. وقصصنا على الأخ عثمان قصة صاحب العقال المقصب فضحك طويلا وحل لنا الزميل هذه العقدة .. فصاحب العقال من مخلفات الأشراف الفقراء القاطنين فى البادية ، ويحق له قانوناً لبس هذا العقال ، ولكنه لا يلبسه إلا فى موسم الحج ليجىء إلى أمثال الأمير فيعرف أنه من فقراء الأشراف الأقدمين فيمد له يد العون .. وقد أراد بلغته أن يقول لكم إنه كان يوما فى قومه (شيوخا) كالشيوخ الحاليين فى آل سعود .. وضحكنا . ولا أظننى وأنا أتعجل السفر إلى الطور والقاهرة مطالباً بوصف مسهب لهذه الآثار الإسلامية الكبرى التى تستأهل كتاباً كبيراً .. ويعفينى من المهمة وجود كتب فى الأسواق عرضت بالوصف لهذه الآثار .

وأقنع إذن من الطوفة بالجانب الروحى الذى جلا عن جوهر العاطفة ماكان قد ران عليها من صدأ .

صحوة :

نعم .. طوفنا بالمدينة وآثارها .. وخرجنا إلى الجبال وذكرنا قصة النضال بين الرسول والقرشيين ومعارك البطولة التى حفل بها تاريخ المسلمين . واجتلينا كتاب الإيثار بين المهاجرين والأنصار .. وزرنا البقيع .. ومر بالذاكرة الشريط .. ونحن نقف على قبور الشهداء .. فنذكر حمزه والوفاء .

ثم بارحنا المدينة إلى العين الزرقاء . . ورأينا الآلات الرافعة الحديثة التى أمر بها سعود . . لتمد الدور بالماء العذب . . ثم اتجهنا إلى مسجد قباء قبيل المغرب . . وهو أول مسجد أنشأه الرسول وهو قادم من مكة فهاجر إلى المدينة والتاريخ يمشى فى ركابه . . ليسجل أروع آيات النبوة فى أنق صفحات كتابه .

وفى مسجد (قباء) التقينا بالإمام الخطيب . . وكان يمشى إلى الثمانين فيما قدرنا . . وقال إنه شهد عهد الحسين . . ويشهد الآن عهد عبد العزيز . . ولاح أنه متخصص فى تاريخ الرسول وآثاره . . وبدأ يحدثنا فى طلاوة وذكاء عن هذه الآثار . . وخضنا غمار البحث عن حظها من التحقيق التاريخى أو العلمى فكان الرجل يقطع بأشياء . . ويرجح أشياء . . ويشكك فى أشياء . . وينفى أشياء . . وبين القطع والترجيح أشار إلى مكان بعينه صلى الرسول فيه .

وحان موعد صلاة المغرب فصلى بنا .

وبعد الصلاة . . اتجهت إلى حيث قام الرسول وصلى فأقمت الصلاة . . ركعتين اثنتين سنة لله .

وكان صاحبى الشيخ وإمام المسجد وزميلنا عثمان . . ينتحون ناحية ويتحدثون . . وقد هبت عليهم نسمات المساء حلوة رقيقة . . وجو المدينة كما لا بد أن تعلم ساحر وجميل . . وتربتها زراعية ففيها الخضرة والخلق والهواء العليل .

أقمت الصلاة وجاء الإشراق . . ويالها من هزة لا تنسى فى المسجد الصغير المتواضع . . ذى الساحة المكشوفة المفروشة بالحصى .

وزغرد قلبى بين جنبى . . وانتشى الضمير بين الضلوع . . أنا الساعة إذن أقف حيث وقف محمد بن عبد الله . . وقد وقف هنا كثيراً . . وقام الليل إلا قليلا . . ورتل القرآن ترتيلا . . ومن يدرينى إذا لم تكن قدماى الآن موضوعتين . . حيث وضع أبو القاسم أطهر قدمين فوق البسيطة ويرانى الله

أصلى حيث صلى رسول الله .. وأتجه نفس الإتجاه .. وأعيش تحت الظلال مغموراً بذياك الجلال .. ولا أصرخ ثانية ومن الأعماق .. صرخة الإشراق وأرى بعينى روحى رحمة الله تتنزل على .. وتحملنى على جناحيها إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى .

بل سأعود الساعة وفوراً إلى الحرم النبوى لأصلى من جديد فى الروضة الشريفة وأذكر هذه المرة بالحس المرهف أنها روضة من رياض الجنة فأخرج من المدينة وقد صليت فى البقعة التى صلى فيها الرسول بمسجد قباء وعشت لحظات من حياتى الدنيا فى روضة من رياض الجنة الفيحاء

أية سعادة أتاحها لى هذا النداء الذى جاء .. تحلق بى فى الأجواء .. وأنا أهتف لك يا ربى من حبات قلبى : لبيك اللهم لبيك .

مر هذا الشريط كله بقلبى .. وأنا أقف فى « قباء » أصلى .. فانحدر الدمع من عينى .. وذقت لأول مرة حلاوة التجرد من صغار الدنيا ومن غرور الأناسى .. وأدركت أن فى وسعى أن أكون أقوى من قوى الأرض جميعا إذا أنا اتجهت دائماً إلى السماء .. ورفعت رأسى دائماً إلى فوق وارتفعت بمشاعرى دائماً على قوى الجذب الوضيع الكامن فى الجانب الشهوى من أرض البشر .

ومضينا عائدين إلى الفندق .

وعدت إلى الرسول :

وقيل لنا من المطار : (ستأتيكم السيارة فى منتصف الليل تماماً) .

وسألنا : متى تبرح الطائرة المدينة ؟

وقيل : مع الشمس أو قبلها .

وقلنا : دعونا إذن نستمتع بصلاة الفجر فى الحرم

وقيل : لكم هذا وحدكم . . وإكراماً لكم ستعود السيارة فى الفجر إليكم

وذهبنا إلى الحرم . .

ولأول مرة بعد وقفة (قباء) أدركت أنى فى جوهرى المصنى موفور الإيمان بالله . . وبرغم كل العربدة الكلامية التى ننساق إليها بين الحين والحين كلما جمعتنا القاهرة بالمساكين الذين يرون فى أنفسهم مفكرين أحراراً . . وهم فى حقيقتهم عبيد لغريزة الاستعلاء على الآخرين . . وبطريقة الخروج على كل ما تواضع عليه هؤلاء الآخرون .

ذهبنا إلى الحرم .

ولأول مرة بعد وقفة (قباء) أدركت أنى حقيقة أستطيع أن أسلم وجهى لله وأرتفع فوق مطامع الحياة .

وفى الروضة الشريفة وقفت . . وأقمت الصلاة وتلوت قرآن الفجر . . فتفتحت عينى لأول مرة (بعد « لإيلاف قريش » فى البيت المحرم) على ما يحمل هذا القرآن . . من حلاوة وعمق وإعجاز . .

قرأت : (والضحى والليل إذا سجى . . ما ودعك ربك وما قلى) .

قلتها وأنا أحدق فى المقام الطاهر . . وأرى الرسول بعين البصيرة . . يأخذ الخوف بقلبه . . وتتعلق عيناه بربه . . مفعما بعتبه وبحبه . . لأن جبريل كف أمدا عن النزول بالتنزيل . . فتنفرج السماء عن الغمامة البيضاء . . ويجىء جبريل . . ليتلو على المصطفى قسم الله بالضحى والليل إذا سجى . . أنه ما تركه أبدا وما تخلى عنه لحظة . . ثم يفتح أمامه باب العطاء الربانى سخيا غير ضنين . . ويريه نصيبه العابر من الدنيا ونصيبه الباقى من الدين . . (وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) ويرد على العتب الحبيب بالتذكير . . ويعرض على ناظريه الشريط المقطوع النظير بداية من اليتم الذى قدر عليه ليأويه ربه . . خيراً وأحنى مما يأويه الوالدان والأقربون .

تلوت قرآن الفجر .. وحدقت فى المقام بعينى قلبى فرأيت محمدا وأبا بكر .. ثم رأيتهما قبل ثلاثة عشر قرناً فى الغار والله معهما .. ثم رأيت عمر الذى أوغل بعد الإسلام فى الحب بنفس العنف الذى كان يوغل به قبل الإسلام فى الخصام .. حتى لم يكد يذكر ساعة وفاة الرسول أن الله وحده هو الحى الذى لا يموت .. وأن محمدا قد مات .

وأنا إذن أقف الساعة بين يدى أروع قطعة من تاريخ البشرية فى مرقاها الأعلى وبرجها الربانى .. مسجاة أجساد أبطالها داخل هذا المقام الطاهر ترف من حولها أرواحهم .. تبارك كل هؤلاء الحجيج الجائين من كل فج عميق .. وتبشرهم بأن الله غفر لهم ..

وما كدت أفرغ من الصلاة .. حتى خيل إلى — وأنا صاح مفتوح العينين — انى أسبح فى نور علوى لا أعرف له من الأنوار نظائر .. وأنه يلفنى فى أبراده لفا .. ويطلب إلى أن أطوف فى أبهائه طوفا .. فنهضت ولا أدرى ما صنعت .. وكل الذى أذكره أنى طوفت بالرسول وصاحبيه وطوفت .. ووقفت عند فجوة قيل إنها باب فاطمة فذكرت ابن أبى طالب وذكرت الحسن والحسين .. وعاد تاريخ الإسلام يبدأ من جديد .. من مشرق التوحيد .. ويمر الفيلم بدءا من التعذيب الذى احتمله الرسول وصحبه فى مكة وانتهاء إلى الغدر الرخيص بسبط الرسول يوم اهتزت السماوات العلا لمقتل الحسين بن على ..

وغام الإسلام فى ناظرى مرة أخرى .. وانتقل من الإمامة إلى الملك ومن الدين إلى الدنيا ومن الخلفاء الراشدين إلى صاحب الجلالة معاوية وأصحاب الأبهة خلفاء بنى العباس فى بغداد .. ولا أدرى لماذا وقفت طويلا عند كلمة (بغداد) وما لقى الإسلام فيها دائما من متاعب .. ثم لم أشأ أن أطيل المكث . فواصلت حول المقام الطاهر طوافى أشكو للرسول النبى بثى وحزنى مما يلقى الإسلام الآن من إذلال على أيدى، غير المسلمين ..

ثم رأيتنى أكف عن الطواف وأجلس قبالة المقام .. وفى صحن الروضة .. وأحس بالإشراق يملأ صدرى .. فأذكر صحوة صحاها الإسلام مرة أخرى .. لحكمة عليا .. ثم عاد إلى النكسة ..

ذكرت عمر بن عبد العزيز وكيف أذن له فى أن يحي عهد عمر بن الخطاب وعجبت ثم رأيتنى أبتسم

ابتسمت لأن فكرة جديدة أضاءت ظلمات نفسى وملأت بالنور كل رأسى .. فهززت هذه الرأس وسكت .. ثم حدقت فى المقام الطاهر وحدقت ، كأنما ألتمس من داخله الهداية إن كنت ضللت .. والإجابة عما سألت

عبد العزيز . . وابن عبد العزيز :

نعم فكرة أثارتها ذكرى حملت اسما مفعما بالعدل والتقوى : (عمر ابن عبد العزيز) .

فهل كان هناك إرهاص . . فى هذه التسمية : (ابن عبد العزيز) . . وهل كان مصادفة قيام (عبد العزيز) الجديد بحراسة الحرمين والجزيرة فى عصرنا الحالى ؟.. وهل يبشر (ابن عبد العزيز) القديم بمقدم (ابن عبد العزيز) الجديد ؟..

إلى الطائرة :

ونادانى صاحبى الشيخ (يالله يا أستاذ . . موعد الطائرة) .

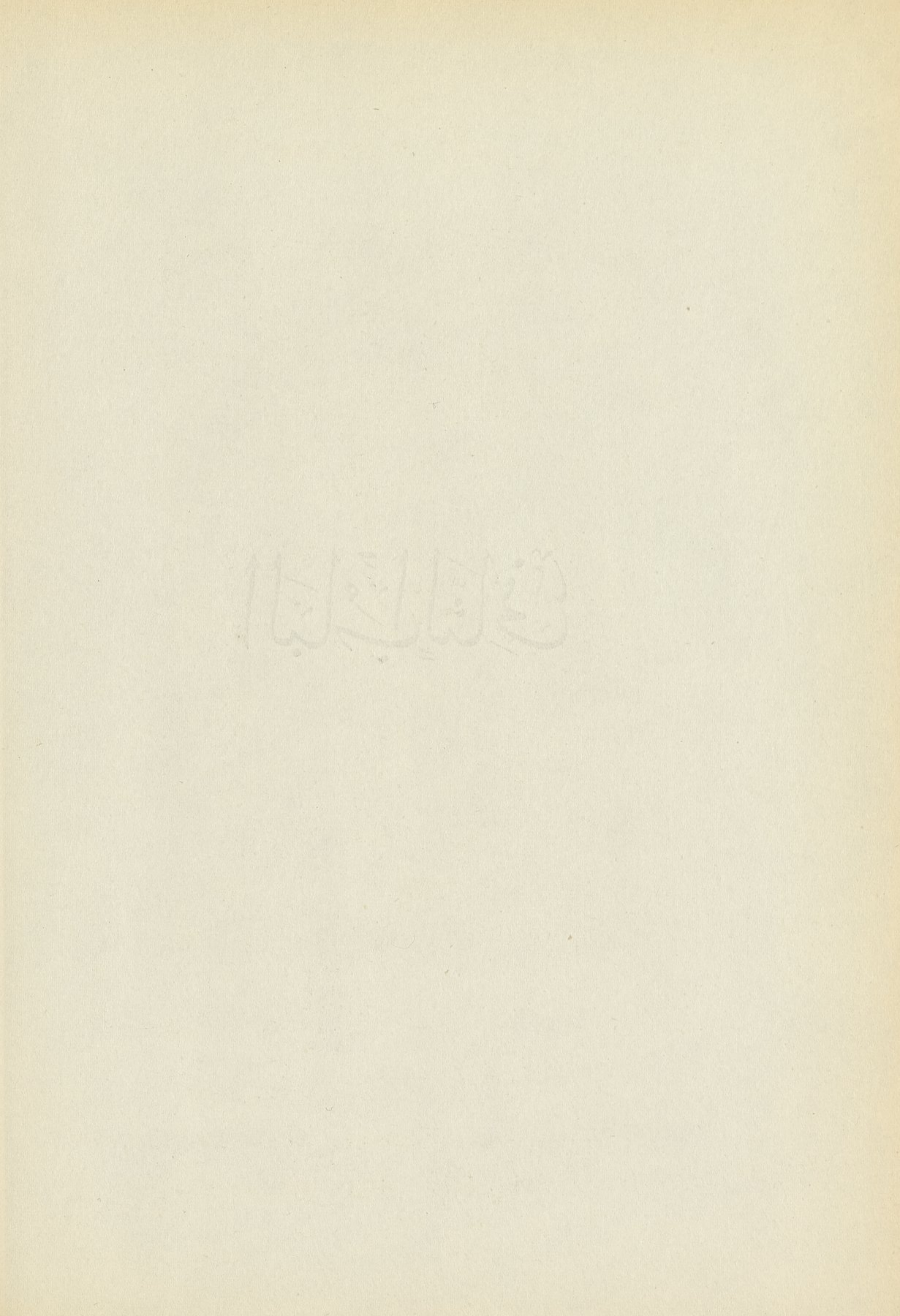
وانتفضت . . لأن النداء الذى جاء هذه المرة . . كان نداء إنسانياً محضاً .. أخرجنى من نور الدين إلى الدنيا ، فأذكرنى بأنى على موعد مع الطائرة . . والطور . . وعلى موعد مع الرجعة إلى قاهرة المعز لا إلى مدينة الرسول . . فتنهدت . . وتبعت صاحبى إلى السيارة فى صمت . . وأخذنا طريقنا إلى المطار بعد أن بعثرنا ما تبقى لدينا من عملة السعوديين على الفقراء

المحيطين بالحرم . . لأن « الطور » أرض مصرية . . والعملة فيها عملة مصرية .

وفى المطار .. وجدنا فى توديعنا الصحفى العراقى الشاب (عبد العزيز بركات) وكان يحمل معه عملة سعودية . . فأغدق علينا من قهوة المقصف وشايه ومرطباته كل ما طاب لنا تناوله . .

وارتفعت الطائرة فى الجو معطرة بمطار يثرب باسم الله مجراها ومرساها . . عائدة بنا إلى أرض الوطن . .

البابُ الثّاني



الرجل الذي وجدته..



فرعوني - اذن - أهدي اليه فخورا..
هذا الكتاب الثاني من نتاجي
أجل .. الى مقامك السامي يا صاحب الجلالة
أهدي هذا الكتاب

الفصل الثامن

وحلقت بنا الطائرة — سعودية هذه المرة — فى طريقها إلى الطور .

وصاحبى الشيخ وطنى فاضل ينكر الاستعمار والمستعمر ويكره الانجليز المستعمرين . . ولكنه تلفت هذه المرة باحثاً وبان عليه الأسى وران عليه الوجوم . . واختلست إلى عينيه نظرة عجلى . . تخيل إلى أنه يبحث عن المضيفة « الانجليزية » وينسى هذه المرة أننا إنما نعود على طائرة « سعودية » . . وأن المضيف هنا « رجل » . .

وأراد صاحبى الشيخ أن يعرب عن ضيقه بهذه الظاهرة فدار بعينيه فى الطائرة وقال وقد هز رأسه وزم شفتيه : « ما أبعد الفرق بين طائراتهم — أى الانجليز - وطائراتنا » وقلت أرضى صاحبى : (بين كل شىء عندهم وبين كل شىء عندنا) وصاح فى حماسة : « أى نعم . . ولا إنكار للحقائق » ثم خشى فيما أظن — وما آثم الظن أحياناً — أن أطالع فى عينيه ترجمة أخرى لعبارته البريئة فأغمض عينيه ونام .

وكنت فى حاجة إلى نوم صاحبى الشيخ . . لأصحو . .

فرغت منه وفرغ منى . . ويسرنى بهذه المناسبة أن أذكر أنه صديقى وقريبى فضيلة الشيخ عبد الفتاح عطاش القاضى الشرعى السابق والمحامى الشرعى الآن وقد تعمدت أن أحجب عنك اسمه لتشبعه دعابة وليحمل عنى فى ساحة الأسلوب القصصى مهمة الرفيق فى الطريق .

فرغت منه وفرغ منى .. وأريد أن أخلو إلى نفسى . . وأمرى ..

لقد حدثت أشياء كثيرة وخطيرة لم أشر إليها قبلا . . لتجىء هنا — فى

مكانها — وجرت بحوث سياسية وعربية وإسلامية بيني وبين الكثيرين .. وخرجت منها بالناقوس الذى وقعت عليه يدى فجئت : « أرسل دقاته مجلجلة فى آذان قومى أرج بها أعصابهم وأفتح عيونهم على ما يجرى فيما نحسبه صحارى من تفكير وتدبير » .

ونحن نستهدف فى هذا الباب خططاً وأهدافاً ونستهدف شرقاً وعروبة ولا نستهدف أشخاصاً لذواتهم .. أو دولا لذاتها .. وعلى ضوء هذه الحقيقة وجب على أن أعفى قلمى من ذكر « بعض الأسماء » .. لأن من بين المسئولين أو غير المسئولين رجالا أعتز بما أولونى من ثقة وأعرف أقدارهم تماماً .. وقد توثقت عرى الرجولة الموصولة بينى وبينهم فلم يعد من حق — كرجل أعطى موثقاً — أن أشير إليهم أو أدل عليهم أو أحرج مراكزهم أو أثير أى غبار حول آرائهم .

ولدى من الشجاعة — والحمد لله — ما يجعلنى أحتمل راضياً مسئولية « الفكرة » التى كونتها .. و « الرأى » الذى أبديه .. و « الهدف » الذى أدعو إليه .. ولا إخالنى مطالباً — على كل حال — بأن أقدم حساباً لأى كائن .. عن الوسائل التى كونت بها « الفكرة » .. أو أقمت عليها « الرأى » .. أو رسمت على ضوئها « الهدف » .. وكل ما يعنينى أن أصادف توفيقاً من الله .. فيسدد خطى الكتاب إلى خير العروبة والشرق والإسلام .

خطوط واتجاهات :

وقد استسلم صاحبى الشيخ للنوم فنام ...

أما أنا فأطبقت جفنى .. لأرتب بعين الخيال على شاشة الشهر الذى أمضيته فى جدة ومكة « أفلاماً » تليها « أفلام » حاملة إلى .. صوراً من

الأحداث التي مرت بي . . ومن الأحاديث التي انتهت إلى مسمعي . . ومن الآراء التي أفضوا بها إليّ .

و يد الله :

وكان أول خاطر وثب إلى نفسي فجاشت به . . وإلى ذهني فتريث عنده هو التساؤل التالي :

— عبد العزيز منشىء هذه المملكة . . أرسى أساسها مكيناً على الصخر . . وأدى رسالته على صورة عجيبة وفق فيها بين ما أراده هو وما أراده العصر . . فهل كانت يد الله فوق يديه . . وهو يرسى الأساس بهذه المتانة . . ويؤدى الرسالة على هـذه الصورة . . ويعلو بالبناء بطيئاً وعلى مهل . . كأنما يعطى المثال أو النموذج ثم يتوقف . ؟ وهل كانت عين الله — لحكمة أرادها — ساهرة على تنشئة بنيه على الغرار الذى جاءوا عليه . . ليكونوا حلقات ذات أهداف . . فى سلسلة المشيئة التي يلمح الشرق العربى اليوم خطوطها العريضة واتجاهاتها المرسومة . ؟ أم هى الصدف وحدها تحدد لعبد العزيز موعداً لا يبرحه . . فيه ينفض العبء عن كاهله ويسلم الزمام لولده . . ويتسلم سعود الزمام فى فترة بعينها لا يصلح غيره لها ؟

هذا السؤال الطويل . . أرى الإجابة السريعة عنه عسيرة برغم أن الهواء عليل .. والطائرة تميل إلى النزول إلى ميناء (الوجه) الصغير لتتزود بالوقود . وصاحبي الشيخ يفتح عينيه ليسأل : أين نحن ؟ وكنت أعرف أن ميناء الوجه على الشاطىء السعودى من البحر الأحمر يواجه ميناء القصير المصرى على الشاطىء الآخر . . فقلت له ما أعرفه فرضى وابتسم . . وأغمض عينيه ونام .

ولكن . . :

ولـكن هاتفاً يهتف بى وأنا غارق فى التفكير : أن تمهل . . إن عليك هنا لواجباً ضخماً . . عليك أن تسجل فى ذهنك أولا أشياء وأشياء عن الرجل

الرجل الذى صنع التاريخ



عبد العزيز آل سعود صنع تاريخ الجزيرة
وأسس المملكة السعودية .. ودخل التاريخ
الإنسانى

الذى أرسى الأساس وأقام المثال . . وأشياء أخرى عن الآخر الذى تسلم الزمام وتولى البناء . . وبغير هذه « الأشياء » و « الأشياء » قد يتعذر عليك أن تصل إلى الجواب . . .

والصورتان ضخمتان . . ومن حولهما صور كثار . . ولكنى أعرف الآن (عبد العزيز) بما سمعت وقرأت . . وأعرف (سعود) بما سمعت وقرأت ورأيت .

فى ميناء الوجه :

وجرت الطائرة فى يسر على رمال الميناء ثم كفت . . وصحا صاحبى الشيخ مرة أخرى . . فقلت له ولصحبى :

— دعونى . . أمثلكم فى استطلاع هذا المنظر الساحر : منظر الميناء الصغير . . والوقود يعبأ فى الطائرة . . وعلى مرمى البصر لا تقع عيناك إلا على موظفين فى المطار يعدون فى أرجائه يمنة ويسرة .

ولم أتجه إليهم . . بل تركتهم بعد أن سلمت عليهم واتجهت إلى الشاطىء أعابث الرمال والماء لأواصل التفكير . . كأنما أنا مطالب بالتعجيل به حتى فى هذا الميناء الصغير . . ولكنها الخواطر تنتعش — كالأجسام — فى بعض الأحيان .. إذا ما رف عليها نسيم البر أو نسيم البحر .. وفى ميناء الوجه يلتقى النسيمان .. وتأخذك النسمة مرة من يمين .. ومرة من شمال ..

وكنا فى الصبح .... وكانت الشمس ذات دفء حلو .. فجلست أحفر بيدى فوق الرمال رسوماً لا أعنيها .. ولا يد لى فيها .. إنما هى رسوم بها ترتب أعصاب اليد .. شبكة الأعصاب فى الرأس .. ليظل قطار التفكير فى طريقه ..

المنشىء . . والمؤسس :

عبد العزيز بن عبد الرحمن . . آل سعود . . ما قصته فيما يتصل الساعة بتفكيرى وأنا رابض على شاطىء البحر الأحمر ؟

الشاب الذي استرد ملك آبائه



ولم يكن معه غير أربعين من الشبان فتح بهم
الرياض.. وأقام مملكة السعوديين..
هذا هو عبد العزيز من قبل خمسين عامًا

وكيف بسط هـذا الرجل سلطانه طويلا على ذلك الملك الكبير وأطل بهيبته على شواطىء الخليج الفارسى واتصـل فى حدوده المترامية بأكثر من جارة ؟

هذا الرجل الذى صنع تاريخ الجزيرة ، وتخطى السبعين محتفظاً بالبصيرة ، لم يكن غافلا أبداً عن تطور العصر خارج ملكه (بضم الميم) أو عن تطور الوعى داخل هذا الملك . وكان يريد ألا يبرح الدنيا إلا وهو مطمئن على أن ولى عهده قد قبض على الصولجان بيد لا تهتز .

فلماذا يريد أن ينفض يده الآن من هـذه التبعات . . ولماذا يريد لولى عهده أن ينهض بها فى هذا الوقت بالذات ؟

لهذا السؤال دافع . . لقد أذن كبير لنفسـه فى أن يبثنى ونحن فى مكة الحقيقة التى تعاون الجميع وتعاونت التقاليد على إخفائها . . وقال لى (إن عبد العزيز راحل . . إنه فى صحوة الموت . . ولكن شيخ الجزيرة جبار كالجزيرة . . وصحوته قد تطول أسابيع . . فقط أحب لك أن تبنى من الساعة أحكامك على أن صقر الجزيرة يحلق هـذه المرة إلى فوق . . وسيواصل التحليق . . ولن يعود) .

ذكرت قولة ذلك العليم .

ذكرتها وأنا أعبث برمال الشاطىء فى « ميناء الوجه » ومددت البصر بعيداً إلى البحر . . فذكرت الجزيرة العجيبة التى هبط عليها وحى السماء مرة فأرست للبشرية قواعد الخير والجمال فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم تساءلت : أتكون السماء قد أذنت برد المجد مرة أخرى . . وبالبناء العصرى على هذه القواعد ؟

أنا لا أستبعد شيئاً على هذه الجزيرة . . العجيبة فى كل شىء . . حتى فى أهوائها أجواء الطبيعة فى مناطقها وأجواء الأناسى فى صنوفهم . . فى يوم واحد

بطائرة نفاثة سريعة .. تذرع خلاله المملكة الطويلة .. فتعيش فى مناطق تناهت فى الحرارة وأخرى تناهت فى البرودة .. وثالثة رق فيها هواء الربيع وطاب .. وجرى فيها الماء السلسبيل وعذب . كذلك الشعب السعودى .. فيه صنوف وصنوف من الأناسى .. لولا فطرة الصحراء واجتماع بنيها على الانطلاق لما قامت بينهم رابطة . ولولا الإسلام لما وجدت بينهم عقيدة .. ولولا عبد العزيز لما وحد بينهم نظام . وحتى الحجاز وحده تكاد تلمس الفوارق بين الأناسى فى مكة والأناسى فى المدينة وبقايا القرشيين فى الطائف وما حولها ، فما بالك بنجد المجمعة على مذهب الإمام الأجل احمد بن حنبل .. وما بالك بالحدود الشرقية وفيها قلة من الشيعة . وما بالك بالبدو ولهم تقاليد تدير الرءوس .. ولرءوسهم شعور طوال .. مجدولة على صور الضفائر .

عبد العزيز آل سعود وحد بين أولئك جميعاً .. واجتذب إليه هؤلاء جميعاً . وأقام الحكم فى كل فريق على طريقة ذلك الفريق ، فرأى فيه الحجازيون ملكا . ورأى فيه النجديون إماماً ، ورأى فيه البدو صقراً ، وفى بعض المناطق ينادونه : « يا مولاى » وبعضهم ينادونه : « يا طويل العمر » وبعضهم يصيحون فيه : « يا عبد العزيز » .

وكان لا بد إذن أن تكون لعبد العزيز سياسة بعيدة المدى . ونظر بعيد المرمى .. وأن يضرب حول هذه المتناقضات سياجاً يسد الثغرات .

وضاعف حاجته إلى « سياسة بعيدة المدى » وجود خصوم له خارج المملكة . أشداء عليه رحماء بينهم .. ويكفى أن نذكر منهم بريطانيا . وله معها قصة تستأهل كتاباً . وليست أقصوصة البريمى التى تسمع بين الحين والحين أنباءها إلا مظهراً مستحدثاً لتلك الخصومة القديمة . ولا نحب هنا أن نذكر خصومات « أخرى » لأن للعروبة فى هذه الآونة أكثر من حق على أقلامنا .

وكل الذى أريد أن أقرره هنا أن عبد العزيز كان فى حاجة إلى « سياسة بعيدة المدى » وهى التى حدثنى عنها أحد الصحبة من المسئولين هناك .

شخصية ونسخة :

قال محدثى إن عبد العزيز كان يدرك أنه من شخصيات التاريخ التى لا تتكرر ولكنه لاحظ أن من بين أبنائه – وعددهم أربعة وثلاثون – ابناً واحداً خلقه الله على صورة أبيه . وركز كل طباع عبد العزيز فيه . ونعنى به «سعود» .

فلما أيقن عبد العزيز أن سعوداً غدا نسخة منه .. دعا شيوخ القبائل إليه فبايعوه . ثم بايعه أبوه ونودى بسعود ولياً للعهد .

تركيز السلطات :

وبدأ عبد العزيز يشرك ولى عهده على مهل فى إدارة دفة الحكم وتفجرت ينابيع البترول .. وحان أن يرسى الحجر الدرى فى أساس النهوض الجديد . فرأى أن يرسى هو الأساس وأن يترك لسعود مهمة البناء . تحت إشرافه وبإرشاده على ألا يعطيه من حرية التصرف إلا بقدر ما يحسن .

ومضى سعود فى الشوط وئيداً وعلى مهل

ومضت خلفه مملكة السعوديين ترقى فى غير عجل

وأثمر كل عود غرسته فى التربة يد سعود

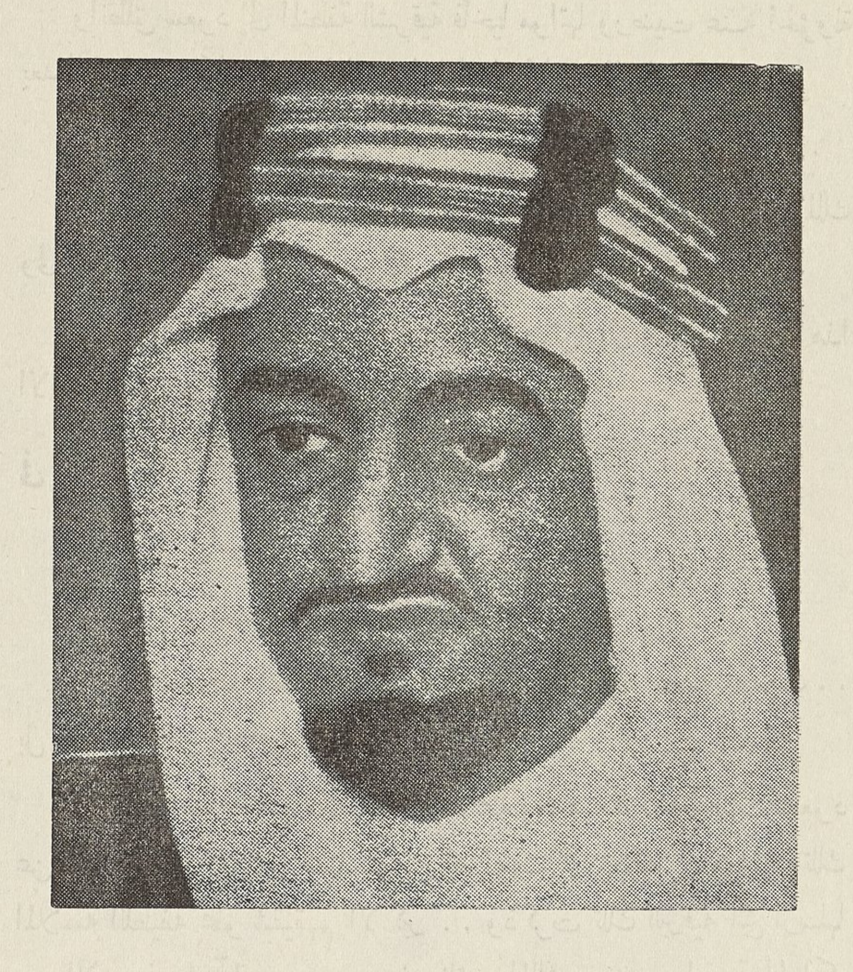
وبدأت يد عبد العزيز القوية القابضة على الزمام كله تتراخى عن هذا الزمام شيئا فشيئا

واشتعلت الغيرة البشرية فى بعض القلوب الشابة

وفى حكمة وبحذر عالج الملك الداهية كل هذه النيران المستعرة حتى أخمد أوارها .

وفى حكمة وبحذر أطلق يد سعود فى الإصلاح فانطلق . انطلق إلى مكة والمدينة فرضى عن إصلاحاته فيهما المسلمون فى أقصى أطراف الأرض كما رضى أهل الحجاز ، وكانوا قد ضللوا حينا عن حقيقة ولى العهد .. وانطلق

السياسي العالمي الذي أنجبته نجد



أجمع الساسة في أروقة الأمم المتحدة على أن
فيصل آل سعود سياسي عالمي تخاله لين العريكة
فاذا نازلته ألفيته عربيًا حرًا قوي الشكيمة

سعود المصلح إلى جدة والرياض فجدد وجدد .. حتى رضيت الحضارة وتنبهت عليه عيون الأجانب

وانطلق سعود إلى المنطقة الشرقية فأحيا مواتها ورضيت عنه الخؤولة بعد الأعمام .. فكان البعث الجديد فى الحسا والخبر والدمام .

ولكن عين عبد العزيز التى لا تنام ساهرة دائماً على سعود .

لقد حان الوقت لما هو أكبر وأخطر . حان الوقت لأن يرى الملك ولى عهده مطلق اليدين محرراً من كل قيد . قابضاً على كل زمام .

وكان هذا الموسم الذى أعود الساعة منه طائراً إلى «الطور» بداية هذا الانقلاب الكبير .

فى الجو :

ونوديت من موظفى المطار : (الطيارة يا حضرة ..) .

ودارت المحركات وحلقت الطائرة من جديد .

ولم أدع لصاحبى الشيخ الذى كان قد عاوده الصحو .. مهلة للحديث .. بل أطبقت جفنى وتظاهرت بالنوم العميق ..

وذكرت قصة المرسوم الذى حدثتك عنه والذى تنازل فيه الملك لسعود عن القيادة العليا لقوات المملكة .. والعواطف التى أبداها الأمراء فى تلك الملاءمة اللطيفة نحو شقيقهم الأكبر .. وذكرت تلك البرقية التى أرسلها سمو الأمير فيصل آل سعود بوصفه نائب الملك ووزير خارجية المملكة (قبل أن يصبح ولياً للعهد) كما ذكرت البرقية التى أرسلها سمو الأمير مشعل بوصفه وزير الدفاع فى المملكة إلى شقيقهما الأكبر ورده عليهما .. فأدركت أن عبد العزيز أصاب الهدف وأن الاستعمار وأسناد الاستعمار ممن لعبوا مختلف الأدوار من وراء ستار قد منوا بالخيبة .

وذكرت أيضاً حادثاً أكبر أثراً .. ذكرت أن « سعود » استصدر من أبيه

أخيراً مرسوماً بتأليف وزارة مسئولة يحاسبها ، وتضع ميزانية تقوم على أساس النهوض بمستوى الشعب تنشر أرقامها . كما يعتزم الضرب بيد من حديد على كل مظهر من مظاهر الإسراف فى أية ناحية من نواحى الحكومة . وعلى كل خلل يلوح على جهاز الحكم . وعلى كل ضعف يبدو فى صفوف الشرطة أو الجيش .

وإذن فسعود يريد . ويريد . ويريد .

وذكرت أيضاً أن مرسوماً صدر ونحن فى مكة بتعيين سمو الأمير الشاب طلال بن عبد العزيز وزيراً للمواصلات وقبل الحج كان قد صدر مرسوم بإنشاء وزارة للاقتصاد أسندت إلى وزير المالية فأمست المملكة تملك من الوزارات حتى هذه الساعة التى أحلق فيها فى الجو وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الصحة ووزارة المواصلات ووزارة الاقتصاد ووزارة المالية ، سبع وزارات .. وها هى المسئولية الوزارية الكاملة قد جاءت قبل أن يذهب عبد العزيز .. وها هو العصر الجديد قد بدأ والناس يتطلعون إلى عصر سعود . يراد إذن أن تقوم المملكة المسلمة الموحدة فى الداخل .. على دعائم عصرية موطدة .. داخل الإطار الدينى ؟ فهمت .. فهمت .. فلنسترح إذن قليلا .

فى الطور ..

وجرت عجلات الطائرة على الرمال مرة أخرى .. ثم هدأت واستقرت .

بلغنا الطور إذن .. أرضنا المصرية الطيبة ..

وكان معنا أربعة عشر من عيون الهنود يريدون أن يزوروا القاهرة قبل أن يعودوا إلى الهند .. وكان معنا طيار سعودى شاب يريد أن يقضى أجازته فى القاهرة .. وله فيها زوجة وأولاد .

وتخلفنا لنقول لهم جميعاً : (تفضلوا .. بالنزول ..) شعوراً منا بأننا

الساعة أصحاب بيت وأنهم ضيوف .

وأذن فينا مؤذن المطار أن أعدوا جوازاتكم .. فأخرجناها .

ثم رأينا فى انتظارنا سيارة كبيرة لتقلنا رأساً إلى المحجر الصحى .

— إيه الحكاية ياجماعة ؟

— ولا حاجة .. ألا تعرفون أن وباء الجدرى وجد هذا العام ؟

— ومالنا نحن ؟

ولكن (الأوامر) نفذت .. وحملنا إلى حيث ينتظرنا كبير الأطباء المصريين .

ولعب أخونا ممثل المجلة الهندية دوراً مشكوراً فى تعريف الطبيب بنا .. ولكنه كان (ابن بلد) فأفهمنا بين سيل من الفكاهات أنه ليس ممن (يهوشون) بصاحبة الجلالة (يعنى الصحافة) « لأن أحداً منكم مهما يحاول أن يفعل .. لا يستطيع أن يطالبنا بأن نجامله بأكثر مما جاملنا به الرئيس محمد نجيب » .

— وكيف جاملتم الرئيس ؟

— خلعنا عنه ملابسه جميعاً .. وأدخلناها مع الحقائب .. حتى الأحذية والجوارب .. وحتى قلم الحبر وعلبة السجاير .. إلى المباخر .. وأدخلناه إلى المغسل فاغتسل .. وكانت الملابس قد بخرت فارتداها .. وسيطبق القانون بلا استثناء ولا تمييز .

ودار عراك طريف بينى وبين الطبيب .. انتهى بالصلح بعد أن طمأننى أن لهم طريقة فى تبخير الملابس الجديدة والحريرية بحيث تظل بمنجاة عن أى ضرر .

وبروا بالوعد فعلا .. ولم يلحق بى من الأذى شىء .. أو على التحقيق احترقت قليلا يد المظلة فأصبحت ذات لونين جميلين وكانت ذات لون واحد .

ثم نقلتنا السيارة إلى (الهزا) (بكسر الهاء وفتح الزاى) المخصص لركاب الدرجة الأولى .

و(الهزا) السادس الذى نزلنا عليه .. صفان متقابلان من غرف خشبية متلاصقة كعنابر المستشفيات أو معسكرات الجيوش تفصل بينهما ساحة واسعة من الرمال تحيط بالمبنى كله أسلاك شائكة تذكرك بمعتقل الطور — وأمام كل صف مظلة تحجب الشمس .. وفى بعض الغرف أكثر من سرير .. وهى أشبه فى معداتها بفنادق الدرجة الثانية أو الثالثة فى القاهرة .. وفى كل (هزا) مطعم .. وحلاق دكانه فى حقيبة يده .. وتليفون متصل منه بالقاهرة (ترنك الخارج) .

ولم أكن أتصور قبل أن أبلغ الطور كيف يكون فى وسعى أن أظل فيه ثلاثة أيام ..

وأحزننى أنى لم أجىء معى (بطاولة) لنمضى الوقت معاً فى اللعب ..

ولكنى ماكدت أبلغ الطور .. حتى تمنيت لو يؤذن لى فى الإقامة به بقية الصيف .. فما أعرف له بين مصايف القطر نظائر .. ولا أدرى كيف يمن الله على مصر بهذا المصيف الفاتن .. فلا يفتح الله علينا إلا باستخدامه محجراً لحجز المرضى من الحجيج .. والصاق الأوبئة باسمه .. فإذا ترقينا اتخذنا منه معتقلا .. للمجرمين أحياناً ..

ويا قدرة الله تجلى بالجمال .. على من يبلغ الطور والبدر فى السماء مستدير .. ليستمتع بالقمر ينير هذه الساحة .. وبالبحر يرسل نسماته .. لا تعرف فيه برداً ولا حراً .. ولا تعرف فيه رطوبة تسد على أنفاسك المسالك .. ولكنها قطعة من الفردوس تملأ صدرك انشراحاً .. وتستل المتاعب استلالا .. ويتعابث الهواء العليل بخصلات الشعور .. فتضرب برئتيك فيه هانئاً وقد توقفت عن الدوران عجلة التفكير .

سباحة فى الهواء الطلق :

خيل إلى أن فترة الطور ملائمة للتفكير ..

وخيل إلى أن فى وسعى أن أجمع بين يدى خلال هذه الفترة كثيراً من الخيوط . . التى أنسج منها برد السياسة السعودية وقلت لنفسى إن عبد العزيز كان يحسن القراءة وكان يستطيع أن يكتب .. وقد علمه الله .. علمه الله الذى علم محمد بن عبد الله ولم يكن قارئاً ولا كاتباً ..

وعبد العزيز لم يتعلم فى أمريكا .. ومع ذلك شهدت الحرب العالمية الأمريكية . . اجتماعه التاريخى بالرئيس الأمريكى . . وكان المعروف أن روزفلت ضالع مع اليهود .. ودار الحديث بين الرئيسين على لسان مترجم.. فانتقل شيخ الجزيرة القديمة بشيخ الدنيا الجديدة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .. ولو عاش روزفلت لما استشهدت فلسطين .. ولما كان على ظهرها الساعة شذاذ الآفاق وحثالة البشرية ..

وروزفلت علمته أمريكا فكان من أبطال التاريخ .. وعبد العزيز علمه الله فكان من صناع التاريخ ..

هذه « الإلياذة العربية » التى استوت ملكا وإماماً .. لم توقعها العناية على أوتار الجزيرة عبثاً ..

وإذن فعبد العزيز الموهوب .. كانت له سياسية دولية بعيدة الغور ..

وسياسة عبد العزيز هى سياسة سعود .. والفرق بينهما هو الفرق بين بطء المؤسس المحافظ على أساسه الذى أرساه .. وسرعة البانى التواق إلى إتمام البناء الذى يتمناه .

فما هى هذه السياسة ؟ وما هى أهدافها ؟

وما كاد الشريط يمر حتى هبط إخوان زائرون يسألوننا إن كنا نريد أكلة سمك .. والطور اشتهرت بجودة أسماكها من قديم .. وجرى اللعاب فى

فم كل منا .. وهتفنا من الأعماق (أى والله .. سمك .. سمك) .

ثم طغت موجة المرح فنسوا .. هم قصة السمك .. ونسيت بدورى قصة الملك .. وعبثاً حاولت بحوث العروبة أن تتغلب على هواء الطور .. وهكذا أمضينا أيامنا فى الطور من غير أن أجد فسحة للتفكير فى الجواب عن السؤال : ما هى هذه السياسة السعودية وما أهدافها ؟

الفصل التاسع

السياسة السعودية

إلى القاهرة :

وعدنا إلى القاهرة .. التى كنا قد بارحناها فى بداية الرحلة على طائرة إنجليزية .

عدنا إلى القاهرة فى طائرة مصرية هذه المرة ... تابعة لما يسمونه أو كانوا يسمونه (شركة سعيدة) .

ولا أحب أن أتحدث عن الطائرة السعودية التى أقلتنا من المدينة إلى الطور ولا عن الطائرة المصرية التى أقلتنا من الطور إلى القاهرة .. وحسبى أن أضرع إلى ربى .. أن يرقى بمستوى الطيران العربى .

عدت إلى القاهرة فلقيت الصحب .

وأعلنت قريتى « سواده » احتجاجها فسافرت إليها ولقيت الأهل .

وعدت إلى عملى فى القاهرة مرة أخرى .. فعادت إلى ذهنى قصة « البعثين العربى والإسلامى » وكنت قد نسيت .

كنت قد نسيت الشريط الذى لازم الذاكرة من المدينة إلى الطور .

وفجأة .. وتحركت السياسة السعودية من جديد .

نعم فجأة .. وطالعتنا الصحف بوفاة الملك عبد العزيز .. والمناداة بسعود ابن عبد العزيز ملكا .

أهداف الملك :

واشتغل الناس جميعاً بالترحم على من سلف و (التبريك) لمن خلف ..

وكان ذلك فى نوفمبر من العام الفائت .. أما أنا فحملت رأسى بيدى .. وواصلت من فورى .. ذلك الذى انقطع من تفكيرى .. فوق رمال الطور من شهور .

ومن عجب أنى ما كدت أفرغ من الإبراق إلى جلالة الملك الجديد أعزيه (فى الملك الإمام الراحل) وأهنئه بالملك والإمامة والرجاء الذى تعقده العروبة عليه .. وما كدت أعود إلى بيتى وآوى إلى مخدعى وأطفىء النور فى الغرفة .. حتى جلست فى الفراش كما كنت أجلس فوق الرمال .. وقلت لنفسى مشيراً فى الفضاء والظلام بأصبعى :

ــ من هنا نبدأ .. من نفس النقطة التى وقفنا عندها .. ها هى نبوءة محدثى الكبير قد تحققت (إن عبد العزيز راحل .. إنه فى صحوة الموت) .. (إنه يحلق هذه المرة إلى فوق .. وسيواصل التحليق .. ولن يعود) .

فلتزدد ثقتنا ــ إذن ــ بكل ما رواه .. ولنأخذ بعين الاعتبار كل ما بثنى إياه إخوان سعوديون آخرون ولم يكن بين الرواة خلاف .. كما لم يكن بين أهداف عبد العزيز وأهداف سعود خلاف .

عدت إلى ما لدى من بيانات فمر شريط السياسة السعودية ونشوئها واتجاهاتها مرسوماً فى ناظرى على الصور التالية :

أولا ــ لاحظ عبد العزيز آل سعود فى بداية النهوض من بضع سنوات أن السياسة الدولية التى كانت قبلا تقوم على (التوازن الدولى) وتحرك بريطانيا (العظمى) زمامه مراراً .. ويفلت منها الزمام (أحياناً) .. أمست (أى السياسة الدولية) تقوم الآن على نظام « التكتل » .. وإن التنازع على السيادة العالمية إن كان قد تبدى فى صورة معسكرين : (غربى وشرقى) .. فالعالم الجديد إنما يتجه فى الحقيقة إلى « نظام التكتل » السياسى أو الجغرافى أو القارى .. كالكتلة الأمريكية اللاتينية . أو كالكتلة الأسيوية التى ترنو إلى بطل السلام العالمى البانديت نهرو فى تزعمها .

ثانياً ــ لاحظ عبد العزيز أن الدول العربية والإسلامية عانت ما عانت

من الاحتلال والعبودية ولم يكن نظام التكتل قائماً .. وكانت كل دولة تعمل لحسابها وحدها .. أو تساوم أخرى على تبادل المنافع بينهما .. فما بالك اليوم والدنيا من حولنا تتكتل .. ونحن فى شرقنا ما نزال نتقاتل ونتخاصم .. ونلوك مرة — وأصبع المستعمر وراء ألسنتنا — قصة « الهلال الخصيب » ونلوك مرة خرافة « سوريا الكبرى » ونلوك مرة خرافة « مصر والسودان تحت التاج المشترك » .. مع أننا أشد دول الأرض حاجة إلى إقامة « كتلة عربية » على أساس قومى إذا تعذر قيام « كتلة إسلامية » على أساس دينى .. وفى أشد الحاجة إلى أن تقف كتلتنا موقف الحيدة بين المعسكرين فنعاون على إقرار السلام عندما يؤمن كل منهما أننا لن ننحاز إليه ولن نأخذ بيديه .. فإذا وقعت الحرب بعد هذا أو على الرغم من هذا .. ذكر المعسكر المهاجم فضل حيادنا عليه .

ثالثاً — لاحظ الملك السعودى أن الاستعمار الأوربى قد شاخ . . وأن الطفل الشرقى المستعبد قد شب عن الطوق . . وحان أن ينشب أظافره ومخالبه وكل ما يدخل فى حوله وطوله فى الشيخ الظالم اللاهث حتى يلفظ آخر أنفاسه .

رابعاً — رأى الملك أن من الخير أن يكون للطفل الحر الذى استعبدوه حتى شب عن طوق العبودية .. أصدقاء أحرار أو كالأحرار .. لهم مصلحة فى أن يحموه إذا بقى فى الشيخ نفس يتردد .. وحاول أن يقف على قدميه من جديد . . ليستعمر ثانية ويستعبد . وتحددت (أمريكا) فى ميزان الملك — صديقة جديدة . . قوية الساعد . . كانت إلى غير بعيد خاضعة لما يخضع له الشرق الآن من ويلات المستعمر . . منطوية على مخلفات ذلك الوضع من إحن وأحقاد . . طامعة بغرور الصناعة والعلم وبدافع التجارة والكسب . . إلى أن تظفر بثقة العروبة .. وتحرص على بترول العرب .

خامساً — رأى الملك أن إسرائيل أخطر على الشرق والإسلام من نزعة

الاستعمار الأوربى . . ومن موجة الإلحاد الشيوعى . . لأن الملحد لا يحمل حقداً (دفيناً) على المتدين كالذى يحمله أهل دين لأهل دين . . ولأن المستعمر يغير دائماً فى الوسائل .. ويتغير مرغماً مع التطور .. أما إسرائيل فتبنى ملكها على التاريخ والدنيا والدين . . التاريخ الذى روى قصة تيهانها قروناً بغير وطن . وتشردها طويلا فى فجاج الأرض . فأورثها الحقد على كل بنى البشر .. والدنيا التى ضاعت منها فنشدتها غاية واستباحت فى سبيلها كل وسيلة مهما تسفل . . والدين الذى كان مبعث ذلك الماضى الحزين . . فقرنت بينه وبين الملك كما قرنت بين الدولار وبين عرش سليمان . . لتشرب من دم جميع الأديان . . ولتثأر للجنس وما لاقى . . ولتستغنى بالعلم والمال والسيادة والقيادة فى الأرض . . عن المن والسلوى وموائد السماء . . فإذا كان الاستعمار الأوروبى الموصوم بالغزو والاحتلال . . أو إذا كان الاستعمار الأمريكى الموسوم بالصناعة والدولار . . قد اتخذ — أحدهما أو كلاهما — من بنى إسرائيل مخلب قط ضد العروبة والشرق . فإن دولة اسرائيل إذا لم يطهر الشرق منها تطهيراً . . وإذا لم تستأصل هى من الشرق استئصالا . . قاضية لا محالة على العروبة والشرق . . بل قاضية — وهنا الخطورة — على المسلمين والإسلام .

مر هذا كله بخاطرى وأنا قائم فى فراشى أفكر .

وساءل الملك نفسه : ما الذى يمكن إذن عمله ؟

لقد خطا خطوته الأولى وأمسى صديقاً لأمريكا والمجال واسع لاستغلال هذه الصداقة .

ولقد تفجرت ينابيع البترول فربطت أمريكا إلى حين بعجلة الود السعودى وأمسى على قدر من الإمكانيات يتيح له أن يفعل لخير العروبة والإسلام كثيراً .

ولقد أتاحت الأقدار للعروبة حماقة بريطانية ظنها إيدن (لعبة) سياسية

تطوينا فى أبراده الانجليزية .. ولكن فى الوسع أن نخلع هذه الأبراد ونريه مضار اللعب . . ونعنى مولد جامعة الدول العربية .

ومرة أخرى ساءل الملك نفسه : ما الذى يمكن إذن عمله ؟

أفما يمكن تكتيل الشرق العربى ضد المستعمر الغاصب تكتيلا « قومياً » ضخما مقوماته الجنس واللغة والجوار والمصلحة والمجد القديم المرجى استرداده .. والخوف الجديد من الأخطبوط الاسرائيلى .. على أن تتزعم مصر هذا التكتل . . ولمصر مصلحة فى أن تستعين بدول العروبة على مناوئة المستعمر الذى يحتل أرضها . . ولبعض دول العروبة نفس المصلحة . . ولبعضها الآخر مصالح أخرى . . أشدها وضوحاً فى التحصن ضد الخطر الإسرائيلى الذى لاح فى الأفق بل انتصب واقفاً فى الساحة . .

رأى الملك أن رقعة الشرق الأوسط تضم أقواماً ذوى أديان مختلفة وأن الزعامة السياسية على هؤلاء يحسن أن تكون معقودة اللواء ببلد يغلب عليه الطابع « المدنى » .. ومن هنا تصلح مصر الآخذة بأسباب « المدنية » لتزعم هذا الشرق عندما نسميه : (الشرق العربى) .

ولا يهم بعد هذا التوفيق أن تدخل فى « النطاق العربى » المعنى بالسياسة دولة ذات نظام ملكى وأخرى ذات نظام جمهورى .. لأن « النطاق العربى » يدخل فيه أيضاً « المسلم والمسيحى » ويدخل فيه أيضاً « الدرزى والبهائى » ويدخل فيه أيضاً قوم ينتمون إلى خوارج وزيديه بل إلى شيعة وسنية .. بل إلى فرق تلتقى أحياناً بالملاحدة .

زعامة مصر إذن كفيلة بتزعم هذا اللون من التكتل العربى ...

وصدر مصر الحديثة الآخذة بأسباب المدنية يتسع إذن لكل هذه الفوارق ما دامت راية « العروبة » تخفق فى يد مصر القادرة فوق رؤوس العرب جميعاً .. وما دامت « روح القومية العربية » تتغلغل فى القلوب وتصفق بين الجنوب وتنتظم كل الصفوف وتمشى نحو النهوض . . وتعرف أنها إنما

تمشى إلى هدف .. هدف التحرر من المستعمر .. هدف تخليص العربى الأبى .. من الأخطبوطين الأمريكى والأوروبى .

وقال الملك السعودى لمن تحدث إليهم فى هذا الشأن من خاصته أن مصر زعيمة للشرق العربى من الناحية الفعلية فلا محل لتجاهل هذه الحقيقة .. زعيمة بعدد سكانها .. وبمدى إمكانياتها .. وبموقعها السياسى والجغرافى والحربى .. وبتجاربها الطويلة مع المستعمر .. وبنفوذها الأفريقى فى شقيقها السودان وجاراته .. وبرقيها العلمى والثقافى .

اعتراض ..

وقيل لى فى جدة مرة أن بعض خاصته أرادوا أن يأتوه فى مكمنه ويتسللوا إليه من موضع الضعف فيه فلوحوا بأحكام الشريعة التى لا تطبق فى مصر فبان الغضب على عبد العزيز .. وقال لهم ما معناه :

— كل ما يقال لكم فى هذا الشأن غير صحيح .. والشعب المصرى جاهز دائماً .. ومشدود إلى عجلة البيت العتيق بعاطفة الدين .. ومحمد عبده الذى نضعه فى مكان من أماكن الاحترام التى نضع فيها ابن عبد الوهاب وابن تيميه يقول : (وتناول الملك كتاباً وأشار إلى صفحة وأمر أحد الأتباع فقرأ) .

« أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعاً فيها .. فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التى أودعه فيها فلا تنبت » .

وقصة أخرى — حدث مرة — ومحدثى هو مصدرى — أن سمع عبدالعزيز فى مجالس العلم التى كان يعقدها يومياً ليصغى إلى حوار علمائه فى الفقه والحديث والتفسير .. سمع قارئاً يتلو عليه من كتاب تاريخى أن الثقافة العربية كانت تتزعم كل الثقافات بدءاً من القرن التاسع الميلادى إلى القرن الحادى عشر

بل وحاولت أن تحتفظ بهذه الزعامة انتهاء إلى القرن الرابع عشر ، وأن الفتوح الإسلامية استطاعت أن تحمل هذه الثقافة شرقاً إلى الهند والصين ، وغرباً إلى أسبانيا حتى أطلت على المحيط ، فقال الملك فى حماسة المؤمن بمصر واقتدارها (ومصر .. ليش ما تحمل الثقافة العربية داحين لـكل البجاع « البقاع » .. ليش ؟) وهذه العبارة تكشف لك عن اتجاه الملك القديم إلى إقامة وحدة عربية تحت الزعامة المصرية .

هذا هو دور مصر الزعيمة فى ميزان عبد العزيز :

فما دور « الأمم الإسلامية » أو ما قصتها .. أو ما الشأن معها .. بعد أن حددنا خطوط المصير للشرق العربى ؟ ورقعة الدول الإسلامية أكثر سعة من الشرق الأوسط والشرق العربى .. فتركيا أمة مسلمة — مهما يكن طابع الدولة فيها — وهى من بلاد الشرق الأدنى .. وإيران وباكستان معتبرتان الآن من بلاد الشرق الأوسط .. وهما دولتان مسلمتان وهناك خارج النطاق إندونيسيا وهى عنصر إسلامى بكر وطموح .. بل هناك الأفغان فى آسيا .. وتونس ومراكش والجزائر فى شمال أفريقيا .. والأمر هنا إذن أشـــد خطورة .. وبعث المجد الإسلامى ينتظم الشرق كله وينشر أضواءه على جاليات كبيرة فى الغرب .. بل تلقى هذه الأضواء .. أشعة منها تخترق السور الحديدى .. إلى قلب القوقاز نفسه .

ولمن زعامة الإسلام :

لمن يلتى إذن هذا الزمام .. زمام القيادة — الروحية على الأقل — فى دنيا الإسلام ؟

ورأى الملك السعودى أنه ملقى بالبداهة للبيت الحرام حيث يكون وحيث كان .. ملقى بالبداهة لنبى الإسلام حيث يرقد فى مقامه الطاهر تحف من حوله قلوب مئات الملايين من المسلمين .. لايفرق بينهم مشرق أو

مغرب .. ولا يفرق بينهم لون أو جنس أو مذهب .. وتحت راية التوحيد .. يقف مئات الملايين .. توحد بينهم عبارتان اثنتان : (لا إله إلا الله) و (محمد رسول الله)

ورأى الملك أن فى عنقه هو أن يتزعم بما ملك من إمكانيات روحية كحامى الحرمين بذل المساعى فى التقريب بين الدول الإسلامية وشعوبها تقريباً يضرم فى القلوب شعلة الإيمان بأصول الإسلام القائمة على أنه دين ودولة .. وعلى أن المسلمين أمروا أن يكونوا وحدة روحية حيثما ثقفوا .. وبنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً .. فإذا لم تثر العروبة فى المسلم نخوته أثار الإسلام هذه النخوة . أما إذا لم يثر الإسلام هذه النخوة فى المسيحى والملحد أثارتها العروبة .. وخرجنا على أى الأوضاع بثورة على المستعمرين المسافحين واللقيطة المتبناة أو الابنة غير الشرعية إسرائيل ..

وتحرر الإسلام فى ضمير الملك المسلم يجىء من غير شك فى الطليعة .. وهو فى ميزانه الأول والآخر .. ولكن الحكمة تقضى أن يكون الباطن ولا يكون الظاهر .. ومبعث هذا الاتجاه .. أن الملك يؤمن فى قرارة نفسه أن تأخر المسلمين هو فى حقيقته روحى وليس سياسياً .. وليس بذى بال أننا لم نحسن تقديم القرابين .. لوثنية الآلات .. أو أننا تأخرنا فى النهوض العسكرى فاحتلتنا دول عسكرية أقوى .. إنما ذو البال أننا تأخرنا روحياً فى سلامة العقيدة وفهمها فاستنمنا لهذا الاحتلال أو لهذا الإذلال .. وكان الملك يذكر لمحدثيه أنباء الهزائم العسكرية والسياسية فى بلد كألمانيا وكيف لم تستطع هذه الهزائم أن تقضى على وطنية الشعب الألمانى .. برغم أن وطنية هذا الشعب تسندها كرامة تاريخية أو تقاليد عسكرية ولا تسندها عقيدة موحدة كعقيدة المسلمين التى تأمر أمراً بكل ما حققته الحضارة وعجزنا عنه وتنهى نهياً عن كل ما حققناه نحن وعفت عنه الحضارة .. تأمر بالعلم وتسأل (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وتأمر بالتسليح والتصنيع وتأمرنا أمراً بأن

نعد لهم ما استطعنا من قوة .. وتبالغ فى حماية الأصحاء من الأمراض حتى لتجعل نظافة الأبدان من عناصر الإيمان . . وإذن فاسترداد مجد الإسلام فى ميزان عبد العزيز يجىء من غير شك فى الطليعة .. ولكنه يدرك إدراكا عميقا وبرغم مغالاة الرياسة الوهابية فى نجد أن الذى ينقذ الشرق والإسلام فى هذا العصر هو التكتل القومى بين دول العروبة .. وإن الشعور الدينى هو الجذوة التى تضرم النار كلما حاول العدو أن يطفئها .

وأكد محدثى حقيقة كبيرة .. أكد أن الملك السعودى لا يريد أن يتزعم ليقود أو ليسود .. أو ليبسط سلطانه السياسى تحت الستار الدينى على دنيا المسلمين . أو ليلوح بهذه الزعامة فى أى وقت أو لأى أحد .

إنه يريد أن يتزعم « المساعى » إلى وحدة الإسلام (كما سبق القول) ولا يريد أن يتزعم أمم الإسلام أو دول الإسلام .. يريد أن يتزعم « المساعى » إلى هذه الوحدة « الروحية » الكبرى .. ويتزعم الإنفاق بسخاء فى سبيلها .. ويتزعم التضحية بالنفس والولد إذا اقتضى الأمر هذه التضحية .

يتزعم هو هذه « المساعى » بقوة البيت المحرم .. والرسول الأعظم .. والعقيدة والتوحيد .. والبلد الذى تهوى إليه الأفئدة .. وتحن لذكراه القلوب .. ليكون له من ذلك الشعور الإسلامى الموحد الوقود الذى يقدم للكتلة العربية وهى تكافح فى سبيل تحرير الشرق العربى .

وتمشى الزعامتان دنيا إلى دين وجنباً إلى جنب .. إلى الهدف المرجو .

الفصل العاشر

مات الملك .. يحيا الملك

قلت لنفسى من غير أن أقحمها فى الرأى :

— حسنا يا نفس .. عرفنا الآن أهداف الملك السعودى .. ولكن : هل فكر فى الوسائل التى تحقق « الوحدة العربية » من ناحية و « الجامعه الإسلامية » من ناحية أخرى ؟

وما كدت ألقى السؤال حتى أطل على .. وجه محدثى القديم .. وعاد الشريط يمر .

— أى نعم فكر عبد العزيز وقدر ودبر .. كما فكر معه سعود وقدر ودبر .. كما فكر معهما آخرون نحدثك الآن عنهم .

كان الرجل مستمسكا بعروة الشورى .. فإذا فرغ منها وآمن بأنه استنار .. اتخذ قراره .. فإذا اتخذه قضى الأمر كله ولم يعد من حق أحد أن يقف فى وجهه أو يفكر فى مناقشته .. لأن أوان النقاش يكون فى رأيه قد فات .. لقد كان يصغى إلى كل رأى يشير به أصغر مستشار .. وكان يعطى أعوانه حرية إبداء الآراء إلى أقصى المدى .. واستمع إلى هذا .. وإلى هذا .. وإلى هذا .. وكون الرأى .. وبت فى الأمر .. وحسم الخلاف .. وأصدر القرار .. فما محل أن يجادل فيه إنسان ؟

تلك كانت خطة الملك السعودى .

وعلى الرغم من انطوائها على ما يحسبه البسطاء « استبداداً بالرأى » فإنها لم تكن هكذا فى الحقيقة .. لأن المجلس الاستشارى للملك لم يكن من النجديين وحدهم .. ولم يكن من الحجازيين فقط .. إنما قام على النجديين والحجازيين .. وتألف من رجال الدنيا ومن رجال الدين .. ومن السوريين واللبنانيين

والعراقيين والأردنيين والمصريين .

وحامى الحرمين يعنيه كما قلت لك استرداد المجد الإسلامى .. ومجلس المستشارين إذن يجب أن يمثل المسلمين جميعاً .. وهؤلاء المستشارون يجب أن يكون كل منهم خبيراً واسع الخبرة بشئون بلاده .. فإذا بسطت خريطة العالم الإسلامى أمام المستشارين .. استطاع كل منهم أن يبدى رأياً سديداً فيما يخص بلاده على الأقل .. وتعاون الجميع على سد الثغرات بين مختلف الاتجاهات على ضوء الحقائق .. وليس لزاماً أن يكون كل المستشارين موظفين .. عبد الرحمن عزام يستطيع أن يتحدث عن مصر وشكرى القوتلى وجميل مردم يستطيعان أن يتحدثا عن سوريا وأمين الحسينى يستطيع أن يتحدث عن فلسطين وكلهم صديق للملك والمملكة وليس بموظف .. ومع ذلك فمن المستشارين الدائمين فى بلاط الملك جمال الحسينى عن فلسطين ويوسف ياسين عن السوريين . بل أن الزعيم الليبى بشير السعداوى يمثل ليبيا فى هذا البلاط .. ورشيد عالى الكيلانى يستطيع أن يتحدث عن العراقيين .. أو بمعنى أصح استطاع الملك السعودى أن يقيم فى الرياض (كونجرس) كاملا يمثل (الجامعة الإسلامية) مرسومة فى (ولايات إسلامية متحدة) ولكن فى عالم البحث والدرس والإعداد .. فقط .

ولكن الملك عبد العزيز كان يعود فيرى بعين الأسى أن مقاليد الأمور فى الدول العربية والإسلامية ملقاة فى الأغلب الأعم إلى أيدى أناسى .. فريق منهم من صنائع المستعمر .. وفريق أضعف من أن يقف فى وجه الاستعمار . وأن قرابة قرن من الزمان مضى على فكرة الجامعة الإسلامية ولم تتقدم فى ظلال الاستعمار خطوة .. مذ نادى بها جمال الدين الأفغانى وهو يحج البيت فى سنة ١٨٥٧ وأسس جمعية (أم القرى) على دعائم ثلاثمائة من عباقرة تلاميذه فى مصر .. وأن الشعوب العربية الإسلامية هى وحدها التى تقدمت إلى الهدف تلقائياً وبحكم التطور والإرتقاء .. وضد رغبة الكثيرين من

الحاكمين فيها .. وهذه الشعوب بطبيعة وضعها تتأثر بزعمائها الشعبيين وتنفر من حاكميها الضالعين مع المستعمر .. إذن فإن مجهوداً كبيراً يجب أن يبذل من جانب المملكة السعودية على الطريقتين العربية والإسلامية .. لإذكاء الشعور فى الشعوب من ناحية ولتوريط الحاكمين من ناحية ثانية .. وللإغداق على الدعاة للفكرة من ناحية ثالثة .. ولإستئصال الأحقاد الموروثة من نفوس بعض الأسر المالكة من ناحية رابعة .. وللترقى البطىء المعقول بداخلية المملكة السعودية نفسها من ناحية خامسة .. وكل هذا يجب أن يتم على مهل قبل أن يقف الملك جهاراً على مسرح الدعوة .

ونفذ فعلا هذه السياسة فبسط يده بالكرم الحاتمى لكل من نزل بساحته.. ومشى الركبان فى المدائن والأقطار بما يشبه الأقاصيص والخيال من سيرته . وزار هو مصر الزعيمة فوثق عرى الود بينه وبينها وأوفد ولديه سعوداً وفيصل إلى مختلف الدول فى مختلف المناسبات .. وقرب إليه كثيراً من زعماء العروبة المضطهدين والمشردين وذوى النفوذ ... ثم أطلق يد ولده سعود فى إصلاح المملكة السعودية ورفع مستوى الشعب السعودى شيئاً فشيئاً .. وكان لعبد العزيز فى ولده الثانى فيصل براعة لاتجارى فى معالجة الشئون الدولية والسياسة الخارجية فيطلب إليه أن يحفظ التوازن بينه وبين الخارج حتى لا تثور المشكلات التى تعوق ركب الإصلاح .

أما سعود فكان يرى أن عجلة الحضارة — والأحداث فى الشرق الأوسط — أسرع دوراناً من أن ترتقب هذا الترقى البطىء .. وكان يود لو أذن له مليكه وأبوه فى المزيد من الإصلاح والمزيد من الإسراع .. ولكن عبد العزيز العظيم كان قد أعياه العبء وبان عليه الضنى والإجهاد فلم يشأ سعود أن يضاعف على مليكه الأعباء .. أو أن يضيف إلى ما يعانى أبوه من ضنى الشيخوخة مزيداً من العناء .

ديوان سعود :

ولكن هناك فرصة كان من الممكن اهتبالها فاهتبلها سعود ولم يدعها تفلت .. فرصة ما يمكن أن يقوم به ديوان ولى العهد .

وهنا ذكرت أحاديث خاصة أخرى جرت بينى وبين بعض العارفين بذلك الديوان كما ذكرت أنى زرت الديوان بنفسى أكثر من مرة .

نعم .. كان ديواناً منظما وكان فيه جهازان قادران .. يجرى الشباب فى عروق الأكثرين من القائمين عليهما .. الجهاز الإدارى والجهاز السياسى .. وكان قد رأى أن يعد العدة للمستقبل بحيث لا تدهمه أحداثه على غرة .. وبدا لى واضحاً وأنا فى جدة أن كل شىء معد .. أو أن كل شىء يعد .

وكل العارفين أذهلهم حقيقة أن يدور الجهازان فى هذا الديوان دورات بروتوكولية وسياسية على هذه الصورة وبهذه السرعة بحيث تمت البيعة لسعود من إخوته وأسرته وأمته ، ونودى بفيصل ولياً للعهد .. ثم نقل الجثمان الكريم لعبد العزيز العظيم إلى الرياض من غير ضجيج اتباعاً للسنة . واستقبل الملك والأمراء عشرات الآلاف من مختلف المقامات، وجاءت عشرات الآلاف من البرقيات من مختلف جهات العالم ، فتسلم كل معز أو مهنىء رداً رقيقاً مناسباً ، ورتبت الزيارات للبادية ، بل رتبت مقابلات سياسية سوف يتخلى عنها ذهنى لهذه الأوراق بعد حين . . .

والحق الذى لا مرية فيه أن ديوان ولى العهد السابق والملك الحالى ديوان منظم وعجيب . . وكان يتوقع كل شىء . . ومن هنا قلت إن كل شىء بدا لى معداً أو كالمعد . .

ولا مرية أن البحث عن حقيقة الشاب الفريد فى ذكائه ودهائه رئيس ديوان سعود ولى العهد (والسكرتير الخاص لسعود الملك) عبد الله بالخير .. مؤد بك إلى حل اللغز الذى تعقد . . وعبد الله خريج الجامعة الأمريكية فى بيروت . .

— حبيب مصر والمصريين — ملم بسياسة المملكة وأهداف الملك . . عليم بدقائق هـذه السياسة وخفاياها . . يحسن علاج الأحداث والأشخاص . .

ولـكن . . .

هل كان عبد الله بالخير وحده هو سر نجاح الديوان الـكبير ؟

كلا . . كان خلف الستار كثيرون . . من الأقطاب يعملون « رسمياً » فى ديوان الملك الراحل . . أو فى مختلف المناصب . . ويعتبرون « شخصياً » مستشارين لسعود . . ولعل فى تعيين بعض الرجال فى مناصب الوزراء على أثر ارتقاء سعود العرش ما يفسر لنا الستار والواقفين من الخلف . . رقى محمد سرور الصبان مستشار عام المالية (وزير دولة وعضو مجلس وزراء ومستشاراً خاصاً للملك) وكذلك ظفر بنفس الترقية سليمان الحمد . . وعين محمد رضا وزيراً للتجارة فارسى قواعد الأسطول السعودى للبترول بأ كبر ناقلة بترول فى العالم أسماها باسم الملك . . إلى آخر ما حدث فى تلك الفترة . .

ولا نحب أن نكرر هنا ذكر رشيد عالى الـكيلانى وغيره من المستشارين . . فلنجنبهم ولو إلى حين متاعب القال والقيل .

إنما هى لمحة عن الديوان عبرناها فى أسطر لتكون لديك الفكرة .

والآن وقد وقع ما كان متوقعاً . . ومضى عاهل الجزيرة إلى بارئه . . ونودى بسعود ملـكا . . فهل يحقق السياسة التى ساهم مع أبيه فى إرساء أساسها وفى إقامة جانب من البناء فوق هـذا الأساس ؟ وعلى أى الصور يواصل الملك الجـديد سياسة الملك الراحل ؟ وما الذى سيفعله فى سياسته الداخلية إزاء تلك المملـكة الطويلة العريضة . . العجيبة حتى فى أجوائها وصنوف القاطنين فيهـا والضاربين فى بواديها ؟ . . وهل يجد فراغاً للسياسة الخارجية وفهم دروبها ومساربها والتواءاتها ؟ . .

وخيل لى أن الإجابة عن هـذه الأسئلة تستلزم حتما ذهناً صافياً وأعصاباً

هادئة . . وأنا الساعة مشدود الأعصاب مكدود الذهن . . فبأى الوقود أنفخ الحركة فيه وأرد الحياة إليه وأطالبه بأن يدور وأن يسمع لدورانه دوى . . وأن يحمل هذا الدوى كل الخطوط التى رسمها للعهد الجديد . . سعود ؟

وخيل إلى أن التبعات الملقاة على سعود أكبر بكثير من أعباء عبد العزيز . . وبطريقة القياس يغدو التفكير وأنا متعب فى خطوط السياسة الجديدة أعسر بكثير من التفكير الذى يمكن لى من عرض سياسة الملك الراحل . .

الخير فى أن أطبق جفنى . . وأنام . . وحدقت فى الظلام وغمغمت . . « حكمتك يا رب . . مات الملك . . يحى الملك » .

الفصل الحادى عشر

مرحلة جديدة :

استيقظت من نومى وإذا إبرة التفكير تتجه بى اتجاهاً جديداً .. وكأنما لم أكن أحمل ذلك العبء المضنى .. وكأنى لم أوجه لنفسى تلك الأسئلة الدقيقة فى الليلة الفائتة .

اتجهت إبرة تفكيرى فجأة إلى ما أسميته : « واجبى » .. فتعال يا أخى نجدد الصحبة ونستهل مرحلة جديدة من مراحلنا .. ولعلك تذكر أنى قلت وأنا أطوى رفرف التمهيد فى صدر الكتاب « وهأنذا أحاولك يا واجبى » فدعنى أسألك أنت يا صاحبى ويستوى أن تكون شيخاً أو لا تكون :

ــ أليس من واجبى أن أقول لبلادى بعض ما عرفت عن الملك الذى عرج إلى عالم الخلود .. وبعض ما عرفت عن الملك الجديد الذى ارتقى الأريكة ملكا وتلقى البيعة إماما ؟

نحن الآن فى شهر نوفمبر .. وأنت مدعو لأن تشمر معى عن ساعد الجد .. فتعال نحدث الناس عن الملك الذى رحل .. والملك الذى جاء .

ها نحن أولاء فرغنا ..

وها نحن أولاء نهم بأن نقول للقراء .. أشياء وأشياء .. أغلب الظن أن الأكثرين منهم لم يكونوا على علم بها .

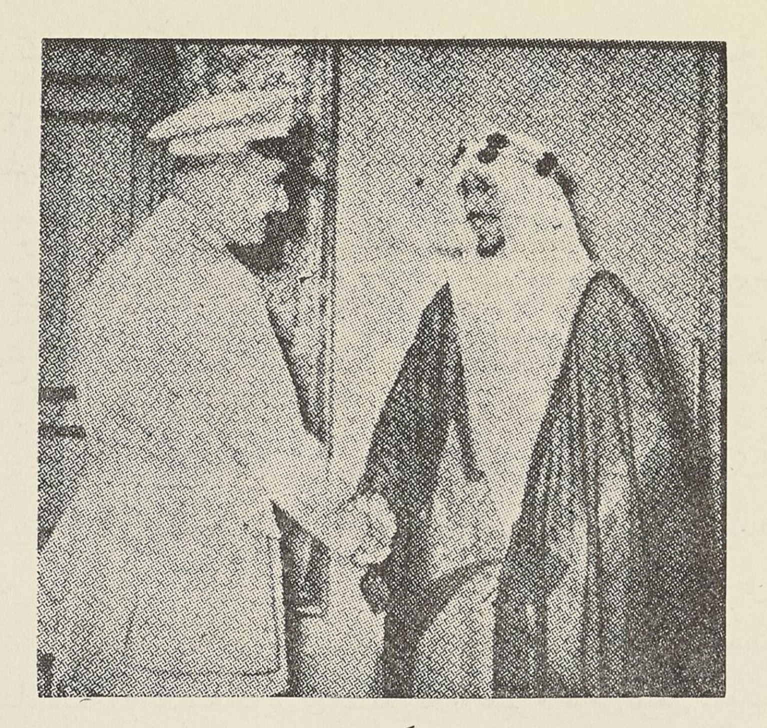
إن أنباء جديدة تجىء الآن من جدة عن البيعة تعيد إلى الأذهان صدر الإسلام والمشكلات التى صادفت كل إمام .. أو ما ترى أن نشد الرحال مرة أخرى إلى جدة .. لنحدث الناس عن بيعة جديدة تخفق رايتها فوق سارية الإسلام .. بعد انقضاء أكثر من ثلاثة عشر قرنا على عهود الإمامة والبيعات ؟

أولا — نلاحظ أن مسلماً كبيراً ومستنيراً وذا مقام دولى هو السيد غلام محمد رئيس جمهورية باكستان الاسلاميه يطوى بنفسه الأجواء .. ليقدم عزاءه بنفسه فى الملك عبد العزيز . وليقدم التهنئة بنفسه للملك سعود .. وهذا الوفاء على هذه الصورة يتجاوز حدود الوفاء التقليدى والمجاملات المرعية بين رؤساء الدول .. وكان فى وسعه أن يوفد بعثة رسمية تمثل الدولة . . فسجل هذه الظاهرة . . فقد تفيدنا فى البحث .. عندما نذكر أن السيد غلام محمد إنما يعزى فى عاهل « عرف قدره واتجاهاته » ويهنىء عاهلا « عرف قدره واتجاهاته » . . لأن غلام محمد زار المملكة السعودية من قبل الحادث بعام . . ثم عاد مرة أخرى فزار مكة والمدينة وجدة والظهران . . وكان سعود بن عبد العزيز يومئذ يقيم فى المنطقة الشرقية (فى الظهران وجاراتها) ينشر النور بين ربوعها ويحي بالمنشآت والمؤسسات مواتها وهناك التقى الرجلان وكان كل منهما يعرف مكان دولته من الشريعة والإسلام .. وأثر دولته فى الشرق الأوسط والتكتل المنشود .

والدليل على أن اللقاء لم يكن يومئذ لقاء تقليدياً . . أن غلام محمد ما كاد يعود إلى بلاده من زيارته الأولى أى قبل عام من حادث وفاة الملك حتى أدلى بتصريحات مسهبة أكد فيها أن العروبة والإسلام سيلقيان خيراً على يدى سعود بن عبد العزيز ثم عجل غلام أثر عودته باعلان الباكستان « جمهورية » وعنى بالنص على وصفها بكلمة (إسلامية) .

ثانياً — طار إلى جدة السيد جمال عبد الناصر — وكان يومئذ نائباً للرئيس من الناحية الرسمية ولكن مصر والمملكة السعودية كانت تعرف كل الحقائق — وأعلن يومها — وبرغم الجو المشحون بعواطف العزاء والتهنئة — أن مباحثات بعيدة الأثر فى مستقبل الشرق جرت بين سعود وجمال . .

ثالثاً — ساهمت فى أداء الواجب سوريا ولبنان والعراق والأردن وليبيا واليمن .



الملك سعود مع البكباشى جمال عبد الناصر

رابعاً — خف الزعماء من كل حدب وصوب إلى جدة وكان فى الطليعة المجاهد العربى القديم وصديق عبد العزيز سعود .. شكرى القوتلى والأقطاب وأمين الحسينى .. وجميل مردم .. وعبد الرحمن عزام .. وعبدالله اليافى .. وسكرتير اللجنة العربية العليا للدفاع عن فلسطين محمد على الطاهر .. كما خف الكثيرون من أمراء الإمارات كأمير قطر سمو الشيخ على بن عبد الله ومعه نجله ووجوه إمارته ..

عبد الرحمن عزام

وخامساً — عنيت الهيئات الدينية والشعبية فى مختلف الأمم الإسلامية

بأن تشاطر المملكة السعودية أفراحها وأتراحها . . حتى مصر الزعيمة التى يعيبها تراخى هيئاتها أحياناً عن مثل ذلك المضمار .. طار ممثلو الإخوان المسلمين وجماعة أنصار السنة وغيرهم إلى جدة .

وسادساً — وهنا ونضع تحت كلمة « سادساً » خطاً تناهى فى العرض .. هنا تمت البيعة إسلامية شرعية صحيحة .. وقدم إلى جدة سماحة المفتى الأكبر الشيخ محمد بن ابراهيم كبير آل الشيخ — سلالة الإمام محمد بن عبد الوهاب على رأس وفد من علماء المملكة السعودية فبايعوا سعود بن عبد العزيز على أن له عليهم السمع والطاعة .. ولهم عليه أن يلتزم حدود الله كما جاء بها الكتاب وكما بينتها سنة رسوله .. ثم اتجه ركب الملك الإمام إلى مكة فطوف بالبيت وسعى .. وصلى الجمعة فى الحرم .. وأقيمت صلاة الغائب على الملك الراحل .. وتلقى الملك الجديد بيعة أم القرى .. ورددت شعاب مكة وبطاحها من جديد .. أصداء البيعة الإسلامية تدوى فى مسمعى ثلاثة عشر قرناً من الزمن .. ويبسم لها منزل الوحى .. وبيت الله المحرم .. ثم اتجه ركب الملك الإمام إلى مدينة الرسول .. فزار المسجد النبوى بين الدعاء الحار من سلالة الأنصار .. وتلقى منهم البيعة خالصة لأنهم لا يراءون .. وطوبى لمن تلقى البيعة من سلالة الأنصار فى مدينة الرسول .

وسابعاً — بدأ دور نجد (بعد دور سماحة المفتى الأكبر) فجاء إلى جدة سماحة رئيس القضاة فى المملكة الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ ومعه القضاة فبايعوا « سعود بن عبد العزيز » بالملك على كتاب الله وسنة رسوله والسمع والطاعة فى العسر واليسر وفى السراء والضراء وتليت وثيقة البيعة على الجماهير وأعلن كبير القضاة أن الإمامه منعقدة لسعود بن عبد العزيز وثابتة شرعاً وحملهم الملك فى أعناقهم أمانة نصحه فى الدين والدنيا فتأثرت الجماهير وفاضت دموع العرفان من العيون .

وثامناً — فتح باب القصر لوفود الحجاز ونجد .. تتتابع مئات وتتتابع

آلافاً .. وينفر الشيوخ ثقالا .. وينفر الشباب خفافاً .. وكلهم يعرفون أن لهم حق البيعة .. والملك يتلقاها منهم سعيداً .. ويعاهدهم على الكتاب والسنة .

وتاسعاً وأخيراً — يلاحظ الملك أن فى البادية والمناطق النائية شعوباً لا تعرف الطريق إلى الحضر .. ولا تقوى على الارتحال والسفر .. ومن حقها أن تقبل إمامته أو تأباها .. فيصر على أن ينتقل بشخصه إلى حيث تقيم فتعال يا صاحبى .. نعد العدة لرحلة مضنية مع الملك الجديد يذرع خلالها الجزيرة التى أعيت رحالة الأوروبيين .. فيزور القصور .. ويزور أصغر الدور .. ويزور الخيام المضروبة فى كل درب من دروب الصحارى .. ويفترش الأرض معهم .. ويأكل مما يأكلون .. ويسألهم إن كانوا يرتضونه ملكا عليهم وإماماً لهم .. ويتلقى البيعة منهم .

نحن الآن يا صاحبى فى رفرف ديسمبر أو ربيع الثانى .. يقلنا مع الملك قطار خاص يتحرك من الرياض يخترق الصحراء إلى أطراف المملكة أو إلى المنطقة الشرقية أو على التحديد إلى الإحساء .

كلا يا صاحبى لا محل لأن تفتح فمك دهشاً .. وأن تصلينى الأسئلة دفاقة متتابعة .. عن هذه الرمال الثائرة وكيف جمدوها .. أو عن هذه التلال الذارية وكيف عقلوها .. أو عن هـذا الخط الحديدى وكيف أذل الجبال والرمال والتلال .. واخترق هذه « الدنيا الطويلة » من « الدمام » على الخليج الفارسى إلى الرياض عاصمة نجد ومقر الملك ؟ وفيم كانت نظرة عبد العزيز إلى الأمريكان إذن ؟ ولم خصهم ببترول الجزيرة إذا لم يخصوها بثمار الحضارة الصناعية والعلمية ؟ وكيف يقوى إذن على تحقيق أهدافه البعيدة داخل المملكة وخارجها ؟

كلا يا صاحبى لا تشطط بنا .. ولا تخرجنا عن حدود الرحلة والبيعة .. إننا ما نزال نطوى صدر الصحراء فى طريقنا إلى الإحساء .. فلا محل لهذا الالتواء .. كل ما يعنيك ويعنينى .. قبل أن ننسى .. أن تعرف أن سعود ابن عبد العزيز احتفل فى العام الفائت « بتسعيد » هـذا الخط — أى بجعله

سعودياً — فتسلمه من الأمريكيين رسمياً بعد أن دربوا السعوديين على الأعمال الفنية وأصبحوا أهلا لتسلمه .. فسجل والقطار يمشى بنا فوق الخط هذا اللون من « السياسة السعودية » فى التعامل مع الأمريكيين ولا أعقب .

إن القطار يقل الملك ويقل آخرين من الأمراء والوزراء .. يعنينا منهم صاحب السمو عبد الله بن عبد الرحمن شقيق الملك عبد العزيز عم الملك سعود . وأعمام سعود لهم فى المملكة وفى قلوب النجديين مقام كبير .. وبعض أشقاء عبد العزيز ساهموا معه فى فتح الرياض .. فالبيعة لسعود إذن لم تكن مقصورة على أخوته أبناء عبد العزيز ولكنها ترقى إلى الفرع الأعلى من العمومة أيضاً . يمثلها عبد الله بن عبد الرحمن فى هذا الركب الملكى .. دليلا على أن كل شىء كان معداً .. وإذا جرى فبمقدار .. وإن قدر فبالميزان .. وخطيئة أن يظن ظان .. أن الأمر فى هذه الجارة يجرى ارتجالا .. وان الصحراء لا تنبت الساسة وإن أعطت أبطالا .

ومن كان فى الركب أيضاً ؟ غير أخوة سعود وأبناء عبد العزيز ؟

طف معى بالعربات يا صاحبى وتمعن ..

فى حاشية الملك رشيد عالى الكيلانى ويوسف ياسين .. وكلاهما داهية مغوار وسياسى لا يشق له غبار .. والمجاهد الحزين الباسل جمال الحسينى ..

آل الرشيد أيضاً :

كلا يا صاحبى .. دع هؤلاء فالحديث عنهم قد يجىء .. ويكثر .. أسرع بالله وسجل .. إن كبار آل الرشيد فى حاشية سعود فاشهدى يا سماء وابسم يا قدر .. إنهم يصرون إصرارا على أن يكونوا فى الركب ليقولوا لأهل الجزيرة .. قولا غير مسبوق فى تاريخ الجزيرة .

ومثلك يا صاحبى لا يمكن أن يجهل قصة ابن الرشيد الذى استرد

عبد العزيز الرياض من « عجلان » عامله عليها .. وحارب ابن الرشيد فى مقره بعد ذاك حتى هزمه .. ثم أكرمه .. فلما دانت الجزيرة لآل سعود .. ودالت دولة آل رشيد .. أسبغ عبد العزيز عليهم عطفه .. وبالغ سعود فى إكرامهم .. وصون كراماتهم .. فازدادوا لسعود حبا حتى لقد أصروا أن يمشوا فى ركب البيعة إلى قلب البادية .

وهنا أرجع بك يا أخى — قارئا هذه المرة — إلى ما فات من صفحات الكتاب يوم كنا ننزل على فندق التيسير بمكة .. لقد كان معنا — وأرجأت ذكره إلى مكانه هنا — حفيد ابن الرشيد ، المقيم فى بغداد .. قدم إلى الحج ومعه خادم من عبيدهم الموروثين .. يلازمه دائما ملازمة الظل .. ويكفى لكى تقدر إكرام سعود لحفيد ابن الرشيد .. إن النفحة التى نفح بها سعود ذلك العبد فارع العود .. كتبت بأرقام ثلاثة .. وقيل إنها صرفت ذهبا .

وأنا أقص عليك ذلك الحادث لتلم بطرف من السياسة السعودية التى ظن الناس أنها تنثر ذهب الظهران عن يمين وشمال .. وعلى طريقة الارتجال .. كلا يا أخى .. إنما يبذل المال لأهداف .. وكلها تنتهى أخيراً عند أى الهدفين : تكتل الشرق العربى . أو تقوية الجامعة الإسلامية .

البيعة مرة أخرى :

وها نحن أولاء نخترق الصحراء . . . فلنمر بالمحطات (الخرج) و (حرحش) وغيرها من بلاد حقول البترول ولنشهد شعوبها كاملة تجىء للبيعة مع أنه عائد إليهم . . ولنبلغ مدينة (الهفوف) وقد أمضت الليل ساهرة وماجت بالخلائق جاءوا إليها من فجاج المنطقة الشرقية يتقدمهم أميرهم سعود بن جلوى وأخوه الأصغر عبد المحسن .. ومن خلفهما الرجل الذى عاصر عبد العزيز ناظراً لخاصته وأميناً على سره عبد الرحمن الطيبشى والشيخ عبد الله بن عدوان .

ولندع (الهفوف) بعد أن ظللنا فيها يومين وشهدت البيعة بعينيك إلى (بقبق) وأخيراً إلى (الظهران) مدينة الخيال والعمران .. حيث يلتقى أهل البادية بأبناء الأمريكان . . وفيها وفود من (الخبر) و (الدمام) بل فيها شعب الإمارة كلها وعمال شركة البترول جميعاً . . وفى طليعتهم جالياتنا المصرية والسودانية وقد خصهم سعود بالعطف السابغ .

حسناً يا صاحبى . .

إننا هنا نروى أحداثاً . . ولا نصدر صحفاً . . فالوصف ليس من شأننا .

إنما المهم أن أسألك : أيمكن وقد رأيت بعينيك البيعة الإسلامية فى صدر الإسلام تتجدد أن تقارن بينها وبين الانتخاب المباشر فى أرقى أمم الأرض ؟

أنا لا أتولى هنا الإجابة وليس فى نيتى أن أملى عليك رأياً . .

إنما أسألك فقط — أسألك ذمة وأسألك ضميراً . . وأسألك عروبة وأسألك ديناً :

— أيمكن أن يكون أهل البادية الذين رأيتهم بعينيك شم الأنوف حفاظاً على مالهم من حقوق . . يقولون لسعود فى رجولة وكرامة : « نبايعك على السمع والطاعة إذا بايعتنا على الكتاب والسنة ؟ » أشباهاً بالناخبين الذين تعرفهم فى البلاد التى يجرى فيها الانتخاب دائماً « حراً . . ؟ ! ! »

وهل مثل هذه البيعة الإسلامية يمكن أن تنحل عقدتها طالما الموثق قائم والعهد مصون .. وهل فى هذه البيعة ثغرة لسياسى ماكر أو ماهر يضلل الناخب كل عام أو خمسة أعوام ليسقط رئيساً ويثب هو إلى نفس المكان ؟

أهداف :

وإذن فلسعود بن عبد العزيز من وراء البيعة أهداف . . وأهداف .

إنها درعه الذى يحمى به ظهره فى الداخل كملك . . وإنها إيمانه الذى

يملأ به قلبه وهو يعامل ربه كإمام .. وأنها عدته — وافتح أذنيك يا صاحبي — عدته يتسلح بها ليخطو أخطر الخطى خارج الحدود تحقيقاً لسياسة أبيه .. وليخوض بها معتركا دولياً لا يعرف أهل المملكة عنه إلا أن يأذنوا لسعود في خوضه مطلق اليدين تماماً .. معتمداً على قلوبهم وبيعتهم .. ومعتمدا على أن يفتدوه بدمائهم .. ومعتمداً على أن يكونوا دائماً من خلفه ومن حوله ..

لم يكن عبثاً إذن أن يتلقى الملك من أخوته — ورثة أبيه — الملك وأن يتلقى البيعة من شعبه كله بدواً وحضرا .. وبيتاً ربانياً ومهجراً نبوياً .. يذرع الجزيرة من بحرها الأحمر إلى خليجها الفارسي ... أحسبك الآن مقتنعاً ..

تقول كلا ؟

حدثني إذن أو سلني ..

تسأل إن كان سعود سيظل مشتغلا بهؤلاء البدو عشر سنين تاركا ذلك العراك العربي الناشب الآن في كل مكان من بلاد العروبة .. وذلك التشابك الدولي بين العروبة وإسرائيل من ناحية .. وبين العروبة والاستعمار من ناحية ثانية ؟

كلا يا أخي ..

لكي تعرف السياسة السعودية الجديدة .. على حقيقتها ما عليك إلا أن تتريث أياما .. وأنت مدعو بعدها إلى مفاجأة سياسية تدرك منها .. أن هذا الملك الجديد حيث يوجد .. توجد السياسة .. أياما من الصبر أرجوك .

الفصل الثانى عشر

مفاجآت سياسية

نحن الآن فى الدمام ..

والنشاط كما ترى يا صاحبى قائم على قدم وساق ..

وكل شىء يدل على جديد مقبل .. أو على ضيف جليل قادم .. فما هو الجديد أو من هو الضيف ؟

ها نحن أولاء دعينا لنرافق الركب إلى المطار .

إنه صاحب السمو الأمير سلمان الخليفة أمير البحرين قادم لتهنئة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز .

ها نحن أولاء ساهمنا فى الحفل واشتركنا فى السرادق الكبير .. ولبينا الدعوة إلى حفلة العشاء الكبرى .. واجتلينا من مظاهر الود العربى بين الملك والأمير الشىء الكثير .. ولكن الأمير يدعو الملك إلى زيارة البحرين .

وها هى الكويت تدعو الملك إلى زيارة الكويت .

والمنطق يقضى بأن يعجل الملك بزيارة الإمارتين الحبيبتين .. لا لأواصر العروبة بينه وبينهما فقط .. ولا لصرخة التاريخ المدوية فى مسمع الزمن تردد قصة عبد الرحمن والد عبد العزيز الذى لجأ إلى الكويت وعبد العزيز ابن عبد الرحمن الفتى الثائر الذى خرج منها لفتح الرياض واسترد الملك المنصوب .. بأربعين من أخوته وصحبه الفرسان فقط — ويا لها من ذكرى تهتز لها أعطاف التاريخ اهتزازا .. ويبتسم لها النهوض العربى الحديث ابتساما ..

كلا ..

إنما تتحتم تلبية الدعوة لأن سعود موجود الآن فى ميناء الدمام على الخليج الفارسى .. والإمارتان على قيد النظر منه .. فلا عذر له يعتذر به .

وسترى أنه لن يفعل .

سترى أنه مرجىء هاتين الزيارتين حتما فلماذا ؟

سجل فى ذاكرتك هذا السؤال ذا البال ولن أجيبك عنه إلا بعد أيام ؟ بعد المفاجأة .

المفاجأة الأولى :

أتراها ..

خذ بالله هذا الزى العربى الذى أهدى إلى منه اثنان .. خذ أحدهما وانسرب معى إلى الركب لنمشى خفية فى الركاب .. ولنتجه إلى الشمال .. إلى قرية أو بلدة لم يعلنوا اسمها بعد .

ها هو الركب يقف ..

ها هو مخيم الملك الكبير يضرب ..

ها هى مظاهر الحراسة .. من جيش وشرطة .. تملأ المكان كله .. أفما نزال فى أرض سعودية ؟

أجل .. لم نزل .. إنها قرية (بدنه) على الحدود السعودية الأردنية .

ما هذه (البروتوكولات) الملكية العربية التى تملى أوامرها على رجال المملكة ؟

وعزفت الموسيقى بالسلام الأردنى .

وتخطى الحدود الملك الشاب حسين بن طلال ملك الأردن .

وتعانق الحسين وسعود .. ويالكلمة (الحسين) من ذكريات حجازية .. ولكن دعها .. فالأمر أخطر .

وساد المكان سكون رهيب .. وأعلن أن الملكين مجتمعان .

تسأل وأنت تهز رأسك فى ذهول : ما هى القصة ؟

لا أعرفها على وجه التفصيل .

إنما أعرف أشياء لا يجمل بك كعربى أن تجهلها .

إنك تعرف العراك السياسى الخفى الناشب الآن فى الأردن .. بين الملك الوطنى الشاب (ابن طلال وكفى) وبين المستعمر ..

وتعرف العراك العسكرى البين .. الذى يبدو على الحدود بين الحين والحين .. فى صور اعتداءات « غير مفهومة » من جيش إسرائيل على المواطنين الأردنيين .

وتعرف موقف الجامعة العربية — ولها والله ألف عذر وعذر — إزاء ما يرجوه الأردن منها ومن شقيقاته .. وإزاء الكماشة التى تطبق فكها الاستعمارى وفكها الإسرائيلى عليه .

وتعرف أن السياسة السعودية ترمى إلى سد الثغرات فى الجدار العربى وثغرة الأردن تبدو رهيبة غير قابلة للسد ..

وظن ملك الأردن أن « سعودا » حزين من ناحية على الوالد .. منصرف من ناحية أخرى إلى تلقى البيعة فى الداخل .. فلا محل للتحدث إليه فى هذه الآونة .

وفجأة يقال للملك حسين أن أخاك الأكبر سعودا لاينساك مهما يكن الظرف .

وفجأة يتحدد اللقاء عند الحدود .. وعلى أرض سعودية لنفس السبب الذى لم أقله لك يا صاحبى عند ما سألتنى عن سر إرجاء سعود لزيارة الكويت والبحرين .

وهأنتذا ترى الملكين يجتمعان .

وهأنتذا تشهد نشاط الساسة ذوى الأنياب المرافقين لسعود .

ها هو يوسف ياسين يبسط الخريطة أمامه ويحدق فيها بعينيه الصارمتين الضيقتين .. ها هو يميل إلى رشيد عالى فيهمس بالرأى فى أذنيه .. ها هو جمال الحسينى مجاهد فلسطين يضع على بعض الأماكن أصبعيه .. ها هم أولاء يدخلون إلى حيث الملك ويخرجون راضين .. ها هو الطبيشى يدخل ليقول للملك الابن شيئاً يلوح أنه منقول عن الملك الوالد .

ها هى الاجتماعات تنفض .. والملكان يتوادعان .

أترى إلى ذلك البريق فى عينى حسين .. وإلى ذلك الرضا يرتسم فى هدوء على وجه سعود ؟

أترى إلى الملك الصغير الشاب .. وقد جاء تلوح عليه أمارات التفكير العميق ثم ها هو ذا يذهب والثقة تملأ صدره ... والإيمان يلقى ظلاله على محياه ؟

قل إن الزيارة نجحت من غير أن تدخل فى السياسة .

قل إن سعودا كتب صفحة .

قل إن العروبة سجلت كسباً .

قليلا من الصبر يا صاحبى .

إن يوسف ياسين يعد بياناً ..

إنهم يتحدثون عن وكالة الأنباء العربية للاتصال بمراسلها فى مكة .

ها هو البلاغ بين يديك .. وغداً يقرأه العالم كله فدعنا نقرأ .

مكة — و . ا . ع

يؤخذ من الأنباء الواردة إلى مكة أنه حدث فى اليوم الأخير من اجتماع العاهلين السعودى والهاشمى فى بدنة أن أكد الملك سعود لضيفه الملك حسين

أنه مستعد لبذل أقصى ما يمكن من الجهود لتحقيق التعاون بين البلدين على أساس من الوفاء والإخلاص والصدق .

وطلب الضيف الأردنى من الملك سعود أن يزور الأردن فرد العاهل السعودى بقوله : إننى أعتبر بلادكم بلادنا وبلادنا بلادكم بفضل ما بيننا وبين الشعبين من روابط المودة والاخاء . .

وأضاف الملك سعود يقول :

أنه يقدر الفائدة الكبيرة من الاجتماع والتفاهم ووعد بأن يزور الأردن متى سنحت الفرصة .

وأخذ الملك سعود يواصل رحلته فى ربوع بلاده .

أقرأ .. وأعد القراءة ..

ثبت إذن رسمياً إن ملك الأردن نفسه — لا أمير الكويت ولا أمير البحرين — دعا سعوداً إلى زيارة الأردن فوعده — كما وعدهما بالزيارة — متى ؟ « متى سنحت الفرصة » .

أتطلب تفسيراً لهذه العبارة ؟

التفسير هو بعينه الجواب الذى ضننت به عليك عندما سألتنى عن سر امتناعه عن زيارة الكويت والبحرين .

ونعم .. حان الوقت لأن أميط اللثام عن ذلك السر الجليل .. سر .. تناهى فى البساطة فى ظاهره .. وتناهى فى السياسة فى باطنه .. وتناهى فى جلال الأهداف فى لحمته وسداه .. فاستمع إليه يا أخاه .

السر يا صاحبى أن سعود بن عبد العزيز رأى وقد ارتقى أريكة الملك أن يبدأ سياسته العربية من حيث ينبغى أن تبدأ .. ورأى إعلاناً للدنيا العربية بمعسكريها .. وللرقعة المحايدة بشرقيها .. أن سياسة الملك الجديد استقرت على أن تتزعم مصر وحدة العروبة .. رأى أن يحج إليها حجة السياسى الأول ..

وأن تكون قبلته الأولى عندما يتخطى حدود ملكه الجديد ليزور الأشقاء وأبناء العمومة .. وبعد الزيارة الأولى .. التى يرتبها فى ذهنه الصافى هذا المعنى العربى الرفيع .. وهذا الاتجاه السياسى .. يدع للظرف أو للرأى أن يرتب له الزيارات الأخرى .

ومن هنا حرص سعود على أن يعتذر للإمارتين الكويت والبحرين .. وكان على مرمى النظر منهما .. وعلى أن يعتذر للملك حسين .. وقد لقيه على مرمى النظر من حدود الأردن .

وأحسبك الآن قد تنبهت على حقيقة عميقة لن ترفع عنها نظرك خلال تطوافنا .

وستتعجل سفرنا إلى مصر لترى إن كان ما قلته لك هو الحق أم أن العنصر الروائى كان فيما قلته لك الغالب .. والواقع يا أخى أن الأحداث أثبتت لك دائماً إنى لا أقول لك إلا ما أعرف أنه حق .. إنما هو حنينك إلى مصر قد أخذ بشغاف قلبك فأردت أن تستره بهذه التعلة .. قليلا من الصبر يا أخى ..

ولا أطلب الصبر عبثاً ..

فما ينبغى يا أخى أن يطير ملك كبير كسعود من قلب الصحراء إلى عاصمة مصر من غير أن يودع عاصمة ملكه هو .. ويتزود منها بمن شاء من مستشارين ذوى خبرة ودراية يختارون لأهداف الرحلة بما تستأهله من عناية .. ويوائم تشرفهم بمرافقة البرنامج الموضوع بدقة وإدراك لهذه الرحلة .

وقد تكون هناك تقاليد أخرى فى الطريق فما ضرنا لو ظللنا فى الركب إلى الرياض ؟

فى الرياض :

هانحن أولاء فى الرياض ياصاحبى

وهو حفل واحد فيها .. ثم نحلق فى الجو إلى مصر .

إنه حفل العروبة الأكبر .. فلا تخلع عنك العباءة الموشاة بالقصب .. ولا ترفع عن رأسك العقال فإننا عرب من الآن وفى كل مكان ..

لقد طوفنا مع الركب بجل أرجاء الجزيرة..ورأينا بأعيننا كيف انعقدت البيعة .. وعاد الملك آخر المطاف إلى عاصمة الملك .. أفما يحلو أن يتوج البيعة الإسلامية .. بإحياء تقليد من التقاليد العسكرية العربية ليكون معبرا جميلا بين الطوفة المسلمة فى أرجاء الجزيرة .. والطوفة العربية المقبلة فى مصر الزعيمة .

تبتسم ؟ إذن راقك أن يجول هذا المعنى فى رأس الملك

لقد جال فعلا .. فالمم أطراف العباءة وتهيأ



الملك سعود فى طريقه إلى افتتاح أول مجلس للوزراء

نحن الآن على مشارف الرياض فى حفل يرتد عنه البصر .. والصحراء تموج بقوات الجو والبر تنتظر الإذن لها فى التحرك ..

تقول انه عرض عسكرى ؟ عصرى نعم .. يا أخى .. والعصرية هنا تعنيها العروبة .. والعروبة هنا تستطيع أن تقول للمدعوين من سفراء المعسكرين « نحن فى الطريق إليكم .. »

صه .. بدأ العرض فعلا

تعالت أسماؤك يارب .. كيف غدا جيش « الأربعين الخالدين » الذين فتح بهم عبد العزيز الرياض على هذه الصورة ؟ الإنصاف يا صاحبى يقتضينا أن نقف خاشعين هنيهة قبل أن نحيى مشعل وزير الدفاع الواقف هناك يشرف على العرض .. تقتضينا أن نقف خاشعين هنيهة لا أمام ذكرى عبد العزيز فقط .. بل أمام ذكرى منصور ولده وزير الدفاع السابق .. لقد كانوا يتوقعون أن يلعب فى تاريخ الجزيرة أدواراً .. ولكنها حكمة الله .

تسأل إن كان للجزيرة عهد بمثل هذا العرض ؟

مدى علمى أن الجزيرة على كثرة ما رأت .. لم تر قط أبداً .. مثل هذا العرض ولا مثل هذه المشاهد .. هاهو البرنامج يبدأ فدعنا نتفرج

هاهو العرض يختتم بالوحدات الطبية تمر بها مجهزة أكمل تجهيز .. فتأهب .

انتهى البرنامج كما هو مطبوع ولم يبق إلا أن يقف الملك فيقف المدعوون فيتلقى جلالته التهانىء بنجاح العارضين .

أفلت الزمام :

ها هو الملك يهم بأن يقف . .

إن اللغط يتعالى . . فما هذا الذى بدأ يحدث ؟

أخرج أبناء الصحراء على النظام ولم يستطيعوا له صونا . . أم ماذا ؟

أكتم بالله أنفاسك وانظر . . ولا تسأل . .

إن الحماسة أخذت على الحرس الملكى مسالك التفكير على ما يلوح . . فتسعرت فى قلوب فتية الصحراء نيران لا تقوى على برودة الحضارة . .

ها هى ذى أصواتهم . . ترتفع فى الفضاء بأهازيج الفروسية العربية وتلعلع .

ها هو المذيع المسكين . . يضطرب ويتعثر ثم يتدارك الموقف تنظيماً لهم ويعلن . . أن قوات الحرس الملكى تريد أن تعرض نفسها على مليكها احتفاء به وتكريماً .

تطور الموقف يا صديقى فلا ترتجف .. أربط على القلب باليد .. واصمد . واعذرنى إذا دار رأسى لأنى أرى الآن فى السماء ما لا ترى .

ترفع رأسك ولا ترى شيئاً . . ؟ ارفع قلبك يا أخى قبل أن ترفع رأسك وانتعش .

إنى أرى جنود خالد بن الوليد والفرسان الصناديد فى أيام الخلفاء الراشدين يطلون على جنود سعود . . ويمرون من وراء الستار الإنسانى الذى يحجب عنك المشرق الفاتن .

تقول إنى جننت ؟

قلها يا صاحبي ولا تخف . . لأقول لك إنى أرى أيضاً . . تقاليد بنى أمية تمر معهم من خلف تلك الحجب . . وأرى سيوف بنى العباس تلتمع مشرعة فى أيديهم . . وأرى العروبة موصولة الحلقات من ذلك الحين حتى تلقى الزمام إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن فيجىء إلى الرياض غازياً حيث نقف الآن . . فيتسلم السيف سعود ليخضع آل الرشيد .

انتظر .

أفتدرى أن هـذه الذكريات التى تستوى الآن ماثلة أمام ناظرى . . قد

ثارت فى نفوس الامراء السعوديين أيضاً . . فنسوا أوروبا وأمريكا . . ولم يعد يملأ صدورهم إلا ذكرى عروبتهم وأجدادهم . . وإلا تاريخ أخيهم الذى نادوا به ملكا . . وإلا حبه الذى لمّ بعد أبيهم كل شملهم . . وإلا الفروسية التى حفظت عليهم تقاليدهم . . والإسلام الذى ملأ بالإيمان قلوبهم .

تأهب يا صاحبى . . للمفاجأة الكبرى . . إنى أرى مطلع الحركة فأحزرها . .

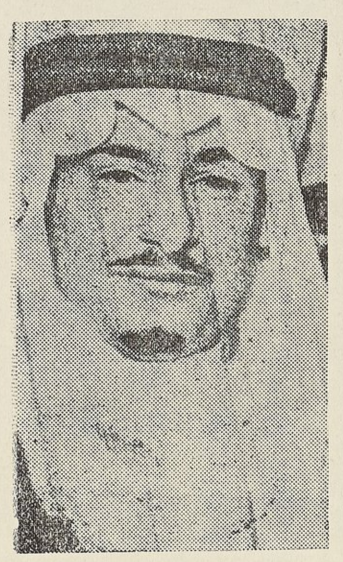
تأهب . . إن السماوات العلا نفسها تتأهب . . قضى الأمر . . وثارت فى قلوب الأمراء ذكرى أبيهم صقر الجزيرة . . يوم كان يرقص رقصة الحرب بسيفه المهند . . فتتوقد جذوة الاستشهاد فى قلوب المحاربين فلا يغلبه فى الصحراء غالب .

وثبوا . . .

أى والله نفضوا عنهم تقاليد الإمارات الحديثة التى لقنوها على أيدى المربين صغاراً . . وزاولوها فى بلاد الحضارة شباباً . . وارتدوا إلى أعماق التاريخ خلصاً أعراباً .

أنظر .. لقد وثبوا كما قلت لك .. وثبوا بأنفسهم والسيوف مشرعة فى أيديهم على وقع الأهازيج وقرع الطبول . .

إنهم يتقدمون على شكل المروحة من أخيهم وملكهم والسفراء والأجانب يحدقون فيهم حتى إذا واجه الأمراء أخاهم سعوداً .. رقصوا رقصة الحرب التى كان يرقصها أبوهم .. وهزجوا وأنشدوا ورددت البادية أحسن أناشيدهم وأهازيجهم .. يحيون حبيبهم وأخاهم كما كانوا يحيون مليكهم وأباهم . .



فهد بن سعود

يحيون سعوداً .. وينادونه باسم ابنه الأكبر .. « فهد » على عادة العرب :

« أبو فهد .. يالله عسى عمره طويل ياشيخنا .. ياعز نجد ونورها »

ها هى روعة الموقف قد أخذت بألباب الأجانب فانطلقوا يصفقون فى حماسة أدنى إلى الجنون الذى رميتنى به .. وها هو الفضاء يردد أصداء الهتاف ترسلها حناجر الأضياف ..

الوقور فيصل :



فيصل يرقص

تسألنى عن فيصل ؟

فيصل أمسى ولياً للعهد . . وهو يجلس فى وقار إلى جوار الملك .

ها هو ذا بدأ يصفق . . أتريد منه حماسة فى التصفيق أقوى . . وهو السياسى الرصين الذى طوف بالدنيا وأتقن أساليب الدهاة . . وعرف ببعد النظر وسلامة الأعصاب ؟

أعصاب ؟ ياويحها الفراسة تتخلى لأول مرة عنى . . ماذا يريد ولى العهد أن يفعل .

إنه ينتفض واقفاً فى شمم .

إنه يلقى العباءة بعيداً . . وينفلت إلى الساحة كما كان فى ساحة الحروب يافعاً . . أنه يستل سيفه المرصع بالجواهر . . يستله من صميم البروتوكول بساعد العروبة .. ويصرخ فى زئير الأسود وعاطفة الحب الموروث ويلعلع منه الصوت على دق الطبول والدفوف يخاطب أخاه سعودا والأخوة يرددون « أبو فهد .. ياالله عسى عمره طويل ياشيخنا .. يا عز نجد ونورها » يخيل إلى يا صاحبى أن رحاب الصحراء اتسعت لرحاب السماء . . وأن الدنيا التى نعرفها توارث فى ضرام العاطفة عن أعينهم .

لا . . لا . . لا



سلطان بن عبد العزيز

قف . . لا تتحرك أستحلفك . .

التاريخ نفسه يتحرك . .

من هذا الفتى الذى يحدق فى الملك ويدنو منه . . وما الذى يقصد إليه من هذا الدنو ؟

آه . . إنه الأمير الوزير سلطان بن عبد العزيز .

إنه يدنو من سعود . . ويدنو على مهل .

إنه يثب وثبة خاطفة . . ثم يتوقف .

إنه ينحنى أمام الملك . . ويقدم سيفاً .

أيريد أن يباركه الملك أم ماذا يقصد ؟

إن المدعوين يحبسون أنفاسهم ليروا هذا المشهد المفاجىء . .

إن سعودا . . ماذا ؟ دعنا نلتقط بحق السماء أنفاسنا . .



سعود الملك الإمام . . نفسه

إن . . إن صاحب الجلالة الإمام ابن الإمام سعود بن عبد العزيز . .
يهب واقفاً فيقف الخلائق جمعاً . .

إنه يلتقط السيف من أخيه إلتقاطاً . . إنه ينحى عنه أردية الملك جميعاً
إنه بذاته يثب إلى الساحة وثباً . . إنه يلعب بالسيف فى الحلبة كما كان يلعب به
صقر الجزيرة . . إن سعودا . . يرقص رقصة الحرب بين الأخوة الأعزة . .
وجنبات الصحراء ترتج ارتجاجاً . . بدوى الهتاف وتصفيق الخلائق . .
وتاريخ العروبة يطل هذه المرة وضاء راضياً . . والفضاء يردد هذه الأصداء . .
فتزول الأبعاد أو تكاد بين الأرض والسماء . .

وعلا صوت سعود بالغناء . .

أى والله صوت سعود . . وبالأهازيج والأناشيد . . ولم تردد أصداء
صوته هذه المرة فلوات وصحارى . . إنما رددها على مسمع السفراء والوزراء
تاريخ الحضارة .

أفكنت يا صاحبى تريد أن تعدو إلى الطائرة عدوا . . لتبلغ القاهرة
فوراً . . وتحرم هذا المشهد الخالد . . مشهد العروبة تجرى مع الدم فى عروق
الملك العربى ؟ وهلا ترى بعد الذى رأيت أن سعوداً وهو يتوج البيعة
الإسلامية بالتقاليد العربية . . انما يقول لمصر زعيمة العروبة قبل أن يبلغها
أنه على استعداد لأن يفعل فى سبيل الوحدة العربية كل ما يدخل فى طوقه
كملك وكإمام وكعربى ؟

الآن نبرح الرياض راضين .

الآن نولى وجوهنا شطر النيل الجميل وملء صدورنا إيمان بما يجنيه الشرق
من ثمار التحالف بين مصر التى تتزعم . . وبين البيت المحرم .

الآن نستقبل سعوداً فى ديارنا وهو المضيف ونحن الضيوف .

الفصل الثالث عشر

سياسة « اليوم »

أخيراً ياصاحبي .. بلغنا الهدف المرجو .

ها هى الطائرة .. تهبط بنا فى مطار القاهرة ..

وها هى مصر حكومة وشعباً .. تستقبل ضيفها الكبير القادم .



مصر الرسمية تهرع إلى المطار لاستقبال الملك

وها نحن أولاء فى الركب الملكى .. نشهد ظاهرتين كبيرتين .. قد يكون لهما اتصال بالهدف .

الظاهرة الأولى أن خمسة عشر أميراً من الأسرة المالكة يرافقون سعوداً . وفى طليعتهم الأمير محمد ثالث أنجال الملك — بعد سعود وفيصل — سناً

ونفوذاً .. والظاهرة الأخرى إن الركب يضم عدداً ضخماً من المستشارين السياسيين ومن رجال الجهاز السعودى الذى يتحرك فى الساعة العصيبة الفاصلة تحركا دقيقاً واعياً .. فماذا تعنى هاتان الظاهرتان ؟

أيعنى وجود الأمراء بهذه الكثره أن من تقاليد هذه الأسرة الحاكمة أن تدرب أبناءها على السياسة الخارجية ومساربها .. وتعرفهم بالساسة العرب وأقدارهم .. لا سيما أن الوزارات السعودية لم يكن يليها قبل عهد سعود غير أمراء من بيت الملك إذا استثنيت عبد الله السليمان ؟ أم تعنى الظاهرة أن الملك الضيف .. أراد أن يشعر مصر بأنها تؤلف مع مملكته .. مملكة واحدة .. فجاء إلى زيارة بيته الثانى هنا محوطاً بلفيف نابه من أفراد بيته الأول ؟

أى المعنيين على أى حال .. جميل .

أما وجود هذا الحشد من المستشارين السياسيين ورجال الجهاز الإدارى والسياسى فى الديوان الملكى .. فدليل — فى الأغلب الأعم — على أن الرحلة سياسية وذات شأن .. وأن القرارات التى تتخذ فيها من الخطورة بحيث ينبغى أن يلم بها هذا الحشد النابه من الحاشية المسئولة .. وهذه هى الظاهرة الثانية .



يوسف ياسين

وقد يكون مفيداً أن تعبرهم يا صاحبى بنظرة لا تلفتهم ولا تستقر طويلا على أحد منهم .. فنحن كما تعرف معنيون بالسياسة أكثر من عنايتنا بالساسة .. ولكن نظرة منك تريك أن فى مقدمة الحشد السياسى السورى المخضرم يوسف ياسين ساعد فيصل ابن عبد العزيز .. وتريك أيضاً السياسى المصرى القصير القامة ساعد صقر الجزيرة من هلال النهضة .. حافظ وهبه .. وتريك

عبد الرحمن الطبيشى ناظر خاصة الملكين عمرا .. وتريك سليمان الحمد تلميذ عمه عبد الله السليمان .. كما تريك رئيس الديوان عبد الله ابن عثمان .. ورشدى ملحس رئيس الشعبة السياسية فى الديوان .. وعبد الرحمن الحميدى رئيس المكتب الخاص للملك وعبد الله بلخير السكرتير الخاص للملك .. ينتظر هؤلاء جميعاً هنا حشــد آخر من السلك السياسى المعروف لنا .. كعبد الله الفضل السفير الطيب الهادىء .. الذى يلوح بسيطاً وصريحاً .. ولكنه يسجل فى المهارة رقماً قياسياً يفاجأ به

عبد الرحمن الطبيشى

السلك السياسى دائماً .. وينفذ فى صبر وصمت سياستى عبد العزيز وسعود . . ويملك هو الآخر جهازاً طيباً من معاونين أكفاء ..



عبد الله الفضل

عبرناهم يا صاحبى ...

وبعد ؟

تسأل : وبعد؟

إن شئت الصراحة فالجواب قــد لا يروقك ..

إنى ألمح فى الاتصالات التى بدأت تجرى . . وفى الأحاديث التى بدأت تدور . . جلالا يحتم على أن أعتذر لك . . من عدم استطاعتى بدءاً من الساعة مصاحبتك .

ذرنى هـذه المرة وحيداً . . وسأردد عليك القصة مجملة . . والسياسة

مبسوطة . . وسترى عند ما أعود إليك . . بمملكة السعوديين موزونة .

تقول إنى سأفقد طلاوتى إذا لم تصاحبنى . . وأجادلك وتجادلنى .

قد يكون . . ولكن الذى أحرص عليه . . ألا أفقد أهدافى . .

إن هذه الأيام العشرة التى يقضيها سعود فى مصر أيام تاريخية من غير شك . . وسألبى كل دعوة توجه إلى . . وسأزور قصر الطاهرة أكثر من مرة . . وقد أجد محدثى القديم موجوداً بين المستشارين . . أو قادماً فى الطريق . . أو هابطاً من شاهق . . المهم ونحن الساعة فى العشرين من مارس . . أو آذار . . أن نلتقى فى التاسع والعشرين لنودع الملك ونبدأ الحديث من جديد .

بعد الرحلة :

تسألنى الآن عن قصر الطاهرة . . والأيام الذهبية العشرة . . وتسألنى أن أبر لك بالوعد وأفضى إليك بالمجمل ؟

لك هذا . . كان القصر يا صاحبى خلية عربية هادئة لا يعرف الطنين سبيله إليها .

وكانت الأيام العشرة غنية . . أغنى بكثير من عشرة شهور ولا أبالغ وأقول : من عشر سنين .

والقصة وما فيها كبيرة . . إلى الحد الذى يعجزك تصوره . . عريضة عرض الآمال التى تعلقها السياسة السعودية على مصر .

هذه السياسة . . ماذا تريد ؟

جاءت هذه السياسة السعودية إلى مصر تسعى أول ما تسعى إلى تعرف حقيقة كبرى . . هى استعداد القائمين بالحكم لإدراك أهداف السعوديين . .

وخرجت السياسة السعودية من هذه الجولة مطمئنة . . إلى أن حكومة

مصر تدرك تماماً أهداف السعوديين . . وإلى أن لحكومة مصر من الآمال المعقودة على الشرق كله « من أقصاه إلى أدناه » ما قد يدعو الأهداف السعودية إلى التماس المزيد من المرونة .

وقال « محدثى » — وما أحوجنى الساعة إليه — إن أحد المستشارين قال للملك مازحاً يعقب على أحاديث مصرية سعودية ذات شأن : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فضحك الملك طويلا . . وتبين أن سعوداً كان قد رسم وهو فى الرياض الخطوط العريضة التى ألفاها مرسومة فى مصر . . ولكنه تحاشى أن يشير إليها حتى لا ترمى السياسة السعودية بالإسراف فى « المثالية » فلما ألفاها هنا مرسومة . . اكتفى بأن أقرها . . ولم يشر إلى أنها أمانيه الشخصية .. ومن هنا كانت مزحة المستشار لمليكه .

ماذا تريد هذه السياسة ؟

أما أن تسألنى يا صاحبى : ماذا تريد هذه السياسة ؟ فالسؤال على هذا الوضع لا يجاب عنه فى يسر .

وفى وسعك أن تسأل : ما الذى تريده اليوم ؟ وما الذى تريده غدا ؟ وما الذى تريده بعد غد ؟

أما اليوم فالسياسة السعودية تريد من مصر أن تتسلم زمام القيادة فى حكمة وحزم .. وأن تبدأ مهمتها على الفور .. وأن توحد بين دول الجامعة العربية توحيداً قلبياً صريحاً وصادقاً.. وأن تأخذ بسياسة التفاهم الشخصى والمواجهة.. وأن تقسم هذه الأعباء بين الدول الأعضاء . . فما ينجح فيه سعود نفسه .. سيقدم عليه فى غير تردد .. وما يصلح له حكام مصر يقدمون عليه فى غير تردد .. وما يفلح فيه الرئيس اللبنانى أو غير اللبنانى يعمل الجانبان — المصرى والسعودى — على إقناعه بالقيام به .

والعمل الأول — كما تراه السياسة السعودية — هو الخطى الجريئة

من جانب مصر فى الإقدام على تطهير أراضيها أولا من المستعمر لتطلق يديها ثانيا فى النهوض بشقيقاتها .. والتضحيات التى تحتملها مصر فى هذه الناحية ثمن لا بد منه للزعامة التى تبايع بها من شقيقاتها .. والسعوديون على استعداد للمساهمة فى هذه التضحيات بكل ما يدخل فى مقدورهم .

تقول إننى أضرب بك فى تيه من التعميم والتجهيل ؟

كلا يا صاحبي .. فهذه الناحية لا تحتمل تجهيلا ..

يرى السعوديون — ومصر ترى معهم نفس الرأى — أن التعليم مثلا يجب أن توحد برامجه فوراً .. وفى الدول العربية جميعا .. وأن تكون البرامج المصرية هى أداة هذا التوحيد .. وأن تكون الكتب الدراسية التى يدرسها طالب الابتدائية مثلا فى مصر هى نفس الكتب التى يدرسها طالب الابتدائية فى كل مكان فى الشرق العربى .. ولا محل لأن يقال إن التعليم متقدم فى مكان ومتأخر فى مكان .. فالبلد الذى لا يوجد فيه تعليم ابتدائى حديث — كاليمن مثلا — يمكن أن يبدأ فورا بإيجاده كما بدئ به فى ليبيا الناشئة .. والمؤسسة الثقافية العربية التى تنشأ للإشراف على توحيد التعليم فى البلاد العربية كفيلة « كيونسكو عربى » بسد الثغرات جميعا متى أحسن تأليفها من أعضاء فنيين وواعين يمثلون مجموعة هذه الدول .

ولكن ...

ومع أن السعوديين يعلقون أهمية كبيرة على هذه الناحية فإن لهم رأيا فى « التنفيذ » يحبون أن يبدوه فى غير تحفظ .. وهو الرجاء المعقود على مصر فى أن تسخو على البلاد العربية ببعثات المعلمين سخاء مقرونا بالتضحية والإيثار .. وحسن الاختيار .. لأن البلاد المتأخرة ثقافة لا تطلب مائة معلم يعدون بالأرقام أو بالأجسام .. إنما تطلب مائة من خلص المربين .. يدركون أنهم لا يعلمون تلاميذ فقط .. إنما يوحدون تعليما .. ويخلقون للعروبة جيلا ..

ويؤدون رسالة بعيدة المدى لحضارة عربية مقبلة .. وإذا كانت بعض بلاد العروبة قد شكت أحياناً من تخلف شعوبها أو استنامة بعض هذه الشعوب للمستعمر أو للمحتل .. فالفرصة سانحة بدءا من اليوم لخلق الجيل العربى الحر الذى لا يقبل الذل ..

وحكومة مصر تؤيد هذا الرأى وهى مستعدة للنهوض بالعبء على ما به من ثقل . . لأنها تدرك إدراكا بعيد الغور . . أن خلق جيل عربى . . ينشأ على برامج واحدة . . ويطالع فى كتب موحدة . . ويفكر بطريقة واحدة . . مؤد حتما إلى وحدة فى الشعور . . بحيث لو انبعثت صرخة من أقصى اليمن . . رددتها جنبات مصر وليبيا فى أقصر المدى . . وخف لنجدة الصارخ كل عربى فى لبنان أو سوريا .

و « الوحدة العربية » لا تعنى الوحدة السياسية وحدها . . ولا تقوم عليها . . إنما تعنى أصلا وقبلا . . وحدة الشعور . . ومحال أن يتوحد الشعور فى اثنين . . إلا أن توحدت طريقتا التفكير فيهما . . فتم التفاهم التلقائى بينهما . . فانبعث الشعور الموحد من تفاهمهما . . فتعاون الاثنان على الهدف بالعقل والعاطفة معاً .. وهذا التعاون على الأهداف هو « الوحدة السياسية » بل هو عين « القومية العربية » .

وقد قيل لى يا صاحبى — وأسعدنى هذا الذى قيل — إن التكتل العربى الذى يراد لمصر سياسياً أن تتزعمه سيقوم أول ما يقوم على الوحدة الثقافية التى حدثتك عنها . . فإن صح هذا الذى قيل فـ « أبشر . . » بلغة السعوديين . . لأنى من المؤمنين بهذه الوحدة .

وفقط . . :

تقول : « وفقط ؟ » أى فقط تعنى ؟

تعنى أن تسأل : ألم يتفق على غير التوحيد فى طرق التعليم ؟

كلا يا صاحبى . . أنت إذن لم تفهمنى بعد . . لأن اتفاقاً نهائياً على أى

الطرائق لم يتم ولم يبرم .. لأن الملك السعودى والمستشارين ليسوا « خبراء » أو « فنيين » فى التعليم أو غير التعليم . . إنما هم خبراء بالعروبة جاءوا ليقيموا لها بناءها العالى .. وإنما أضرب لك مثلا بالخطوط العريضة التى رسمتها المحادثات التى جرت . . لتدرك أن السياستين المصرية والسعودية لا تريدان وهما تتحدثان عن « الكتلة العربية » فى هذه المرة أى إنشاء أنيق . . إنما تواجهان الحقائق عارية . . لتجىء النوايا صادقة . . ولتخطو كل منهما خطاها سافرة جريئة .

لقد مست أطراف كل ناحية من نواحى النهوض بدول العروبة ومقومات الوحدة العربيـــة المرجوة . . ومس تأليف شركات الملاحة العربية والاشتراك فى إنشاء الأساطيل . . ومست السياسة السمحة المنشودة فى انتقال رؤوس الأموال بين الدول العربية . . ومس موضوع توحيد العملة وأخيراً بحث موضوع التعاون العسكرى الصادق بين دول الجامعة . . وتعهدت مصر بإيفاد بعثاتها العسكرية إلى أرجاء البقاع العربية . . تمهيداً لتوحيد النظام العسكرى بين الجميع . . لتؤلف جيوش الدول العربية أخيراً جيشاً واحداً أو موحداً .

لقد بلغ اهتمام سعود بكل صغيرة وكبيرة تمس العروبة ومصر الزعيمة أن التفت وهو فى القناطر الخيرية إلى السيد فتحى رضوان رئيس بعثة الشرف الذى يرافقه وأعرب عن دهشته أن تكون مصر هكذا ويسافر أبناؤنا إلى أوروبا (أى أبناء السعوديين) ولست أعنى وأنا أحيطك خبراً بمجمل ما قيل لى بأن أفصل لك كل ما قيل . . إنما أردت أن أقول لك أن الملك سعود أراد من زيارته — أول ما أراد — أن يدعو مصر إلى تسلم زمام القيادة تسلماً سريعاً وحازماً . . لأن الأحداث لم تعد تسمح بالبطء .. والشرق العربى فى حاجة إلى النهوض السريع . . والضمان الجماعى نفسه . . الضمان الذى يراد له الآن أن يخرج إلى حيز التنفيذ على عجل لا سبيل إليه إلا بأن

تخطو مصر الخطى المطلوبة منها كزعيمة .. فيسافر زعماؤها إلى كل مكان فيه خلاف يتطلب تسوية .. ويثبون إلى كل قلب فيه جفوة تتطلب ترضية .. وينسربون إلى كل صدر يملأه الشك ليملأوه ثقة .. وإلى كل عقل فيه التواء ويتطلب تقويماً ..

أريد أن أقول لك إن سعوداً صارح مصر بأنه إنما يجىء — أول ما يجىء — ليعلن قيام محور « القاهرة — الرياض » وليتعاون طرفا المحور على أن تنضم إليه دول الشرق العربى .. بنفس الروح الذى ارتضاه الطرفان روح التضحية والإيثار .. وتعهد الملك سعود من ناحيته بأن يضرب للتضحية كل مثل يمكن أن يضرب .. تعهد بأن يزور إمام اليمن .. وبأن يزور الأردن . ولن يتردد فى زيارة أى مكان تفلح فيه الزيارة وتثمر التضحية .. وتعهدت مصر أن تزور لبنان .. وأن تزور اليمن لتمهد لزيارته لها .. وأن تزور كل مكان تفلح فيه الزيارة المصرية وتثمر التضحية .

وتخرج يا صاحبى من هذا المجمل بأن محور « القاهرة . الرياض » قد قام فعلا .. ولا رجعة فيه ولا انتكاس له أبداً .. وفى القاهرة والرياض أكبر الإمكانيات فى الشرق كما لا بد أن تعلم .. وفى مصر كفاية سياسية لا ينكرها عربى .. وفى المملكة السعودية ثروة روحية يعنو لها وجه كل مسلم .

تقول : والسودان ؟

لفتة بارعة منك يا صاحبى .. لعل أوجه الشبه التى كانت قد جالت بخاطرى يوم هبطت بالطائرة فى مطار بور سودان هى التى حملتك على هذا السؤال .

وجوابى أن السودان لم يحتمل بحثاً .. إن محور « القاهرة — الرياض » إنما هو فى حقيقته محور ثلاثى لك أن تسميه فى الوجدان — ومن غير داع إلى الإعلان — محور « القاهرة — الخرطوم — الرياض » .. كما كانوا يقولون أيام الحرب العالمية الأخيرة : محور « طوكيو — روما — برلين » مع الفارق الكبير بين أهداف التحرر وأهداف الاستعمار .. ومع الفارق الكبير بين دعاة الحرب ودعاة السلام .. ومع الفارق الكبير بين الوثنية

فى التفكير النازى والفاشى .. والروحية فى التفكير العربى والإسلامى .
السودان يا صاحبى الرئة الأولى أو العين اليمنى لعملاقنا الإنسانى أول أنهار الدنيا حضارة وثانيها طولا .. فما محل أن يوجد بيننا هذا النيل ثم نتحدث عن الوحدة ؟ والسودان يا صاحبى ينهج تلقائياً فى برامج التعليم وطرائق التفكير نهج أخته مصر .. ومصر توليه فى عهدها الجديد من الرعاية أكثر ما تولى بنيها .. والسياسة السعودية تعرف هذه الحقيقة .. وترى فى الإتصال التجارى الجارى بين جدة وبور سودان .. أو بين المملكة العربية والسودان .. نوعاً من الإتصال بمصر أشبه ما يكون بالإتصال بين جدة والسويس .. والسياسة السعودية إذ تعدد أوجه الشبه بين مصر والمملكة العربية إنما تدخل فى حسابها السودان .. وقد تعرف بعد حين .. أن نظرتها إلى السودان تجاوز الحدود الجغرافية الحالية له .. إلى بقاع أفريقية مسلمة .. وأفريقية غير مسلمة يعدها السعوديون ضمن الحدود السودانية التى أرادها الله وحاربها المستعمر .. بل أذكرنى أحد المستشارين مرة بسياسة قديمة لجمال الدين الأفغانى يوم رنا إلى تحرير مصر عن طريق تحرير السودان أولا .. فرأى أن يركز قواه فى إخراج الإنجليز من السودان بمساندة الثورة المهدية ومناصرتها .. لتنتقل الثورة طبيعياً إلى الشطر الشمالى وتخرج الإنجليز من مصر .. وقلت للمستشار السعودى ونحن فى قصر الطاهرة : « يخيل إلى أن مصر الحديثة حققت نفس النظرية فى جوهرها فبدأت بإثارة السودان على البريطانيين وأرجأنا نحن ثورتنا .. ومكنا للسودان دولياً من اتفاقية تحقق خروج الانجليز منه قبل أن نصل نحن إلى مثل هذه الإتفاقية .. ألا ترى أننا لم نبعد كثيراً عن رأى الأفغانى ؟ » وضحك المستشار السعودى طويلا .. ووصف هذا التخريج بأنه « تخريج شيطانى » وإذن فلا تشغل نفسك بالسودان يا صاحبى .

تقول : والجامعة العربية أين مكانها ؟

ما هذا السؤال يا صاحبى ؟ الجامعة العربية تنتظر نتائج هذا المسعى ..

الجامعة ليست إلا البوتقة التى تتبلور فيها هذه الجهود وما أراد لها أحد قط غير هذه المهمة .. الجامعة العربية وحدها .. يكفيها — على كل ما لاقت وعانت — أنها ما تزال على قيد الحياة .. حسبنا من هذه الجامعة أن رمى الإنجليز من وراء وجودها إلى تضليل الشرق العربى عن كفاحه الشعبى والجدى .. فاستطاع وعينا القومى أن يحرص عليها وأن يلوح بها .. وأن تظل قائمة حتى يجىء الوقت فنكسو عظامها لحماً .. ونجرى فى عروقها دماً .. (وتنهض فيه بمهمتها) .. وسعود بن عبد العزيز إنما يجىء لينفخ فيها من روحه .. وليمكن لها من هذه المهمة .. وهو يرى أن مصر بالزعامة السياسية تستطيع أن تغدو خط الدفاع الأول عن العروبة .. وأن المملكة السعودية بالزعامة الروحية تستطيع أن تغدو خط الدفاع الأول عن الإسلام .. وأن الجامعة العربية بالمهام التى تنتظرها تستطيع أن تتلقى الزمامين أخيراً .. وتحشد جهود المملكتين معاً فى منظمة دولية ذات شأن .. شأنها شأن منظمة الأمم المتحدة مع الفارق الكبير الذى تعرفه بين المنتظمتين .. ومع الانسجام الطبيعى الذى لابد أن يقوم بين دول العروبة .. والاصطدام الطبيعى الذى قام وما يزال بين دول المعسكرين فى هيئة الأمم .

والولايات المتحدة :

تحب أن تذكرنى بتصورى القديم للوحدة العربية مصبوبة فى قالب فيدرالى أو ولايات عربية متحدة ؟

ما له هذا التصور ؟

ترى أن السعوديين لم يتصوروه ؟

أبداً يا صاحبى .

أنهم أكثر تصوراً له منى ومنك .

إن الوضع الطبيعى للمملكة العربية كاف وحده لتذكيرها بهذه الأمنية الحبيبة ..

ضع خريطة شبه الجزيرة أمامك وأنت تقتنع .. كلا يا صاحبي ..
بل انظر إلى غلاف كتابي لتدرك سر مجيئه في صورة خريطة .. خريطة
مبسوطة ملونة تضاف إلى رحلاتك معنا فيها .

إن النزاع على واحة البوريمى .. بينها وبين انجلترا .. كاف وحده لخلق
هذا التصور .

تقول إنه البترول .

لا تصدق يا أخى .. ولدى انجلترا بترول الكويت .. وبينها وبين
أمريكا وحدة بترولية لا انفصام لعراها .. وما كان أغناها عن بترول
محتمل الوجود فى بقعة صغيرة كالواحة .. أو ما كان أولاها — أى
انجلترا — بمنازعة الألمان الذين يبحثون عن البترول فى اليمن .. والأمريكيين
الذين يبحثون عنه فى صحارى مصر .

إن المملكة السعودية تعلم علم اليقين أن انجلترا « المستعمرة » هى التى تريد
السيطرة على الواحة .. لأنها ملتقى القوافل الذاهبة إلى الجهات الأربع فهى
موقع استراتيجى على شمال الخليج الفارسى وعلى الطريق المؤدى إلى مسقط
فى الشرق وإلى محميات عدن فى الجنوب والغرب بل هى قواعد حربية مقطوعة
النظير تسيطر على الطريق — وهنا الخطر — المؤدى رأساً إلى قلب نجد
أو هى سهم مصوب تماماً إلى قلب الرياض .. وتملك الإنجليز لها على ضآلة
شأنها سكاناً وعمراناً يجعل المستعمر قابضا فى أى وقت يشاء على المنافذ إلى
شبه جزيرة العرب كلها .. ومن عجب أن الصحافة العربية انساقت كلها إلى
تعليل النزاع بالبترول ولم أجد على صفحاتها إلا مقالا واحداً لكاتب واحد
أشار مرة إلى أن النزاع استراتيجى واستعمارى .

وفى وسعك يا صاحبى أن تقرر وأنت آمن عقبة المبالغة أن اهتمام سعود
ابن عبد العزيز بواحة البوريمى الصغيرة لايقل شأنا عن اهتمام مصر بقناة

السويس . . ومن هنا يلتقى سعود معنا فى المحنة وإن كانت سياسة جلالته تميل إلى التهوين من الأمر لأكثر من اعتبار ورجاء حل العقدة فى هدوء وعلى الزمن . . وضمن حلول أخر .

تريد أيضاً أن تفهم هذه الاعتبارات ؟

صدقنى أنى غير ملم بها تفصيلا ولكن الذاكرة تعود بى هنا إلى « محدثى » القديم وجلسات جدة — وما أحوجنى إليه فى كل بحوثى — فأذكر أن السياسة السعودية ترى أن وضع البوريمى فى خط الهجوم الاول . . قد يساء فهمه عند بعض الشعوب العربية فتظن أن مبعث اهتمام سعود بمحاربة المستعمرين يرجع إلى غضبه عليهم من ناحية البوريمى مع أن الواقع ينفى هذا الظن . . لأن أمر البوريمى يمكن إرجاؤه عشرات الأعوام ما دام السلام قائماً فى شبه الجزيرة . . وتحرير البوريمى وحدها لا يحرر المحميات ولا يحرر مسقط ولا يحرر عدن ولا يحرر الساحل العمانى — وأهداف السعوديين طرد المستعمرين من شبه الجزيرة كلها لا من البوريمى وحدها . . بل طردهم من دول العروبة جميعاً . . ثم لا تنس أن الهند — درة التاج البريطانى — أفلتت من بريطانيا فانهارت أمبراطوريتها ولم تعد تخشى على طريق الهند ممن يضع يده على البوريمى كما خشيت على هذا الطريق من مصر يوم بلغتها قواتها واستولت عليها فى أيام محمد على الكبير فحاكت له بريطانيا ما قوض فتوحاته ورده إلى حدود مصر . . والياً متواضعاً .

تسأل : إذن ما سبب اهتمام بريطانيا بالبوريمى ، وهى مسيطرة على عدن ومحمياتها ، وساحل الخليج الفارسى ، ولها سلطانها السياسى ، والبترولى على الكويت ؟

وجوابى أن البوريمى كما قلت تسيطر على الطرقات المؤدية إلى هذه البقاع واحتفاظها بهذا الساحل له كل الأهمية من حيث قربه من كينيا الثائرة وإفريقيا التى تتغلغل الوحى فيها وأحسبك تعرف أن بريطانيا تحلم الآن بإقامة

الملك سعود يستمع إلى سكرتيره عبد الله بلخير وهو يتلو عليه البرقيات

مجدها الإمبراطورى بعد أن انهار هذا المجد فى آسيا . . وهذا الساحل خط دفاع عن هذه الامبراطورية التى تحلم بها وعدن مركز تموين لأساطيلها بل لا سبيل لروسيا إلى الاستيلاء على إفريقيا كما قال الكاتب المقنع إلا عن طريق الخليج الفارسى والبحر الأحمر . . ونقول نحن إن البحر الأحمر شاطئه المصرى ثائر ولابد أن يتطهر منهم . . وشاطئه السعودى متحرر . . فلا أقل من الاحتفاظ منه بعدن ومحمياتها والخليج الفارسى تسيطر فيه على مسقط والكويت والبحرين وما جاورها وأحسبك الآن قد أدركت قصة البوريمى وسر اهتمام السعوديين بها .

ألست ترى الآن حاجة شبه الجزيرة إلى اتحاد « ولاياتها » .. بعضها مع بعض على الأقل . . وبأقصى السرعة وفى أقصر المدى ؟

تريد أن تقول : « كلنا فى الهم شرق » ؟

قلها ياسيدى ولا ضير : ولكن تذكر أنى إنما أحدثك هنا عن « سياسة اليوم » لا عن « سياسة الغد » وأكبر دليل على أن السعوديين مدفوعون إلى أهداف أبعد مدى من البوريمى . . أنى سأحدثك حالا . . عن السياسة الدولية للمملكة السعودية . . والتقائها فى هذه الساحة بالسياسة المصرية . . لتدرك أن مصر الزعيمة والمملكة العربية المدركة لكل الأوضاع إنما ترميان إلى تكتيل الشرق كله . . وإلى استرداد زمام الحضارة الذى أفلت منه فاستبد به الغرب كل ذلك الماضى الطويل المحزن .

مللت الحديث . . ؟ أم عمق ؟

عمق . . إذن فاسترح واسترد أنفاسك .

الفصل الرابع عشر

سياسة الغد وما بعد الغد

إنى أدرك أنك مشوق إلى استطلاع رأى السعوديين فيما نسميه : « سياسة الغد وبعد الغد »

وأحب لصاحبى أن يكون قد اقتنع معى بأن سياسة السعوديين فى عهد سعود .. ترنو دائماً إلى الأفق .. وترمى دائماً إلى بعيد .. وتحلم دائماً بالغد .

ويخيل لى أن وصول الملك إلى القاهرة كان يعنى أن المملكة السعودية طوت خريطة الجزيرة وأن مصر طوت خريطة النيل .. وأن الشقيقتين بسطتا أمامهما أو بينهما .. خريطتين أخريين .. أوسع رقعة وأشد هولا .. خريطة الشرق كله أولا .. ثم خريطة العالم كله أخيراً .

وقال محدثى مرة أن بعض الساسة السعوديين — من المتفائلين — يرون أن فى وسع الشرق الطموح المؤمن بالغد وما بعد الغد (ومن غير حاجة للخروج من عالم الواقع إلى عالم « ويلز » المتخيل) أن يرسم على خريطة العالم خطاً .. ويجعل فوقه « المعسكرين المتنازعين الشرقى والغربى » .. ويجعل تحته « شرقنا المظلوم .. المطموع فيه .. المعتدى عليه » .. ويجعل ضمن نصفنا الشرقى أجزاء من النصف الآخر .. تضم ضلوعها على حقد يستعر استعاراً .. ويتأجج ناراً .. على « الظالم .. والطامع .. والمعتدى »

تسأل : إن كان هذا رأى سعودى خصب الخيال أو رأى المملكة التى نضعها فى الميزان ؟

مدى علمى ياصاحبى .. أن هذا البحث أثير على نطاق واسع هناك .. وفى قلب نجد .. وبأمر من سعود وتحت إشرافه .. وباشتراك السياسى الكبير

فيصل بن عبد العزيز والمستشارين السياسيين .. وجاء الملك إلى مصر .. فأثار نفس البحث .. وباركته مصر

تقول إن هذا النبأ يمكن لك كعربى من أن ترفع رأسك ؟

مرة أخرى أقول لك : ارفع قلبك .. قبل أن ترفع رأسك .. ارفع قلبك وحاول أن تصدق أن السياسة السعودية الموضوعة خطوطها من أيام عبد العزيز .. تريد أن تجاوز على يدى سعود دائرة البحوث ..

إنها سياسة مؤمنة بالله والحق ولا ترهب حتى قوى الذرة ..

تبتسم ؟

أعتقد أن هذه الابتسامة تسىء إلى رأى فيك .. وخير أن تموت فوراً على شفتيك .. لأنى لا أعنى أن ساسة السعوديين يستخفون بالسلاح الذرى على طريقة علماء بلخ القدامى .. أو بقوة السحر والتعاويذ .. كلا يا أخى .. إنهم يرون أن سلاح الذرة سلاح تافه ومفلول فى أيدى المعسكرين الشرقى والغربى .. لأن فى أيدينا نحن الشرقيين أن نجعله يتفلل ويتثلم .. قد يهولك الرأى لأول وهلة ولكنهم يرون أولا أن أىَّ المعسكرين لا ينفرد بملكيته حتى يخشاه المعسكر الآخر .. ويرون ثانياً أن كلا منهما يدرك تماماً إن الانطلاق فى استخدام هذا السلاح مؤد حتما إلى القضاء عليهما معا .. ويرون ثالثاً أن هذا السلاح يمكن أن يغدو جباراً وبتاراً فى حالة واحدة عندما يتصارع به المعسكران على أرض غيرهما .. أو على التحديد عندما يستخدمانه فى ميادين الشرق أو على قارتى أفريقيا وآسيا ..

وهذا السلاح الفتاك فى أيديهما يقابله سلاح أشد فتكا فى أيدينا .. لو أننا عرفنا كيف نستخدمه لينفل سلاحهما وينثلم .. سلاحنا ياصاحبى — وهو رأى السعوديين والمصريين معاً — أن نجنب الشرق أن يكون ميداناً لصراعهما .. وأن يتعاون بنوه — من أدناه إلى أقصاه — على أن يقيموا منه كتلة حيادية تبسط إحدى ذراعيها على المحيط الأطلسى وتبسط الأخرى

على المحيط الهادى . . وتقيم من نفسها حارسة للسلام العالمى يؤيدها من شعوب المعسكرين نفسيهما خلائق كثر من المسلمين والمسيحيين الذين يهوون بقلوبهم دائماً إلى مكة والقدس .. وخلائق كثر ممن خربت الحرب الأخيرة دورهم وقضت على فلذات أكبادهم .

ترى أن هذا هو بعينه « المثالية » التى تجمل بأسلوب داتى وجنة المعرى ولا تجمل بأسلوب كاتب مثلى يعرض للبحث السياسى .. ولا تجمل ببحوث جادة تساهم فيها مملكتان ناهضتان كمصر والبلاد السعودية ؟

شيئاً من الريث ياصاحبى وأنت تدرك أن هذه الأمانى ليست « مثاليات » أبداً .. وإنما هى « سياسة الغد وبعد الغد » السياسة التى يسميها الساسة « بعيدة المدى »

ولكى نحدد البحث يجب أن نسأل : ما الذى يريده المعسكران وما الذى نريده نحن ؟ وما الذى يستطيعان أن يفعلاه وما الذى نستطيع نحن ؟

يريد كل معسكر منهما أن يسود العالم نظامه .. فتنهار « الرأسمالية » أو تنهار « الشيوعية » وكل نظام من النظامين سائد فى مكانه .. فالشيوعية قائمة فى روسيا ومستقرة .. وقائمة فى البلاد التى تدور فى فلكها أو داخل أسوارها ويستوى أن تكون مستقرة أو غير مستقرة .. والرأسمالية قائمة فى انجلترا وأمريكا ومستقرة .. وقائمة فى البلاد التى تحالفها أو تقع تحت سيطرتها ويستوى أن تكون — أى الرأسمالية — .. مستقرة أو غير مستقرة.

وهدف كل منهما إذن أن يسود نظامه القارتين الكبيرتين .. أفريقيا وآسيا .. وأن يتصارع المعسكران على أرض هاتين القارتين .. ولمن فاز منهما حق إخضاع الأفريقيين والأسيويين .. وحق الاستيلاء على حقول البترول والمطاط .. وما ظهر من المعادن والثروات ومالم يظهر .

هذا ما يريده المعسكران .. ويستوى عندهما فى ميزان الطمع أو الطموح أن يشقى الإنسان أو يسعد ..

فما الذى نريده نحن .. أو ما الذى نراه حيال هذه الحقائق ؟

ترى السياسة السعودية يا صاحبى أن الشرق العربى يستطيع — فى يسر وبشىء من بعد النظر — أن يقيم فى وجه هذه المطامع كتلته المحايدة .. مؤمنة بهذه الحيدة إيماناً .. يدرك منه أى المعسكرين أن محاولة الزج بها فى الحرب هو بمثابة اعتداء عليها .. وأنها لن تؤمن ظهر المعتدى الذى يتخذ من أرضها ميداناً .. إذا لم تستطع أن توجه إلى هذا الظهر طعنة قاتلة .

والشرق العربى المعنى هنا هو الملقى زمام الزعامة فيه إلى مصر .

وترى السياستان السعودية والمصرية أن فى آسيا الآن كتلة أسيوية قوية تنزع نفس النزعة .. فلا محل لأن تظل إحدى الكتلتين غير متعاونة مع الأخرى .. وأن الخير فى أن نسعى إليها أو تسعى إلينا .. والبادى هنا أكرم .. ونعنى الكتلة التى يتزعمها البانديت نهرو .

وترى السياستان السعودية والمصرية أن كراهية الشرق للاستعمار تجمع بيننا وبين الكثيرين من غير الأسيويين كالكتلة اللاتينية الأمريكية .. وكأى شعب يناضل الاستعمار أو ذاق فى الماضى مرارته أو يخشى منه على مستقبله .. وليس أمر غيانا الجديدة وزعيمها السجين بخاف على أحد ..

وترى السياستان السعودية والمصرية أن المعسكر الشرقى نفسه يرتدى مسوح الذود عن حرية البشر ضد طغيان المستعمر .. وفى وسع الشرق العربى أن يستفيد فى مساعيه إلى التكتل بمزاعم هذا المعسكر .. وقد ظهرت بوادر تأييده لنا فعلا فى منظمات هيئة الأمم .. وفى أكثر من موقف .. وكما نفيد من خبراء أمريكا أو علمها أو صناعاتها أو أموالها إذا لم تمس هذه الاستفادة جوهر استقلالنا وحرياتنا .. وجب أن نفيد من روسيا ومثاليتها

الصحيحة أو المزعومة كل ما يقوى كتلتنا ويوطد أقدامنا ويعاون صراعنا التحررى ويؤكد استقلالنا المنشود . .

والسياستان السعودية والمصرية ليستا من الغفلة بحيث تظنان أن ما تعرفانه من فنون السياسة يخفى على ساسة المعسكرين . . إنما تستخدمان فن السياسة كما ينبغى أن يستخدم . . وتستغلان الضرورة الملجئة لكل معسكر إلى التماس صداقتنا لنتقاضى ثمن هذه الصداقة . . تأييداً سياسياً أو عوناً اقتصادياً . . أو أسلحة حيث نجد إلى الأسلحة سبيلا . . والسياستان السعودية والمصرية لا تريان فى هذا اللون من التفكير خيالا أو أحلاماً كما يخيل إليك يا صاحبى !

تقول كيف ؟ :

ولم تتعجل . . وكل ما سأرويه لك هنا من البيانات التى وقفت عليها ومن الفكرة التى كونتها فيه أكثر من الجواب عن « كيفات » عديدة . . لا عن « كيف واحدة »

نحن إذن أمام هدفين بل أضف هنا هدفاً ثالثاً . . أمام كتلة عربية محايدة نقيمها على أرض الشرق الأوسط . . وهى فى متناول أيدينا لو صحت عزائمنا وصفت قلوبنا وبدد الإشراق الجديد كتائب الظلام الرابض من أجيال فى عقولنا . . وهذا هو الهدف الأول .

وأمام كتلتين متعاونتين — عربية وأسيوية — وهما ما نعنيهما من « سياسة الغد » ويستطيع محور « القاهرة — الرياض » أن يقوم بدور كبير ومسعى موفور فى إقامه هذا الصرح الممرد من الحياد الفعال الذى يعمل له المعسكران حساباً أى حساب .. وهذا هو الهدف الثانى .

وأمام كتلة شرقية من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى تضم أمماً مكافحة مثل كينيا فى أفريقيا . . وتضم أمماً محاربة للمستعمر مثل الهند الصينية بل قل هنا ولا تخف مثل الصين التى تحارب المستعمرين من وراء ستار « الفيتمنهيين »

والكوريين الشماليين ، فإذا قامت هذه الكتلة الشرقية — فى الواقع لا فى الخيال — فالخط الوهمى الذى يفصل بين الشرق والغرب أو بين الشرق والكتلتين المتصارعتين يكون قد قام .. ويكون للمعسكرين المتنازعين حق الصراع « مبدأ » على أراضيهما ليفنى كل منهما الآخر برغم إفلات « الصيد » المتنازع عليه منهما .. أو يكون لهما أن يعيشا جنباً إلى جنب ويسود الأرض سلام طويل يقول تاريخ الوجود .. لمن يجىء إليه من المواليد .. أن الشرق كان صاحب اليد الطولى والأولى فى استتباب هذا السلام على الأرض .. فلا يضل الناس الطريق إلى مجد الله فى السماء .. وهذا هوما نريده نحن .

بقى أن نسأل : ما الذى يستطيع المعسكران أن يفعلاه .. وما الذى نستطيع نحن أن نفعل ؟

وفى اعتقادى أن البحث عما يستطيع أن يفعله المعسكران غير مجد .. لأنهما لا يدخران جهدا يدخل فى الطاقة .. ولأن جهدهما مبذول فعلا — وتحت أعيننا — وإلى أقصى المدى .. ولأن كل ما يجرى الآن على ظهر البسيطة من حرب باردة فوق أرضهم أو ساخنه فى أرض الأسيويين وكينيا والمغرب وكل بلد مجاهد ، يدخل حتما ضمن ما يستطيعان أن يفعلاه

أما الذى يجدى حقيقة .. وأما الذى جاء بسعود إلى مصر .. وطار به إلى الكويت والبحرين وباكستان والأردن واليمن .. فهو الرابض تحت السؤال الآخر : « ما الذى فى وسعنا أن نفعله نحن ؟ »

وقد حددنا البحث .. فيما سلف .. بثلاث كتل : كتلة الدول العربية .. وكتلة التعاون بينها وبين كتلة نهرو الأسيوية .. وكتلة الأمل المرجو فى قيام كتلة تضم دول الشرق كله والعاطفين على الشرق

وعلينا إذن أن نتناولها كتلة .. كتلة لنرى ماذا فى وسعنا أن نفعله ؟

الفصل الخامس عشر

كتلة الشرق العربى

كان آخر لقاء بينى وبينك فى أواخر مارس الفائت

وها نحن أولاء نلتقى فى أواخر يوليو سنة ١٩٥٤ م أو أواخر ذى القعدة سنة ١٣٧٣ ﻫ .

ولزاماً على يا صاحبي أن أستأنف حديثى معك بالاعتذار إليك عن ذلك الهرب الطويل .

بيد أنه هرب لابد منه .. فنى خلاله طوفت وحدى مع الركب السعودى بالكويت والبحرين وباكستان والأردن .. وأخيراً باليمن حيث عدنا منذ أيام من صنعاء إلى جدة .. وعدت وحدى إلى القاهرة أبحث عنك لاستأنف الحديث معك .

وهذه الشهور الأربعة لم تنسنى أبداً أنى وقفت بك عند الكتل الثلاث التى كنا نقلب الرأى فيها .. بل لعل هذه الشهور الأربعة زادتنى ثقة وإيماناً باتجاهات المملكة السعودية .. وسياستها العربية حيال هذه الكتل .

والآن نبدأ .

ومن حسن الحظ أن أتحدث إليك الساعة وبين يدى تصريح أفضى به السيد جمال عبد الناصر رئيس الوزارة المصرية لمجلة « نيوزويك » الأمريكية يعلن فيه « ان مصر ستعمل على انشاء عالم عربى موحد »

ثم يقول :

« اننا نشعر أن هدفنا يجب أن يقوم على أساس إنشاء العالم العربى وتوحيد أسرته » .

إلى أن يقول :

« إنى مقتنع بأن هذا العالم العربى الموحد سيكون من أعظم عوامل السلام فى العالم لا فى الشرق الأوسط وحده وأعتقد أن هذا الدور يجب أن تقوم به مصر بعد أن تسوى مشكلة منطقة قناة السويس »

وإذن فما عدت بحاجة إلى التدليل على اتجاه مصر بعد هذا التصريح الرسمى الذى يقول فى غير التواء « إن مصر ستعمل على إنشاء عالم عربى موحد » وأحسبك تذكر أن مبعوث مصر الرسمى إلى الدول العربية — السيد صلاح سالم — كان قد سافر إلى الرياض وعاد منها إلى القاهرة ليعلن العالم كله بأن مصر والمملكة السعودية أمستا بلداً واحداً أو فى حكم البلد الواحد وإذن فالمملكة السعودية (وبشهادة مبعوث مصرى رسمى) تعلن هى الأخرى إصرارها على إنشاء « عالم عربى موحد » .

وإذن لم أكن أخا شطط أو خيال فى كل أحاديثى السابقة معك .. ولم تكن على حق عند ما كنت أحياناً تبتسم .

والزعامة المصرية التى أصرت عليها المملكة السعودية .. أعلنها رئيس الوزارة المصرية أيضاً .. ولكن فى أدب وتواضع — لازمين لنا حيال شقيقاتنا — عند ما قال : « وأعتقد أن هذا الدور يجب أن تقوم به مصر »

وهو يعنى « إنشاء العالم العربى الموحد » وما أسميناه « الكتلة العربية » .

ولكن ما هو هذا العالم العربى الموحد .. وما حدوده ؟ :

فى رأى فريق أن يقوم على البلاد التى يتكلم أهلها العربية .. وفى رأى فريق أن يقوم على دول الجامعة العربية وحدها .. وفى رأى فريق أن يقوم على دول الشرق الأوسط كله بحيث تدخل معنا الشقيقتان باكستان وإيران وبحيث تدخل معنا تركيا المسلمة .. لا لنستدرج إلى حلف « تركيا — باكستان »



الملك سعود والصاغ صلاح سالم

ولا لنشترك فى إشعال الثقاب فى بترول عبدان وفى المملكة التى يتنازعها المعسكران .. وتتصل بها حدود أحدهما ... بل لنستدرجهم إلى محور « القاهرة — الرياض » .. وأنصار هذا الرأى الأخير يرون أن على دول العروبة أن تلعب أدواراً فى هذه الناحية قد أحدثك بها عند الحديث عن الكتلتين العربية والأسيوية والتعاون بينهما .. ويرى هذا الفريق نفسه أن الشرق الأوسط على هذا الوضع قوة قومية ترشح كتلته المرجوة لأن تلعب دورها العالمى ضد الامبريالية القديمة التى شاخت والدولية الحديثة التى تتصارع وتخدم السلام العام « فى العالم لا فى الشرق الأوسط وحده » ، كما قال رئيس الوزارة المصرية .

والسياسة السعودية تقر أى رأى تراه مصر فى هذا الصدد . لأن الملك سعود كان « يملأ يده » من قديم من حسن نوايا الباكستان .. وقيل إن زيارته الأخيرة لها زادت يده امتلاء .. ولم يعد يخشى ما يثيره فى الأذهان حلف « تركيا وباكستان » وقيل لى — أن الملك سعود أخذ فى عنقه فعلا أمانة الباكستان وتأييدها لمحور « القاهرة — الرياض » .. سواء أضمت الباكستان إلى الكتلة العربية .. أم ضمت إلى الكتلة الأسيوية .. ويبدو أن مصر تشاطر الملك السعودى اطمئنانه إلى الباكستان . . بل قيل ما يملأ صدورنا رجاء — وإن كان من حقى وأنا أروى القول الجديد أن أتحفظ ولا أجاوز مهمة الراوى — قيل إن الأمل كبير فى تركيا نفسها وبفضل الباكستان ..

وعلى أى حال فالمملكة السعودية تعرف أننا نجحنا فى إقامة دول عربية مستقلة فى الشرق الأوسط هى واحدة منها . . ولكن الذى ترمى إليه هذه المملكة أن تنجح فى إيجاد « الأمة العربية » التى تربط العروبة بين أجزائها ويتغلغل الإيمان بالفكرة العربية فى قلوب أبنائها . . وترى المملكة السعودية أن مصر القوية مطالبة بهذه الخطوة . . لأنها تملك من وسائل الاذاعة والصحافة والثقافة ومختلف وسائل الدعاية ما لا تملك غيرها من الشقيقات ..



إمام اليمن والصاغ صلاح سالم

والسعوديون على استعداد للمساهمة فى هذه الناحية بالذات .. بكل مايملكون من « إمكانيات »

ومصر تنبهت إلى واجبها فى هذه الناحية فعلا . . ولعل فى إنشائها ل« صوت العرب » فى إذاعتها . . ول« ركن السودان » لجنوب واديها . . ما يدل على أنها لم تغفل قط هذا الجانب الحيوى ، أو لعل عنايتها — مذ قامت جامعة الدول العربية — بالدعوة إلى المؤتمرات العربية للمحامين مرة وللأطباء ثانية وللصحفيين ثالثة . وللسياحة أخيراً ما يدل أيضاً على أن مصر لم تغفل توحيد التفكير بين الطوائف المتماثلة . . ولا الدعاية للفكرة العربية والإيمان بها .

وترى المملكة السعودية أن على مصر أن تساهم جدياً فى النهوض بالدول العربية .. لأن محاولة تكتيلها — والبون بين كل منها والأخرى يبدو شاسعاً — يعوق هذا التكتل . . وظاهر من النشاط المصرى الأخير أن مصر استجابت لهذه الدعوة السعودية فوراً وفعلا . . وما كاد مبعوث مصر الرسمى يعود من الرياض حتى بدأت حكومة مصر تعد بعثاتها العسكرية وخبراءها فى شتى الشئون للسفر إلى صنعاء . . بل إن هناك ما يثبت أن كلا من مصر والمملكة السعودية كانت تعمل على انفراد فى هذا الحقل من قبل أن يجىء إلى القاهرة سعود . . ويقيم المحور ويوحد الجهود . .

وحسبى أن أسوق دليلا مصرياً وآخر سعودياً . . فأما المصرى فهو الدور الدولى الذى لعبته مصر فى بعث المملكة الليبية لتضم إلى الجامعة عضواً عربياً جديداً . . ولتحرر من نير العبودية قطراً مجاوراً وشقيقاً . . وعلى الرغم من الدسائس الاستعمارية التى كانت وما تزال تتخذ من ليبيا مسرحاً لها وتنشىء فيها قواعد عسكرية ضخمة فإن مصر ارتفعت فوق مستوى هذه الدسائس ، ورأت أن تنشىء بيدها الجيل الليبى الجديد المتحرر . . فحشدت معلميها فى المملكة الناشئة . . وتولت إقامة نظام التعليم على الأساس المصرى وزودت القضاء الليبى بمستشارين ذوى شأن من أكفأ القضاة المصريين . .

إلى آخر ما أذيع فى حينه وعلم به الجميع . . وكان ذلك قبل مقدم الملك سعود بزمن طويل .



سمو الأمير مشعل آل سعود وزير الدفاع السعودى بين رئيس الجمهورية محمد نجيب ورئيس مجلس الوزراء جمال عبد الناصر

وأما الدليل السعودى . . فهو فى البعثات العسكرية التى اختارها الأمير مشعل بنفسه من خيرة شباب السعوديين وأرسل بهم إلى الكلية الحربية المصرية . . ليتخرجوا منها ضباطاً مصريين قبل أن يكونوا ضباطاً سعوديين وكان الملك سعود يومئذ ولياً للعهد فاحتضن هذا الاتجاه الرفيع وشجع أخاه على المزيد . . وأمر (سموه) يومئذ بايفاد بعثات أخرى إلى مختلف كليات الجامعة . . ثم ألف لجنة من كبار رجال العلم والتعليم ، فجاءوا للاشراف على حالة البعثات الدراسية ، وكانوا يرفعون إلى (سموه) وما يزالون يرفعون إلى (جلالته) التقرير تلو التقرير . . وكان يعنى عناية فائقة بما انطوت عليه إيماناً منه بأن توحيد طرائق التعليم مؤد إلى توحيد التفكير والشعور . . مؤد

إلى ترسيخ الوحدة العربية فى العقول وفى القلوب . . ثم عاد فأوفد فى هذا الشهر الذى أحدثك فيه أخاه الأمير مشعل من جديد . . فبدأ يجتمع بالمسئولين لتحقيق ما اتفق عليه من تعاون عسكرى . . وبدأ يزور مصانع الذخيرة والأسلحة وكل ما يتعلق بالشئون العسكرية . . ولم يتردد مشعل بعد مباحثاته مع رئيس الوزارة المصرية من الإدلاء بتصريحات واضحة عن الوحدة العربية المرجوة وقال إن أخاه ومولاه ما كان يسمح له وهو وزير دفاع وطيران بالتخلف عن موسم الحج يوماً .. إلا ليدلل جلالته على إعزازه لمصر وعنايته بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه بينه وبينها . . وأنا أعرف أن الأمير طلال سافر إلى أوروبا وندب الأمير مشعل للنهوض أيضاً بوزارة المواصلات وترك كل هذه المهام وجاء إلى مصر .

قلت لك يا صاحبى إن الملك سعود لاحظ أننا نجحنا فى تكوين دول عربية مستقلة ولكننا لم ننجح بعد فى خلق « الأمة العربية » ومن أجلها جاء إلى مصر .. وتباحث وتعاهد وإياها وأقام محور القاهرة — الرياض ، ولكن « الأمة العربية » المرجوة لا يمكن أن تتألف إلا من شعوب عربية حرة .. و « الدولة العربية » لا يمكن أن تقوم إلا « على دول عربية مستقلة » .. ومصر الزعيمة لا يزال جانب من أراضيها محتلا .. فأمسى لزاما إذن على الدول العربية أن تجعل فى المحل الأول معاونة مصر على تخلصها من المحتل .. وفى هذه الناحية أعلن سعود حكومة مصر أن مملكته بكل ما تملك من مال وسلاح وأرواح مجندة لهذه المهمة ، فما على مصر إلا أن تطلب وما على سعود إلا أن يستجيب حتى تتمكن مصر من قيادة الكتلة العربية إلى أهدافها ، وهذا مايطابق قول رئيس الوزارة المصرية « وأن هذا الدور — أى الزعامة — يجب أن تقوم به مصر بعد أن تسوى مشكلة منطقة قناة السويس »

والمملكة السعودية تعرف كل صغيرة وكبيرة عن الخلافات التى كانت قائمة بين بعض الشقيقات — وكلها من صنع المستعمر — وأقلها تقليدى

موروث .. وقد رأى الملك سعود أن الوقت قد حان للقضاء على هذه الخلافات قضاء مبرما .. وأن تعاون مصر معه فى هذه الناحية كفيل بنجاح المسعى .. وتم الاتفاق بينه وبين مصر على الخطة .. وكل الذى طالع من أبناء العروبة أنباء الأيام الأخيرة عن سفر المبعوث المصرى — صلاح سالم — إلى الرياض ولبنان وتعز وصنعاء وسفر سعود بن عبد العزيز نفسه إلى اليمن أخيرا بعد جولته الأولى يدرك أن العروبة بدأت تجنى ثمار زيارة سعود لمصر بل ثمار السياسة السعودية المرسومة

وحتى عزام :

وصحيح أن القوى العربية مبعثرة تحت سنابك الجواد الاستعمارى .. ولكن أكثر صحة أن الوقوف فى وجه الجواد ميسور على أى حال .. على أن نعرف قوانا لنحرص عليها ونفوذنا لنستخدمه وأخطاءنا لنصلحها

إننا نملك قوة بترولية لا تقاوم .. وثروة معدنية قد يكشف الغد القريب عن كنوزها .. ونصف سكان العالم من المسلمين والمسيحيين يهوون بأفئدتهم إلى مكة والقدس .. وتاريخنا الحديث موصول الحلقات بأول وأكبر الحضارات .. أفما يكفى هذا كله لحفزنا على لَمّ القوى المبعثرة ؟

ومصر ترد على هذا السؤال بوجهة نظر .. إنها ترى أن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط فى أية أمة عربية ليست إلا أسباباً داخلية وتقول مع أحد الفلاسفة أن الشجرة إذا سقطت بفعل العاصفة فيجب ألا نلوم العاصفة على إسقاطها للشجرة بقدر ما يجب أن نلوم الشجرة نفسها على تعفن باطنها

وترى المملكة السعودية أن الاستعمار هو مبعث التعفن وأن العمل على تنظيم البيت الداخلى لا يمنع الأهل من التجمع لدفع العدو الخارجى

والتقت الدولتان على أن تدعو الشقيقات إلى العمل داخل البيت وخارجه فى وقت واحد .. وفكر فى إقامة مجلس عربى يتكفل بتدارس هذه الأمور ..

وأن تبدأ مصر من فورها فى الاتصال بالدول الشقيقة ودعوتها إلى السياسة المصرية السعودية الجديدة .. أى إلى التكتل العربى وإن كان تنفيذ مثل هذه الخطى الحاسمة التى تستوجب تنظيمات قد أرجىء إلى ما بعد اجتماع رؤساء الدول بعد موسم الحج وبعد ظهور نتيجة المفاوضات المصرية

وصدقنى يا صاحبى أنى سعيد بسرد كل وجهات النظر على مسمعك .. ولكنى أصدقك القول دائما .. ولا محل إذن لأن أكتمك ظلا من التعاسة شاب هذه السعادة

لا تفزع فالأمر أهون مما يثير الفزع .. وإن كان يستحق أن يدفع

كل ما حدث أنى قرأت وأنا أهم بالتحدث إليك رأياً تناهى فى الغرابة لعربى كبير أقدر ماضيه .. وأعنى به السيد عبد الرحمن عزام .

قرأت فى مجلة « التحرير » المصرية أن السيد عزام سئل :

— حين كنت أميناً للجامعة العربية .. هل تحققت على يديك الأمانى القومية للعرب ؟ وما رأيك الآن فى الدول العربية اليوم .. وما تجرى عليه أمورها ؟

فأجاب :

— لم تتحقق بعد الأمانى القومية للعرب .. وقد يحتاج ذلك لجيل كامل .. وقد حاولت طول حياتى أن أضع بذور الاتحاد والدولة الشاملة للعرب .. وتعهدتها بقدر جهدى قبل الجامعة العربية وفى أثناء وجودى بها .. أسأل الله أن تثمر وأن يجنى هذا الجيل ومن بعده ثمرتها

والأمانى القومية للعرب لا تحتاج يا صاحبى إلى جيل كامل .. كما يقول « الخبير العربى » « والدولة الشاملة للعرب » هى التى جاء سعود إلى مصر

ليقيمها الآن وفى هذا العام .. ولم يجىء ليقيمها بعد جيل .. وأعتقد أن هذا الرأى إنما أملاه على السيد عزام غضبه للعروبة المتاعة فكان للأسى دخل كبير فى جانب اليأس البادى على العبارة .. أو قد يكون مجىء الإجابة على هذه الصورة نتيجة للصيغة التى صب السؤال فيها : « هل تحققت على يديك الأمانى القومية للعرب ؟ »

بيد أن من الإنصاف أن أقرر أن السيد عزام وفق وهو سياسى مخضرم ونابه وكفء فى الشئون العربية .. وفق عندما سئل عن « الرأى القائل بقيام جامعة للشعوب العربية ما دامت جامعة الدول العربية لم تؤد رسالتها » فأجاب :

— إن الحكومات العربية هى من الشعوب العربية متى كانت متمتعة باستقلالها ولا أعرف كيف تنتظم الشعوب فى جامعة أخرى ضد إرادة حكوماتها ولأى غرض !

أقول وفق السيد فى الإجابة .. ومحور « القاهرة — الرياض » يقوم على تحرير مصر والسودان من المحتل .. وعلى تغذية الحركات التحريرية فى كل دول العروبة حتى تتحرر .. فى تونس ومراكش والجزائر .. والأردن .. والعراق .. وعدن والمحميات ومسقط والإمارات .. وكل مكان فيه قدم للمستعمر .. ويوم تتمتع هذه الشعوب باستقلالها لن تكون حكوماتها إلا من خلص الأحرار فيها .. ويومئذ يصدق عزام عند ما يقول : « ولا أعرف كيف تنتظم الشعوب فى جامعة أخرى ضد إرادة حكوماتها ولأى غرض » .

تريد أن تسأل سؤالا واحداً ؟ قل يا أخى .. تسأل عن رأى سعود فى الهيئات الدينية المشتغلة بالسياسة فى بعض الدول العربية ؟

مدى علمى أن السياسة فى البلاد السعودية نفسها موكول أمرها إلى

الحكومة السعودية أو السلطات المدنية وأن شئون الشريعة السمحاء موكول أمرها إلى آل الشيخ سلالة الإمام محمد بن عبد الوهاب وليس للسلطة الدينية أن تسأل الحكومة إلا فيما يمس الإسلام وأوامره ونواهيه ومدى علمي أن الملك سعود يرجو أن يكون الأمر فى الدول العربية كلها منسوجاً على هذا المنوال .. فيعطى ما للحكومة للحكومة .. وما لرجال الدين لرجال الدين .

ولكنى أعلم أيضاً أن من دواعى ارتياح سعود المسلم أن تزدهر الهيئات الإسلامية فى مصر ويشتد ساعدها .. لا لتخوض غمار السياسة كما تخوضها الأحزاب .. ولا لتقاتل على كراسى الحكم كما يقاتل الساسة .. وإنما لتؤجج نار الوطنية من الزاوية الدينية وليظل الشعور الوطنى ضد المستعمر مستعر اللهيب دائماً .. أى أن يستمد السياسى المصرى من هذه الهيئات الدينية تأييداً روحياً يذكى روح الشعب فيظل مستواه الكفاحى عالياً .. وعلى نفس النسق الذى حمل المملكة السعودية على مبايعة مصر بالزعامة العربية السياسية ليستخدم السعوديون زعامتهم الروحية كحماة للحرم فى الوصل بين الشعور الإسلامى أو النهوض العربى .

وأعتقد أن سعود ما يزال يعمل فى صمت وصبر .. ليحقق هذا الهدف وليدرأ عن بلاد العروبة المكافحة مغبة الانحرافات الدينية المتطرفة .. وليستغل الهدف الأسمى وهو التكتل العربى نفوذ بعض الهيئات الاسلامية فى مختلف البلاد العربية استغلالا يوحد القوى السياسية والروحية ويحشدها فى جيش واحد .. هو جيش الخلاص الأكبر .

وأحب ياصاحبى وأنا أختتم معك الحديث عن التكتل العربى أن ألفتك إلى قصة ناقلة البترول « الملك سعود » .. التى استهل وزير التجارة السعودى الجديد عمله « بتدشينها » ... أفقد لاحظت أن السعوديين يبدأون دائماً من فوق .. ولعل فى اتخاذهم نواة الأسطول التجارى عندهم أكبر ناقلة فى العالم .. دليلا على شعورهم بالحاجة إلى « الطفرة » حيث وجدوا إليها سبيلا .. ثم

ألم تلاحظ أن مصر رصدت فى ميزانيتها اعتماداً يدل على أن الأسطول المصرى الجدى .. مقبل فى الطريق .. ثم ألم تلاحظ أن زيارة سعود أعقبها اتفاق دول الجامعة على إنشاء شركة ملاحة — عربية عالمية؟ أفما يعطيك هذا الحشد من الجهود . . لوناً من ألوان التكتل العربى الذى تم الاتفاق على أن يقوم .. معقود اللواء لمصر الزعيمة . . منسق البناء فوق محور القاهرة — الرياض .



وزير التجاره السعودى الذى أرسى أساس البحرية السعودية

الفصل السادس عشر

التعاون بين الكتلتين العربية والأسيوية

بقى أن تعرف يا صاحبى حقيقة الحلقة الثانية من سلسلة التعاون الذى تستهدفه السياسة السعودية والمصرية ونعنى به : التعاون بين الكتلتين العربية والأسيوية .

الكتلة الأسيوية يتزعمها كما لا بد ان تعلم البانديت جواهر لال نهرو .

ونحن نعنى الكلمة بحروفها عند ما نذكر اسم هذا السيد الأسيوى المحترم .. لأنه أحرز كانسان الإحترام الذى أحرزه الأفذاذ القلائل من أبطال الفكر فى التاريخ الإنسانى .. ولأنه كمواطن وقف إلى جوار المهاتما غاندى لحرر الاثنان مئات الملايين من استعمار الأجانب .. ولأنه كسياسى – وهو مايعنينا فى هذا البحث – يتزعم أسيويا الكتلة الداعية إلى الحياد ، ويتزعم دولياً جماعة الداعين إلى السلام .. وهو أسمى ما تستهدفه جهود البشرية عند ما تأخذ مكانها الذى تدعوها إليه أقانيم الفضيلة والخير والرقى العاطفى أو الوعى العقلى .

وإذن فالكتلة الأسيوية – على جلال قدرها العددى وعلى خطرها من ناحية الاستراتيجية العالمية – مدينة بقدر كبير من الاحترام الذى ظفرت به .. لشخصية البانديت نهرو .. ولسنا فى حاجة إلى القول بأن « بيتا » ينجب للزعيم .. ومن أقصى الشرق .. وفى الهند التى كان يضرب بتخلفها المثل .. أختا تلعب على مسرح السياسة العالمية الدور الذى يعجز عن النهوض بمثله كثيرون من أقطاب التاريخ السياسى الحديث .. وترأس الجمعية العامة لهيئة الأمم فى عصر الذرة .. لسنا فى حاجة إلى القول بأن « بيتاً » ينجب لهذا الزعيم .. فى مثل هذه الملابسات .. مثل هذه الشقيقة .. لهو بيت

عميق الجذور فى تربة السلالات الخصبة الزكية .. باسق الفروع فى سماء الرقى الفكرى .. جدير بأن يقدم للانسانية رجلا كنهرو لايدرى أحد ما الذى كان يمكن ان يكون .. لو أنه نشأ فى بلد ناهض كالولايات المتحدة أو فى بلد حى كألمانيا أو فى بلد ديمقراطى كانجلترا .. أو فى بلد حر كفرنسا .

هذه اللمحة العابرة عند نهرو الإنسان والمواطن والسياسى .. إنما نقصد بها إلى تنبيه القراء على خطورة الكتلة التى يقودها .. وعلى جلال الفكرة التى يعتنقها وعلى سلامه الخطة التى ينتهجها .. والكتلة هى الأسيوية .. والفكرة هى السلام .. والخطة هى الحياد .

والسياسة السعودية كانت وما تزال تبحث باهتمام عن الطريق إلى الحياد .. حياد الشرق العربى أو الشرق الأوسط أو الشرق الإسلامى أو الشرق كله .. وكانت وما تزال تتساءل دائما وقد شهد الشرق حربين كبيرتين .. ناله منهما ما ناله من الويل — ولم يكن ساحة أصيلة لها — ما الذى أفاده الشرق من الحروب .. وما الذى حققه له الغرب من الوعود .. وأى دخل لنا فى الخصام بين المعسكرين الجديدين .. وأية مصلحة للشرق فى أن يتغلب أى من المعسكرين على الآخر .. وقد ثبت أن الشرق سوف يكون هذه المرة ساحة الحرب المقبلة .. وأن أهليه سوف يكونون الوقود ؟

وعلى الرغم من أن الشرق كله شاطر المملكة السعودية تلقائيا هذا التفكير أو هذا التساؤل بجامع الوضع الراهن والهم الماضى والوعى النامى والمستقبل المنشود .. فإن المملكة السعودية كانت وما تزال أرهف حساً من شقيقاتها .. لأن مليكها عبد العزيز التقى بروزفلت زعيم المعسكر الغربى فى الحرب الأخيرة كما سبق القول وأصغى الملك فى رجولة الصحراء التى تفتدى شرف الوعود بكل مرتخص وغال إلى أقصوصة الحريات الأربع .. ثم عاش عبد العزيز حتى رأى بعينيه السيد ترومان وهو يمزق الميثاق بيديه المخضبتين بدم العرب .. ويرسل وعود سلفه مع الريح .. ويمعن فى التنكر وفى الغدر وفى التجريح ..

حتى ليطرد من أبناء العروبة التى أنقذت الحلفاء مليونا من أبناء فلسطين الشهيدة إلى التشرد فى العراء .. وإلى مشاطرة ذئاب الفلاة حرية العواء ..

رأى عبد العزيز هذه المهزلة الرخيصة بعينيه .. فأخذ ولديه الكبيرين تحت جناحيه .. وقال لهما ما قاله عن الشرق والغرب .. وصب فى أذنيهما وقلبيهما ما صب .. ثم مضى إلى بارئه برىء الذمة .. وضاء الرجاء

إنما هى السياسة السعودية .. آمنت بأن الحديد لا يفله إلا الحديد .. وأن أمريكا أفادت من المملكة السعودية بترولا .. فوجب أن تفيد المملكة من أمريكا .. علما وصناعة وخطوطا حديدية .. وطائرات وأسلحة .. ومنشآت ومؤسسات .. على أن يكون فى وسع المملكة — فى أية لحظة — أن تشكر لأمريكا « وتخلى طرفها »

ولكن متى تجىء هذه الساعة ؟

عند ما تجد فى دول العروبة ما يغنيها عن أمريكا .. أو عند ما تستطيع هى أن تستغنى عن أمريكا .. ولقد فوجىء العالم كله فى الأسابيع الأخيرة بقرار سعود التاريخى بالاستغناء عن خدمات « النقطة الرابعة » معلنا أن ما تؤديه لمملكته .. أصبح فى وسع مصر وشقيقاتها أن تؤديه ..

هذا القرار الجرىء الذى لم يتوقعه عربى واحد .. لم تفكر فى اتخاذ مثله دولة عربية أخرى .

تسأل عما أقصده من إثارة هذه النقطة ؟

أقصد يا صاحبى أن الاتجاه السياسى فى المملكة السعودية إلى التعاون مع دول العروبة أو معها ومع الكتلة الأسيوية لا يمكن أن يعوقه ما يتولى خصوم السعوديين بالترويج له من الشائعات .. وإنى لعائد بك من فورى إلى موضوع التعاون بين الكتلتين العربية والأسيوية .

ولقد قلت لك إن السياسة السعودية كانت وما تزال تبحث باهتمام عن

الطريق المؤدى إلى حياد العروبة .. عن المعسكرين المتصارعين .. وأذكى هذا الاهتمام فى ذهن المملكة المسلمة .. أن المعسكرين يتقاتلان « مبدأ » على « الرأسمالية » أو « الشيوعية » والإسلام لا يعترف بالرأسمالية التى تتيح لأفراد فريق من تجار السياسة والحروب احتكار الملايين من الجنيهات .. على حساب الملايين من الجائعين .. ولا يعترف بالشيوعية التى تقوم فلسفتها على مادية التاريخ وتسقط من الحساب الإنسانى جوهره الرفيع الغالى .. وجانبه الروحى الوضاء

كل طريق إذن مؤد إلى حيدتنا .. غربا .. أو شرقا .. هو الطريق السلطانى فى ميزان هذه المملكة .

وقد لاحظ الملك سعود أن كتلة نهرو كتلة قوية .. وأن شخصيته شخصية عالمية .. وأن التعاون مع هذه الكتلة يحسب المعسكران له حساباً .. وأن هذا التعاون قام بالفعل ولكن فى نطاق محدود .. أو فى هيئة الأمم على التحديد وبفضل ما بذلت مصر وشقيقاتها من جهود .. والملك سعود يطمع فى المزيد من هذا التعاون ولكن الكتلة الأسيوية يعتريها من الضعف الداخلى مثل الذى يعترى الكتلة العربية .. فالخلاف بين الهند الجانحة إلى الاشتراكية .. والباكستان المؤمنة بالإسلام .. على ولاية كشمير .. ما يزال قائماً .. وسعود كحامى الحرمين قد يتعذر عليه أن يؤدى واجبه بين الجارتين من غير أن يناصر الباكستان المسلمة .. والموقف من ناحيته السياسية يجب أن يرتفع إلى ما فوق العاطفة .. فما هو السبيل لتسوية مشكلة كشمير .. أو ما هو السبيل إلى تجاهل هذه المشكلة والارتفاع إلى مستوى الأحداث الأكبر شأناً وهى تعاون الكتلتين العربية والأسيوية .

رأت المملكة السعودية أن الدور الذى يمليه الموقف يمكن أن تتقاسمه هى مع مصر الزعيمة .. فتتكفل هى بالباكستان .. وتتكفل مصر بالهند .

ويبدو أن كلا من الدولتين — مصر والمملكة السعودية — كانت تعرف

واجبها .. وكانت قد بدأت تقوم به من تلقاء نفسها .. بل يبدو أن مصر اتجهت هذا الاتجاه السعودى من زمن غير قصير .. وتكفلت بالأمر كله من قبل أن يفاتحها السعوديون بسنين .. وأنا أستخلص هذا « الرأى » يا صاحبى من السيدين اللذين أحسنت مصر اختيارهما لسفارتيها فى الهند والباكستان .. ولم تكن مصر فى ذلك الحين تحسن اختيار السفراء .. ولكن وجود الأديب العالم الملم باللغات السامية والمحبوب من المملكتين السعودية والباكستانية عبد الوهاب عزام لمنصب السفير فى كراتشى .. دليل على أن الاختيار لم يقع عليه عبثاً .. ومن يدرى إذا لم يكن الملك عبد العزيز أو (الأمير) سعود هو الذى أوعز إلى مصر بذلك الاختيار .. لأن عزام كان يقوم بنفس المهمة لدى البلاط السعودى فى جدة قبل أن ينقل إلى كراتشى .. وأهم من هذا الاختيار . اختيار اسماعيل كامل صديق نهرو والمعجب من قديم بالهند وأحد الثقاة فى الشئون الهندية لسفارتنا فى الهند .

وواضح أن الملك عبد العزيز وثق صداقته بالسيد غلام محمد رئيس الدولة الباكستانية وانتقلت هذه الصداقة إلى ما بين غلام وسعود .. وألمعنا فى فصل سابق إلى الزيارات « السياسية » التى قام بها غلام محمد للرياض والأراضى المقدسة .

وعندما جاء الملك « سعود » إلى القاهرة .. طاب له — كما قيل لى — أن يجس نبض مصر من ناحية استعدادها لإجتذاب نهرو إلى التعاون مع الكتلة العربية .. وسره أن يجد كل شىء معداً .. وأن يضع يده على «عواطف متبادلة» من قديم بين الهنود والمصريين .. ظهرت أعراضها على الهند عندما ندبت للقيام بواجبها « الدولى » فى قضية السودان .. ولم تكن هذه « العواطف » القديمة مجهولة من المملكة السعودية .. ولكن الذى كان مجهولا قيامها حتى الآن وبنفس التأجج والاستعار .. مع مضى أكثر من ثلث قرن على مولدها يوم اتخذ غاندى (أستاذ نهرو) من سعد زغلول زعيم مصر .. أستاذاً له

وأعلن العالم كله .. أن الهند اعتزمت أن تسير فى الطريق التى سلكها أستاذه سعد .. وكما وحد سعد بين قلوب المسلمين والمسيحيين فى مصر .. حاول غاندى أن يوحد بين المسلمين والهندوس فى الهند .. وقضى بالفعل على العداء الموسوم بالعار الذى كان الهندوس يشنونه على المنبوذين ويهددون به إنسانيتهم .. فانتشل غاندى الطائفة المنبوذة من وهدتها وهو يهزج بسياسة زغلول .. الذى علمه كيف يقود .

ويبدو أن مصر تعتزم أن تقوم بدور كبير فى هذه الناحية بعد أن تفرغ من مشكلة القنال .. وهى على أى حال معنية بها من الآن ومن قبل الآن بأعوام كما قلت لك ..

وإندونيسيا .. هذه الأمة المسلمة الكبيرة ذات المكانة العالية فى الكتلة الأسيوية .. هل أسقطتها السياسة السعودية من حسابها ؟ كلا بالطبع .. ولكن أى الدولتين — مصر أو المملكة السعودية — أولى بالتفرغ لتوثيق الصلات مع إندونيسيا ؟

أجيب عن هذا السؤال بأن الدولتين معاً تتفرغان .. لأن إندونيسيا أولا أمة مسلمة « حقاً » فلحامى الحرمين نفوذ روحى فيها .. ولأن إندونيسيا ثانياً لا تنسى أبداً أن مصر كانت أول دولة فى العالم اعترفت بالدولة الإندونيسية .. ولا تنسى أبداً أن مصر رفضت أن تأذن للسفن الهولندية (أيام الحرب بين إندونيسيا الشعبية الثائرة وهولنده المستعمرة الظالمة ..) أن تجىء إلى قناة السويس لتتزود منها أو ترسو فيها .. مما صعب يومئذ على هولندا مهمتها العاتية ضد ثمانين مليوناً من خالص المسلمين .

بل إن مؤتمر أسيويا « خالصاً » تقرر أن يقام فى إندونيسيا فى شهر سبتمبر القادم .. ومع ذلك دعيت مصر « الأفريقية » إليه .. فقررت فى سعادة وانتشاء أن تشترك فيه .. دليلا على أنها تواصل مهمتها .

واضح إذن أن الطريق ممهد وميسور إلى التعاون المنشود بين الكتلتين

العربية والأسيوية لا سيما إذا فرغت مصر من مشكلة القنال وتفرغت لهذه المهام .. ولهذا التعاون فائدة أخرى هى دق أسفين فى هيئة الكومنولث البريطانى .. باعتبار الهند وباكستان عضوين فى هذه المجموعة .. ولأن نهرو استطاع فيما يلوح جذب سيلان إلى صفه بعد أن عقد مؤتمره الأخير فى كولمبو عاصمتها .

وأعتقد أن هذا البحث كان له حظ غير قليل من عناية الملك سعود فى أثناء زيارته الأخيرة للباكستان بل فى أثناء زياراته الآخيرة للكويت والبحرين واليمن .. اليمن التى وحدها سعود .. وطهر فيها القلوب .. وانتقل بالإمام أحمد لأول مرة مذ تولى الملك والإمامة من تعز إلى صنعاء .

وسعود ملك نابه يعرف للبانديت نهرو قدره .. ويدع ما لله لله .

ونهرو عند ما يتحرك اليوم تحركا متواضعاً إزاء مؤتمر دولى ضخم يتوقف عليه مصير العالم كمؤتمر جنيف يعمل لتحركه حساب .. فما بالك به إذا تزعم كتلة أسيوية وتعاون جاداً مع الكتلة العربية وأراد جاداً أن يعلن حيدة الكتلتين معاً .. ويدعو للسلام باسميهما ؟

والدعوة إلى السلام من أى المعسكرين تقابل دائماً بالارتياب .

ومواطن عالمى واحد يستطيع أن يدعو للسلام فيصغى له البشر .. إنه جواهر لال نهرو ..

والعالم كله يعرف أن هذا الرجل .. يختزن من الجوهر الإنسانى الأصيل قدراً لا تعرف البشرية نظيراً له فى إنسان آخر ..

وهو مفطور على السلام .. معجون من مادته .. حتى صفاء عينيه تقرأ فيه صفحة السلام مجلوة .. قبل إن تطالعها مسطورة فى كتبه .. إنه فيلسوف خير .. كان من الممكن أن يحلق إلى برجه العاجى فيضيف إلى تاج الهند المفكرة درته الثانية إلى جوار درة رابند رانات طاغور .. ولكن نهرو رأى أن الأرض والسلام عليها أحوج إلى جهوده العملية والسياسية من

السماء الغنية بالأبراج العاجية .. وإنى لكبير الرجاء فى أن تخطو المملكة السعودية مع مصر خطوتها الجادة نحو التعاون مع هذا الرجل .

وأعود فأكرر أن سعود بن عبد العزيز ملك نابه يعرف لنهرو قدره .. ويدع ما لله لله .

وأعنى كل حرف من كل كلمة عندما أقول : « ويدع مالله لله » .

بيان السفارة :

ولقد شاء الله أن تذيع اليوم السفارة السعودية فى القاهرة بياناً — والحديث يجرى بيننا — ولم يبق على وقفة عرفات خمسة عشر يوماً .. تقول فيه بالحرف ما يأتى :

« أعلن اليوم متحدث سعودى أن الحكومة الفرنسية قد استعلمت من وزارة الخارجية العربية السعودية بواسطة سفيرها فى جدة إذا كانت حكومة جلالة الملك ستقبل هذا العام كالمعتاد بعثة رسمية من مراكش موفدة من قبل محمد ابن عرفه وقد أجابت حكومة جلالته بأنها بناء على قرار الجامعة العربية لا تعترف مطلقاً بابن عرفه المذكور ولذلك لا تقبل أية بعثة يوفدها » .

لم تطيل التحديق فى وجهى وتهز رأسك هزاً متوالياً ؟

أتريد أن تقول إنك آمنت بكل ما قلته لك ؟

حسناً .. نحن إذن أمام صفعة مدوية من يد ملك مسلم تهوى على وجه سلطان مسلم .. لأن « الجامعة العربية » لا تعترف « بابن عرفه المذكور » .. وحامى الحرمين لا يعترف إذن به ولا يسمح لبعثته « الدينية » أن تجىء .. لأن العروبة لا تقبل أن تنتهك وحدتها .. باسم الدين .. إن « ابن عرفه المذكور »

خان أمانة العروبة ورسالة التحرير . . فوجب إقصاؤه ويستوى أن يكون مسلماً أو غير مسلم . . وجواهر لال نهرو وقف إلى جانب التكتل العربى . . ودعا إلى السلام العالمى . ونادى بحياد الكتلة الأسيوية . . فوجب أن نتعاون معه ويستوى أن يكون هندوسياً أو ملحداً . . لأن بلاد العروبة — فى الميزان السعودى — للعرب . . والشرق للشرقيين . . والدين لله .

ألم أقل لك أن هذا الملك نابه . . ومدرك . . وبعيد النظر ؟

بين الإمامين :

إن بين يدى الساعة وأنا أتحدث إليك بياناً آخر رسمياً ومشتركا أذاعه الملك سعود والإمام أحمد على أثر اجتماعهما فى صنعاء أضعه أمامك بحروفه لأنى أرى فيه « وثيقة » من وثائق العروبة لا يستكثر عليها حيز فى كتاب :

« الحمد لله الذى قدر لنا هذا الاجتماع المفعم بروح الأخاء ، وهيأ لنا العزيمة الصادقة ، والنية الخالصة ، لإقامة علائق أوثق . . ووضع أسس للوفاق بين بلدينا المتجاورين ، وشعبينا المتآخيين ، لنعمل بالتعاضد والتكاتف فيما فيه رفعة البلدين ، وصالح الشعبين ، اتباعاً لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

« ولكى نبذل كل ما فى وسعنا ، وما تبلغه استطاعتنا للعمل متفقين مع البلاد العربية عامة لتحقيق الغايات السامية التى أنشئت من أجلها الجامعة العربية ، وتحقيق الرغبات الوطنية التى تصبو إليها نفوس الناطقين بالضاد ، فى جميع أنحاء العالم العربى .

« ولنبلغ مع الأمم الأخرى إلى تلك المنزلة الانسانية العليا ، التى وضعت أسسها الصحيحة هيئة الأمم المتحدة فى ميثاقها الذى ضمن العدالة والإنصاف للجميع .

« ولقد استعرضنا فى اجتماعنا هذه الأسس التى قامت عليها هذه المبادىء

الخاصة والعامة وبحثنا فيما يختص بنا منها ، فوجدنا فيما بيننا اتفاقاً فى الرأى ووحدة فى الاتجاه ، واتحاداً فى الغاية ، فتعاقدنا بمواثيق خطت على صفحات القلوب بأن نعمل جاهدين لرفع مستوى شعبينا ، ودعم جامعتنا العربية ، وبذل الجهود مع العاملين على نشر السلام فى ربوع العالم .

« كما استعرضنا ، بصفة خاصة المشاكل السياسية الخاصه التى تهم بلدينا ، فكانت الآراء مسددة ومتفقاً عليها تفصيلا واضحاً وكل منا سيعمل جاهداً فى معاونة الآخر بجميع الوسائل السلمية وبما تقتضيه المواثيق العربية .

« كما اتفقنا على التعاون فى المبادىء الاقتصادية فيما بيننا إلى غاية الجهد المستطاع ، وبتبادل النصح والمعونة فيما يرفع شأن البلدين فى الأمور التجارية والزراعية والصناعية ، وفيما يسهل سبل التعاون بين أفراد الشعبين المتجاورين ، فى جميع مرافق الحياة .

« ولا حاجة بنا أن نذكر أننا عازمون — بعون الله — على أن ننفذ ، بأمانة وإخلاص ، ما ارتبطنا به مع الشقيقات العربيات فى الضمان الجماعى عند حدوث أى اعتداء على أى من بلادنا العربية العزيزة ، والوقوف أمام كل تجاوز على استقلالنا ووحدتنا .

« ولا ريب لدينا بأن جميع اخواننا ، ملوك ورؤساء البلاد العربية ، يشاركوننا فى هذا الشعور نحو المبادىء السامية التى ذكرنا ، وتلك العزيمة الصادقة للدفاع عن كياننا ، وحقنا الكامل فى الحياة فى أنحاء عالمنا العربى .

« كما أننا نهيب بجميع أفراد الشعوب العربية فى مختلف أفكارهم ، أن يجعلوا هذه المبادىء نصب أعينهم ، وغاية حياتهم فيبذل كل منهم استطاعته فى سبيل تحقيقها ، ويقف فى وجه كل فرد يقوم لعرقلة العاملين على تثبيتها ، ضمن جامعتنا العربية ، التى نرجو الله أن يحقق آمالها ، ويعين القائمين عليها ، ويلهمنا وإياها السداد فى الرأى ومضاعفة الجهد لنصل بها متساندين إلى الغاية

التى قامت من أجلها والمنزلة التى نرجو لها ، لننعم جميعاً بعزة وافرة وحياة وادعة ، وسلام شامل .

« ونحن نمد يد الصداقة لمن أرادها منا ، صداقة حرة تقوم على المساواة فى تبادل المصالح ، واحترام الاستقلال والله ولى التوفيق وبه نستعين » .

عبارات لها مغزاها :

والميثاق بين الملكين العربيين المسلمين .. صريح صراحة الإسلام .. صادق صدق العروبة .. ولكن فيه عبارات تحمل من المعانى ذات العمق ما يتصل بالسياسة السعودية « فى الغد » .

ومع أن البيان حرص فى مطلعه على أن يجىء داخل الإطار الإسلامى وأن يزدان بلغة القرآن .. فإنه لم يغفل أن يتحدث عن « المنزلة الإنسانية العليا » التى ترمى المملكتان إلى إدراكها .. وهى لغة جديدة لم يكن للمملكة المتوكلية عهد بها من قبل .. وتدل على أن القلم الذى جرى به قلم سعودى .. والقلب الذى تجاوب بهذا المعنى مع قلب الإمام أحمد .. كان قلب الملك سعود .

وعلى ذكر القلوب يستوقفنا من البيان قوله عن التعاقد بين الإمامين على العمل لرفع مستوى الشعبين — وهى خطوة طيبة تحييها العروبة — أنها « مواثيق خطت على صفحات القلوب » .

وأخطر ما فى البيان التعاقد بين الملكين :

« على دعم جامعتنا العربية ، وبذل المجهود مع العاملين على نشر السلام فى ربوع العالم » .. والذى يتزعم الدعوة إلى السلام فى عالم اليوم هو الباندیت جواهر لال نهرو .. فهل قصدت السياسة السعودية بهذه العبارة أن تفتح الباب إلى هذا التعاون بين الكتلتين العربية والأسيوية ؟

أدع لك الإجابة هذه المرة .

أما التكتل العربى فالبيان لا يرهب منه حتى الجانب الحربى بل يعدها أمراً مفروغا منه ويصفه بقوله :

« ولا حاجة بنا أن نذكر أننا عازمون — بعون الله — على أن ننفذ بأمانة وإخلاص ، ما ارتبطنا به مع الشقيقات العربيات فى الضمان الجماعى عند حدوث أى اعتداء على أى من بلادنا العربية العزيزة والوقوف أمام كل تجاوز على استقلالنا ووحدتنا » .

قد يقال إن اعتداء البريطانيين على الأراضى اليمنية فى العهد الأخير أغرى الإمام أحمد بهذا النص الحماسى . . وهو رأى مردود أولا بأن هذا النص إنما تسعى السياسة السعودية إلى قيام مثله بينها وبين أصغر إمارة عربية . . ومردود ثانياً بأن التكتل العربى يرفض فى إباء أن ينظر بعين الاعتبار إلى الرابح من وراءه أو إلى الخاسر . . لأنه إنما يهدف إلى تركيز الربح كله فى العروبة نفسها .

وإذن فبيان الملكين الإمامين بلاغ له وزنه وله خطره . . وله معانيه التى تربط بين « سياسة اليوم » وسياسة الغد » فى ميزان المملكة السعودية .

ومصر أيضاً :

ولعل من الخير أن نختتم البحث بكلمة عن مصر . . ولو أنى لا أحب أن أكثر الحديث عنها هنا . . حتى لا أتهم أولا بشرف التعصب لمصريتى — وتنزه البحث عن التعصب — ولأن الكتاب ثانياً إنما يزن المملكة السعودية ولا يزن مصر .

إنما اختتم البحث بكلمة عن مصر . . لأنى أكتب هذه الكلمة ومصر تستمع إلى خطابين لسيادة رئيس الجمهورية وسيادة رئيس الوزارة .

أشهد إنى تأثرت كثيراً وأنا أطالع لرئيس الجمهورية قوله :

« وليست مكانة مصر بين البلاد العربية إلا تكليفاً لم تسع إليه وإنما فرضها

عليها موقعها الجغرافى وربطها بلاد العرب شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً » .

وهذا هو الحق .. وزعامتنا ليست إلا « تكليفاً » لم نسع إليه قط .. إنما فرض علينا فرضينا به . . وموقعنا الجغرافى الذى يربط بلاد العرب .. هو بعينه المؤدى إلى الهند . . وإلى بلاد الكتلة الآسيوية .. فإذا كانت بريطانيا فى قصة تحفظاتها الأربعة القديمة يوم نادت بالسلطان فؤاد ملكا .. قد جعلت تأمين طرق المواصلات إلى الهند تحفظاً منها .. أفما نكون أولى منها بالعض بالنواجذ على هذا الطريق .. الذى رسمه الموقع الجغرافى الذى يتحدث عنه رئيس الجمهورية المصرية ؟

أما رئيس الوزارة المصرية فقد كان فى خطابه أكثر تحديداً .. للبحث الذى ننهض به هنا .. فقد أعرب عن اغتباط حكومته « أعظم الاغتباط لما نراه من توثيق العلاقات بين العرب وباقى أعضاء الكتلة الآسيوية الأفريقية وإطراد نجاح هذه الكتلة . وظهور آثارها فى المجال الدولى ولا يستطيع منصف أن ينكر أن هذه الكتلة الآسيوية الأفريقية عامل كبير من عوامل الاستقرار وعنصر خطير من عناصر السلام الدولى » .

لا أريد أن أزيد يا صاحبى .. فهل تريد أنت مزيداً ؟

كلا ؟ ولا أنا .. فلننتقل .

الفصل السابع عشر

التعاون بين دول الشرق جميعاً

وأثب بك أخيراً إلى التعاون بين الشرق كله .. لأنفض يدى من الحديث كله .

تقول إنك تشعر بشىء وراء هذه العجلة .. ؟

وأنا أيضاً يا صاحبى أشعر بها وأعرف سببها .. إنى أتعمد الانتقال السريع بك لأنى اكتشفت بعد أن فاجأنى الاتفاق على الهدنة فى الهند الصينية فى الساعة التى أتحدث خلالها إليك .. أن الحلقات أمست موصولة بين التكتلات الثلاثة .. وأن الذى يستطيع أن يقيم التعاون بين الكتلتين العربية والأسيوية يستطيع أن يوسع رقعة الأمل .. وأن يفسح للبصر فى مرماه .. ليرى الشرق من أدناه إلى أقصاه كتلة واحدة محايدة .. تدعو للسلام الذى يدعو له نهرو ويتمناه البشر جميعاً .. بل فى وسعى فى هذه الناحية أن أتخلى عن بقية الحديث وأن أتخيل التعاون بين دول الشرق كله أمراً واقعاً محتوماً نتيجة للتعاون بين الكتلتين العربية والأسيوية .

وفى الحديث الفائت لم يكن فى وسعى أن أتحدث إليك مثلا على الصين .. وفيها وحدها مافى القارات من سكان .. لأن الصين ليست عضوا فى هيئة الأمم حتى الآن .. والكتلة الأسيوية التى ظهر تعاونها معنا على المسرح الدولى كلها أعضاء فى الهيئة .

أما اليوم وقد وضعت الحرب أوزارها فى الهند الصينية .. فإن الوضع يتغير ويستأهل حديثاً جديداً وهذا الحديث الجديد مؤد بنا حتما — وأكاد أراه تلقائياً — إلى البحث فى التعاون الشامل بين دول الشرق جميعاً .

خذ هذه الصين .

ولا إنكار أنها أمست دولة حمراء ..

ولكن .. أليس جميلا هنا أن تذكر حديثاً لى فى فصلى الفائت قلت لك فيه إن السياسة السعودية ترى أن تفيد من المعسكر الشرقى تأييداً سياسياً أو تحريرياً أو تسليحا .. كما نفيد من المعسكر الأمريكى علماً وصناعة وخبرة ومالا .. ؟

الآن تأمل هذى النتائج يا صاحبى .. روسيا كمعسكر شرقى له أهدافه (ولا تعنينا هذه الأهداف) بلشفت الصين .. والصين أخذت على عاتقها (لسبب أو لآخر) أن تطهر أرض الهند الصينية من المستعمر فأشعلتا نار الثورة فيها وزودت ثوار فيتمنه بالأسلحة .

فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن خرت فرنسا المستعمرة من علياء كبريائها جاثية على ركبتيها .. ووقعت الهدنة . وأعلن دولياً — لا منحة منها — استقلال كامبوديا ولاوس وسحب جميع القوات الأجنبية منهما والتزامهما الحياد بين الكتلتين الشرقية والغربية وكذلك تحررت فيتنام على أن تجرى فيها انتخابات مقبلة تمهيداً لتوحيدها .

وماذا تعنى هذه النتيجة ؟

تعنى أولا أن الاستعمار الفرنسى — وبين العروبة وبينه ثأر — قد دكت اليوم معاقله فى آسيا .. إيذاناً باندكاكه عما قريب فى شمال أفريقيا بل فى كل أفريقيا .. وجزاء عادلا لأمة خانت ثورتها الكبرى وشعارها المثلث فحررت نفسها لتذل الآخرين .

وتعنى النتيجة ثانياً أن هذه الهدنة الدولية حررت كامبوديا ولاوس تحريراً تاماً وردت عليهما استقلالهما كاملا .. ثم تحتم على روسيا أن تلبس

مسوح أبطال التحرير ـ صادقة أو غير صادقة ـ فتبارك هذا الاستقلال .. وتوافق هى والصين ـ راضيتين أو كارهتين ـ على أن تلتزم كامبوديا ولاوس جانب الحياد التام بين الكتلتين الشرقية (روسيا والصين ..) والغربية (أمريكا وانجلترا ..) .

وهذا الحياد التام هو الذى تحلم به الكتلتان العربية والأسيوية .. وهو الذى تحلم به الدولتان السعودية والمصرية .. وهو الذى يحلم به نهرو رجل السلام .

أحرز السلام .. إذن نصراً جديداً كما قال بحق راديو موسكو .. وأحنى المعسكران رأسيهما لهذا الانتصار .. واستفادت الهند الصينية من المعسكر الشرقى .. وهذه هى السياسية التى ترنو إلى النسيج على منوالها مملكة سعود .. وهى ترنو إلى التعاون مع الكتلة الأسيوية أو مع دول الشرق كله .

وفى رأى بعض المتفائلين من المستشارين السعوديين أن التعاون بين دول الشرق ليس متعذراً .. وليس لزاماً أن يولد كبيراً .. وأن يبسط من مولده ذراعاً على المحيط الأطلسى وذراعاً على المحيط الهادى .. وإنما يدرس دراسة عملية واعية على أساس إمكانى واقعى .. وعلى خريطة الشرق .. وظروف دوله .

ويرى السعوديون أن الهند الصينية وپاكستان وبورما وسيلان يمكن الآن إلحاقها بركب الحياد الداعى إلى السلام .. (داخل إطار من التحفظ أو التحوط) .

ويلاحظ السعوديون أن الإمبراطور هيلاسلاسى صرح أخيراً وبعد ـ وبرغم ـ جولته فى أمريكا أنه منضم إلى الكتلة الأفريقية الأسيوية معتز بها ولا يفكر أبداً فى الانضمام إلى أى حلف آخر كحلف تركيا ـ پاكستان .

وإذن فأثيوبيا تمشى فى الركب .. صادقة أو مجاملة .. وواجبنا أن نفتح لها الذراعين تأهيلا وترحيباً .

تسأل ما الذى يتبقى لكى يتكتل الشرق كله ويعلن حياده فيتوارى الاستعمار ويستقر السلام ؟ يتبقى أن نعد إلى جانب حملة الحياد الظاهرة المشروعة . حملة خفية .. من براميل لا حصر لها من الزيت .. لنلقى بها فى كل مكان يوجد به مستعمر .. ونؤجج به النار فى كل مكان يوجد به ثائر .. فى كينيا والمستعمرات الإنجليزية والفرنسية والبلجيكية .. وفى تونس ومراكش والجزائر .. حتى تشب النار فى وقت واحد ضد الاستعمار فى جميع الأرجاء فلا تقوى آلاتهم على الإطفاء .. ولا يمهلون لتناول المظلومين فرادى .. لينكلوا بهم كما يفعل السفاح أرسكين فى كينيا .. وتظل الكتلتان العربية والأسيوية ملتزمتين رسمياً جانب الحياد الداعى إلى السلام . لتظل الثورات فردية بأسماء الثوار .. وتظل دول السلام تغذيهم من وراء ستار .. وتدعو إلى السلام أمام الستار .. وحتى لا يتخذ المستعمر من حماية الدول المحايدة للثوار ذريعة لاعتبار الثورات حروباً .. فتنتقل بنا إلى الميادين وليست لنا جيوش وتشتعل الحرب ونحن فى حقيقة أهدافنا دعاة حيدة وأنصار سلام .

يرى السعوديون أن هذه الأمنية الضخمة — أمنية التكتل بين الشرق كله — ليست أمنية خيالية .. وتحقيقها لم يعد بعيد المنال .. وأن دراستهم لهذه الأمنية غير ضارة إذا لم تنفع .. بل هى حتما ستوقظ أقواما طال نومهم .. وستحرك قلوباً طال تجمدها .. وستورث أهل القارتين حرارة وكرامة .. بعد أن تجمدت أطرافهم من برودة الهوان .

تقول أن المستعمر لن يقف مكتوف اليدين ؟ :

المملكة السعودية تعرف بالبداهة هذه الحقيقة .. ونطلب إليك أن تعود إلى ما قلناه لك وأنت تسأل عما يستطيع المعسكران أن يصنعاه بنا ؟ لن يقف

المستعمر مكتوف اليدين أبداً .. وصعوبة التكتل نابعة أصلا من الخوف من ألاعيب هذا المستعمر . والسياسة البعيدة المدى لاتقيم أى حساب للصعاب التى تعترض الآن « سياسة اليوم » .. إننا نتحدث مثلا عن مصر كزعيمة قادرة .. ونتحدث عن مصر والسودان كوحدة حرة .. ونتحدث عن المملكة السعودية كدولة مستقلة .. فهل يعوق هذا الحديث أو يشكك فى سلامته .. وجود محتلين فى رقعة من مصر أو فى أرض السودان .. أو وقوع اعتداء منهم على واحة البوريمى ؟

لا يغرب عن بالك أن تكتل الشرق هو ما أسميناه (سياسة ما بعد الغد)

من يدرى :

تقول إن لديك سؤالا أخيراً .. ؟ هاته ..

مالها ليبيا ؟ هى الأخرى سافر بعض مسئوليها إلى تركيا .. فلماذا ؟

لا تتعب نفسك يا أخى .. إننى أعرف ما هو أخطر .. أن حلف تركيا الباكستان .. أحيط بإرهاصات كثار .. وقيل إن معبراً لا بد أن يقيمه المعسكر الغربى من إيران وباكستان والعراق وتركيا لتقيم منه خط دفاع عن الشرق الأوسط ضد الخطر الأحمر إذا رفضت مصر الاشتراك فى هذا الدفاع .

ولكن لى رأيا قد لا أعدو الحق إن قلت لك إنى استخلصته من دراساتى للسياسة السعودية واتجاهاتها .

رأيى أن ما تخاله شراً قد يغدو خيراً كثيراً .

وجامعة الدول العربية أيد (إيدن) قيامها ليضلل بها وعى العروبة عن كفاحها الشعبى المثمر وليركز كل انفعالات الأحرار والثوار .. فى أيد رسمية رخوة تنفق عمر الجامعة فى حفلات تنفض وحفلات تقام .. ومع ذلك استطعنا أن نمكر بالكابتن (إيدن) أكثر مما استطاع أن يمكر بنا .. وخلقنا من جامعة الدول العربية .. منظمة أقليمية ذات شأن .. وأمسى فى

وسعنا .. أن نفسح لها مكاناً دولياً إلى جانب هيئة الأمم فمن يدريك إذا صح أن أمريكا تعد هذا الوعد وتغرى ليبيا بود تركيا وتغرى العراق بود الباكستان وتغرى الباكستان بود تركيا .. وتغرى هيلا سلاسى بالدولار الأمريكى .. من يدريك إذا لم تخرج دول أفريقيا وآسيا من وراء « الشطارة الأمريكية » .. بكتلة أفريقية أسيوية ذات علم ومال .. وأسلحة وذخيرة .. وزعامة عالمية تسترد من الغرب زمام الحضارة وتقلب على رأس ايزنهاور فيما يستهدفه الآن نفس الإناء الذى قلبته العروبة على رأس (إيدن) . كل ما يعوزنا فى هذا الشرق أن يتصل الأحرار بالأحرار .. وأن يتعاون الأحرار مع الأحرار .

يجب أن نذكر حقيقة أبدية لأنها طبيعية وجغرافية وإنسانية .. الحقيقة التى تقول إن كل الروابط التى تربطنا اليوم بانجلترا وأمريكا وروسيا .. صنعتها كما قلت قبلا يد المستعمر ولم تصنعها يد الله .. ولا صلة لنا بهم .. لا جنساً ولا ديناً . ولا جواراً ولا تخوما .. ولا لغة ولا لوناً .

أما يد الله فهى التى ربطت بين دول العروبة بروابط اللغة والجيرة والجنس وبرابطة الدين فى الأعم الأغلب .. هؤلاء الذين يؤلفون قرابة الخمسين مليونا وتضيف إليهم ثلاثين من الملايين فى شمال أفريقيا بل يؤيدهم خمسمائة مليون من المسلمين فى أرجاء الأرض .. تمشى الأخوة بينهم مع الدم فى عروقهم وتتردد مع الهواء فى أنفاسهم .

والبلاد السعودية زعيمة المسلمين الروحية تعرف خطر هذه الروابط وتريد أن يعرف الأخوة هذا الخطر .. وتريد أن تنهض مصر بالمهمة الملقاة على عاتقها فى هذه الساعة .

ومصر تعرف هذه الحقائق وتقدر هذا الوضع وتدرك أنها بلد أفريقى وأسيوى فى وقت واحد .. أفريقى لأنه (مع السودان) يشغل أكبر رقعة فى القارة الأفريقية مساحة وسكاناً وثقافة وعمراناً .. وأسيوى بوصفه أجزء لا يتجزأ من دول العروبة.. وكلها أسيوية تتاخم بحدودها حدود الباكستان

وإيران والأفغان والهند . . ومن هنا تتألف الشبكة التى تربط بينها الأخوة بمختلف ألوان الروابط .. ومن هنا يجىء الربط طبيعياً بين الكتلة الأفريقية والكتلة الآسيوية . ومن هنا تنحاز تلقائياً — إلى أى الكتلتين — البلاد الأخرى الباقية من رقعة الشرق كله .

لعلك لاحظت يا صاحبى أن أسباب الود اتصلت فى السنوات الأخيرة بين إسبانيا ودول العروبة وزار مصر السيد أرتاخو وزير خارجيتها . . وتبادلنا الكراسى الجامعية بيننا وبينها . . وأثرنا ذكريات إسبانيا الفخورة بتاريخ الأندلس . .

هذه القصة تلاحظ البلاد السعودية أن مصر الأفريقية الأسيوية تستطيع أن تغدو مصر الأوروبية وهى تعالجها . . أليست مصر من البلاد الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وهى بهذه الصفة أخت للبلاد التى اتخذت من هذا الشاطىء أباً لها .. وهى بهذه الصفة تستطيع أن ترى أن كل البلاد ما بين تركيا وإسبانيا أرضعتهن الطبيعة من مياه هذا البحر .. ميولا وطباعاً .. وعقلية ومزاجاً .. حتى اليونان الرابضة على الشاطىء الأوروبى تجاه الشاطىء الأفريقى .. ألم تكن أختاً لمصر وابنة فى الحضارتين الفرعونية والاغريقية ؟

زعامة مصر إذن كفيلة بأن تضفى من روحها على هذه الشواطىء . . وأن تدخر للشرق منها كثيراً من العواطف .

الفرصة إذن للتكتل الشرقى سانحة . . ولا ترتقب إلا أن يلتقى الأحرار فى هذه الدولة بالأحرار فى تلك . . والمملكة السعودية ترى أن هذه الآونة التى يهتز ميزان السلام خلالها فى يد القدر هى خير فرصة يمكن للعمل الجاد فيها أن يثمر .

ومصر تؤيد هذا الرأى . . ولكنها تتمهل حتى تفرغ من اتصالاتها

بالبلاد العربية .. وتوحد الجهود المنشودة فى كل بلد عربى .. وحتى تفرغ سوريا من انتخاباتها النيابية وحتى يجتمع الملوك والرؤساء للتفاهم .. ومصر فى هذا التمهل تذكر دائماً كلمة ابرهام لنكولن (إن الوطن المنقسم على نفسه لا يقف على قدميه أبداً ولا أعتقد فى قيام حكومة لبلد نصفه أحرار ونصفه عبيد) .

الفصل الثامن عشر

خاتمة

يا أخى الأعز :

طوفت بك ما طوفت .. وحلقت بك فى أطواء الجو .. ومخرت بك عباب البحر .. ولازمتك كالظل فى البدو والحضر .. وأتعبت معى « صاحبى الشيخ » .. لا لأفاضل بين الفنادق فى أم القرى ويثرب .. ولا لأحدثك عن الخادم اللبنانى والسائق التركى .. وإنما لأبلغ بك على جناحى فن القصة .. إلى لباب الكتاب .. فى بابه الثانى .. عن الوحدة العربية .. وعن الجامعة الإسلامية .. وعن الكتلة الشرقية .. فى ميزان المملكة السعودية .. ثم عن المملكة ذاتها فى ميزانى .

وعذراً يا أخى : إذا كنت قد وفيت لك بما وعدتك به .. وأسرفت فى هذا الوفاء .. فلم أتخل عن الأسلوب القصصى فى كل فصول الكتاب ..

عذراً يا أخى : إذا كان قد هالنى — ككاتب — أن تلك الزلفى التى جنح اليها جل الكتاب فى السنوات الأخيرة ليجتذبوك إلى نتاجهم .. فتملقوا فيك غريزة الإستعلاء على البحث والدراسة .. ورغبتك « المتوطنة » فى الاسترخاء والراحة .. فعبروا بك البحوث عبراً .. وقطعوا بك أوسع المحيطات سبحاً .. ليجنبوك أصغر القنوات غوصاً ..

عذراً يا أخى : إن كنت قد لاحظت أنهم بهذا التحايل غير الرفيع .. قد نشأوك على النفور من كل بحث رفيع .. وحببوا إليك الشكل دون الموضوع وأغروك حتى فى مضمارى العلم وساحة السياسة بالأسلوب البوليسى الخاطف ..

وزينوا فى ناظريك حادث طالب يذبح طالباً .. فلهوت به عن أرسكين السفاح وهو يذبح فى كل يوم قطيعاً من البشر .. ولهوت به عن الاستعمار الفرنسى يوم كان يعرض للموت فى دلتا النهر الأحمر مئات الآلاف من أبناء السنغال والمغرب .

عذراً يا أخى : إذا كنت من ناحيتى قد لاحظت فى أسى .. هذه الظاهرة المؤسفة .. فلجأت إلى فن القصة أغريه بك وأستعين به .. لا لأدعوك إلى إيثار فندق على فندق .. ولا لأرجوك الاستمتاع معى بسمرة الهندية الحسناء فى ردهات « التيسير » .. إنما ذكرت كل ما ذكرت .. وذكرت الهندية السمراء فى الفندق .. وذكرت المضيفة الإنجليزية فى الطائرة .. لأتسرب بك فى ظلال الميول التى غرسوها فيك إلى أن تقف معى ـ من غير أن تشعر ـ وقفة الباحث السياسى عن عدة مصائر .. مصير شرفنا المهين .. ومصير حقنا المهدر .. ومصير عروبتنا المضللة .. ومصير شرقنا المستعبد .

عذراً يا أخى : إن كنت قد استدرجتك بالرحلة مدخلا .. وبالقصة أسلوباً .. حتى دفعت بك فى رفق إلى غمار السياسة .. ومنطقة الشرق الأوسط الحساسة .. لترى ما يريده المستعمر من وراء الدس لنا والتفريق بيننا .. ولترى ما نريده نحن من وراء الدعوة إلى وحدتنا .. وعن وراء التبشير بكتلتنا الشرقية .. ولترى ما ترمى إليه مملكة السعوديين وما يرمى إليه الملك .. من أهداف فى هذا المعترك .

والآن : وأنت تنفض يديك منى .. هل تستطيع أن تقول عنى أنى مدحت ملك السعوديين كما يمدح الكتاب الملوك . ؟ وهل تستطيع أن تقول عنى أنى مدحت البانديت نهرو على بعد ما بيننا من بحار ومحيطات .. واختلاف فى الأجناس والأديان واللغات ؟

وهل تستطيع أن تقول عنى أنى مدحت أصحاب السلطان فى مصر

بالطريقة التى تخرجنى عن شرف البحث أو مهمة الباحث ؟

قل ما شئت يا أخى ..

أما أنا فلا أملك إلا أن أقول شيئًا واحدًا .. أملك أن أقول لك يا أخى ورأسى مرفوع دائمًا الى فوق : أنى أديت لك واجبى فى حدود مواهبى .

* * *

وأخيراً قد ترى أن هذه « الخاتمة » كان يجمل بها أن تكون « مقدمة » وأنا أقر هذا الرأى .. بالقلب وبالقلم .. ولكن هكذا قضى فن القصة .

فخذها إن شئت « مقدمة » . أو خلها — إن شئت — « خاتمة »

والله معنا .. فما أعرف فى الشعر أصدق من قول شوقى : « كلنا فى الهم شرق »

محمد السوادى

مجرى التاريخ

فى آخر لحظة من عمر الطباعة فى هذا الكتاب . .

وعند إنتهاء عمال المطبعة من صف حروف « الخاتمة » .

وفى الساعة العاشرة من مساء الثلاثاء السابع والعشرين من ذى القعدة ومن يوليو معاً . . استمع أبناء مصر والشرق البيان الرسمى المشترك التالى من محطة الإذاعة المصرية .

« وقع رئيس وزراء مصر ووزير حربية المملكة المتحدة اليوم بالقاهرة ، بالأحرف الأولى من أسمائهما ، الخطوط الرئيسية للاتفاق الذى يتضمن المبادىء التى يقترح إعداد اتفاق على أساسها ، خاص بقاعدة قناة السويس .

وقد أعرب رئيس الوزراء والوزير البريطانى ، بالنيابة عن حكومتيهما ، عن إيمانهما بأن هذا الاتفاق سوف يساعد بعد إزالة أسباب الخلاف والشك ، على اطراد التحسن فى العلاقات بين بلديهما . و يعلنان أنه ليس للاتفاق أى غرض عدوانى ، بل على النقيض من ذلك يعتقدان أن الترتيبات التى تناولها البحث ، والتى تضمنتها الخطوط الرئيسية ، ستفضى إلى المحافظة على السلم والأمن وهما هدف الحكومتين » :

وكل مرجوى . . وقد بدأ مجرى التاريخ المصرى يتحول . . أن يكون هذا التحول موضوعاً لكتابى السياسى التالى .

محمد السوادى

قادة الرأى

يبدون آراءهم

عندما أصدرنا كتابنا الأول (البرلمان فى الميزان) تفضل كثير من الكتاب والأدباء والشعراء وقادة الرأى مشكورين بإبداء آرائهم فى الكاتب والكتاب .

وقد رأينا – أسوة بما يجرى عليه العرف فى بعض المؤلفات الأوروبية – أن نثبت هنا مقتطفات من هذه الآراء .

(١)

طه حسين (عميد الأدب) :

« ... وإنما أحس أن من الحق علىّ ، أن أشكر لك هذه الساعة الحلوة التى قضيتها معك ، وأن أحمد اعتدالك فى الرأى ، وحسن قدرك للأمور ، وظرفك فى التعبير عما تريد وعما نريد نحن أيضاً ، وأحمد لك – بنوع خاص – هذه السماحة فى الطبع التى عصمتك من التكلف البغيض ، وألغت الكلفة بينك وبين قارئك ، أو ألغتها بينك وبينى على أقل تقدير » .

(٢)

توفيق الحكيم (القصصى الفنان) :

« لم يبق شك فى أن كاتب هذا الكتاب ، قد أعطى هبة السماء »

(٣)

فكرى أباظة (الصحفى الكبير) :

« هذه الكفاية البسيكولوجية فى التحليل هبة بل تكاد تكون إلهاماً .. والكتاب لا يوصف ولكنه يقرأ ويلتهم »

(٤)

المرحوم على محمود طه (الشاعر الملهم) :

« هذا الكتاب جديد فى موضوعه ، جديد فى أسلوبه ، وفى الطريقة التى تناول بها مؤلفه فترة من حياتنا البرلمانية وليس القلم الذى جرى فى صحائفه سوى ريشة فنان قادر ومصور بارع »

(٥)

احمد نجيب الهلالى (وزير التربية والتعليم يومئذ) :

« أهديت إلى قرائك تحفة نفيسة حقاً .. تمتع العقل والحس والذوق جميعاً .. فى أسلوبك اليسير الخلاب وفى نقدك النافذ الأخاذ .. وفى هذا العرض الجميل الرائع .. متاع ينعم به القارىء فى غير جهد ولا مشقة على كثرة ما بذلت من الجهد وما احتملت من المشقة » .

(٦)

محمد القبانى (مدير رقابة النشر يومئذ) :

« ولو أن كتاباً أقيم له تمثال إحتفاء بظهوره وتخليداً لمجده وتنويهاً بإسم واضعه لشيد (للبرلمان فى الميزان) تمثال » .

(٧)

جورنال ديجيبت :

« فى اعتقادنا أن هذا أول مؤلف من نوعه صدر باللغة العربية » .

رسم خريطة الغلاف : الفنان محمود المصرى

يطلب هـذا الـكتاب من المـكتبات فى مصر وجميع البلاد العربية . ومن مؤلفه (دار السوادى ٣٣ شارع جامع الإسماعيلي بالمالية بالقاهرة تليفون ٢٦٠٠٩) .

